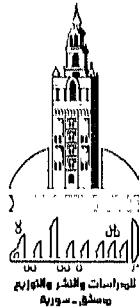
موسيس خوريناتسي

تاريخ الأرمن

من البداية حتى القرن الخامس الميلادي

نقله عن الأرمنية
نزار خليلي



الطبعة الأولى
أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩

مقدمة المترجم

المؤرخ موسيس خوريناتسي :

موسيس خوريناتسي، شخصيةٌ فريدة بين كتّاب الأرمن الأقدمين، تميّز عن غيره بما ثار حوله من جدلٍ، ٱستمرّ أربعة عشر قرنًا من الزمان، في مناقشة كتابه عن تاريخ الأرمن، ٱنغمس فيها كثيرٌ من الأرمن ومن غيرهم، ما بين منتقدٍ ومؤيّد، حتى صار مرجعًا مهمًّا للدارسين، ومصدرًا ثريًّا للباحثين، وكتابًا مدرسيًّا يُعتمد عليه في معرفة أصول الأمم ونشأتها، وفروع الأقوام وتوزُّعها علىٰ الأرض. ولم يتردّد الذين جاؤوا بعده من الٱستفادة من هٰذا الكتاب في بحوثهم ومؤلّفاتهم، حتى أوصله هٰذا الصيتُ الحسن إلىٰ حمل لقب "أبي التاريخ"، بل إلىٰ حمل لقب "هيرودوتس الأرمن". وغنيٌّ عن البيان أنه يحقّ للأرمن أن يُطلقوا عليه هٰذا اللقب، لأنه واحدٌ من الأوائل الذين كتبوا عن تاريخ الأمم القديمة بعد الكتاب المقدّس.

إلّا أنّ موسيس خوريناتسي تعرّض، في القرن التاسع عشر، لحملةٍ عنيفة شنّها عليه النقّاد، صحبها نقدٌ جائر وتشكيكٌ بنزاهة المصادر التي أخذ عنها، يونانيةً كانت أو آشورية، وٱستمرّت الحملةُ زمنًا، حتّى جاء المنصفون في القرن العشرين، ليردّوا للكتاب ٱعتباره وقيمته، فأضاءت شعلتُه من جديد، وعاد خوريناتسي ليتبوّأ، بكتابه هٰذا، المكانة اللائقة به بين الكتّاب المعاصرين، علىٰ الرغم من مرور كلّ هٰذا الزمن عليه.

والواقع أنَّ الدارسين لم يعرفوا كثيرًا عن حياة خوريناتسي إلّا ما تناولته الأساطيرُ الشعبية، وما ورد في كتابه نفسه وعلىٰ لسانه هو، ممّا لا يُشبع فضول المهتمّين به وبكتابه. ولكنّ هٰذا القدر يكفي لمعرفة شيء عن حياته ولو كان ذلك قليلا.

لقد آستنتج الدارسون من كُنيته، أنه ينتسب إلىٰ مدينةٍ أو قرية في إقليم "دارون" آسمها "خورين"، نظرًا لأنّ "تسي" بالأرمنية تقابل "ياء النسبة" بالعربية، لهذا أطلقوا عليه كنية "دارونتسي" أيضًا، ولكنْ بمدًى محدودٍ جدًّا، أمّا كنيته الشائعة فهي "خوريناتسي". ومع ذلك فإنّ بعضهم قد آقتنع بأنه من قرية "خورين" الواقعة في إقليم "سونيك".

ولم يقتصر الغموض علىٰ كُنيته، بل تعدّاها إلىٰ مولده الذي آستُدِلّ عليه من أقواله التي تناولت مؤتمر آفسوس الذي آنعقد بين عامي ٤٣٢ إلىٰ ٤٣٧م، وحضره خوريناتسي بصفة مطّلع، ويُعتقد أنه كان آنذاك في الثانية والعشرين من العمر، وهٰذا يعني أنه وُلد في العام ٤١٠م، حين كانت بلاده تُعاني من أزماتٍ شديدة، سياسيةٍ وآقتصادية، تتحكّم فيها الأممُ المجاورة.

ويُخمَّن أنه تلقّىٰ أوائل علومه في قريته خورين، وهي لا تتعدّىٰ القراءة والكتابة، وقليلًا من الحساب، وعلم الدين، ثم آنتسب إلىٰ المدرسة التي أسّسها مسروب ـ مبتدع الأحرف الأرمنية ـ في سونيك.

ولما بلغ الخامسة عشرة من العمر آنتقل إلىٰ مدينة فاغارشاباد القريبة، وفيها المدرسة الأرمنية المركزية التي درس فيها مسروب نفسه مدة خمس سنوات. وخلال هٰذه المدة تعلّم موسيس خوريناتسي، إضافةً إلىٰ العلوم المختلفة، عدّة لغاتٍ أجنبية، هي اليونانية والآشورية والبهلوية المتفرّعة عن الفارسية القديمة.

وهو في الثانية والعشرين من عمره حضر مؤتمر آفسوس، وبعده، قرر

الملك ساهاك والقديس مسروب إيفاده، مع لفيفٍ من أقرانه، إلىٰ الإسكندرية، الشهيرة بمدارسها المتقدّمة وجامعاتها، لدراسة الطبّ والفلسفة والفلك، وغيرها من العلوم التي كانوا يرغبون في ترجمتها إلىٰ اللغة الأرمنية بعد ما صارت لها حروفٌ تُعبِّر عن مضمونها.

بدأت الرحلة كما يبدو بعد مؤتمر آفسوس، أي بعد العام ٤٣٧، أو قبل ذلك بقليل ولكن ليس بعد. بدأت بتوجُّههم إلىٰ بلاد آشور، ومنها إلىٰ فلسطين، ثمّ إلىٰ الإسكندرية، حيث بقوا هناك ما بين خمس إلىٰ ستّ سنوات.

ولمّا عزموا علىٰ العودة وقع آختيارهم علىٰ طريق البحر، ولكنّ نوء البحر لم يساعدهم علىٰ آختيار طريق العودة، بل آختارها هو لهم بأن رماهم في أرض إيطاليا، فآضطرّوا إلىٰ النزول فيها والإقامة في روما بعض الوقت، ثمّ سلكوا الطريق البرية إلىٰ اليونان، فبيزنطة، فأرمينية، التي فوجئوا ـ حين وصلوا إليها ـ بخبر موت مَن أوفدوهم. لكنّ الأمر لم ينته عند هٰذا الحدّ، بل وجدوا آزورارًا عنهم، وآستخفافًا بهم، وحقدًا بلغ حدَّ المطاردة والتنكيل والآضطهاد! وكان هٰذا فوق ما يحتمله موسيس، لأنه جاء يفتخر بعلمه وكلُّه أملٌ في أن يكرّس علمه لمنفعة بلاده، وساءه أن يُقابَل هٰذه المقابلة، التي لم يجد مسوِّغًا لها غير الجهل!

إلّا أنّ الروح رُدَّت إليه بعدما تولّىٰ المُلْكَ ساهاك باكارادوني المتعلّم، وكلَّفه تدوينَ تاريخ الأمّة الأرمنية. وبدأ يكتب ويبحث ويُدوّن، إلىٰ أن حانت منيّته، ومات حوالىٰ العام ٤٩٣ ميلادية.

علىٰ أنه لم يصل، من أعماله التي يُعتقد أنها كانت كثيرة، غيرُ كتابين هما: ترجمة قصة بيدو، وكتاب تاريخ الأرمن، الذي نضعه بين أيدي القراء ليطّلعوا ويستفيدوا.

هٰذا كلّ ما أستطيع أن أقوله عن موسيس خوريناتسي، لأنّ البحث عن

الحالة الآجتماعية والسياسية وغيرها لا يفيدني في شيء، لآكتناف الزمان بالغموض والمجريات الكثيرة التي يطول شرحها، كذلك لا أريد الخوض في أسلوبه ولغته، لأنّ ذلك لن يهمّ القارئ العربي في شيء.

وما أودّ أن أختم به مقدّمتي هٰذه هو أنّ الدارسين عَدُّوه من ألمع كتّاب عصره، وأغزرهم علمًا، وأسلسهم أسلوبًا.

الكتـــاب :

ألّف ''خوريناتسي'' كتابه هٰذا باللغة الأرمنية القديمة ''كرابار''، التي كانت قد آعتُمدت في القرن الخامس الميلادي لغةً للكتابات الأدبية والدينية، بدلًا من اللهجات الكثيرة التي وصلت إلىٰ حدّ تعدُّد معاني الكلمة الواحدة، ممّا يؤدّي في بعض الحالات إلىٰ تباين المعاني في الكلمة الواحدة.

غير أنّ قواعد الـ''كرابار'' وصياغتها، كانت صعبةً جدًّا، وثقيلةً علىٰ العامّة وعلىٰ غير قليل من المثقفين. لذٰلك غامر بعض علماء اللغة والكتّاب، وآبتكروا لغةً وسطًا يفهمها الجميع بقواعدها المبسّطة والسهلة، فكانت هي اللغةَ الدارجة الشرقية التي آنتشرت في أرمينية وما جاورها. وبعد هجرات الأرمن إلىٰ الجنوب والغرب، آبتداءً من عام ١٨٩٥، آبتكر هٰؤلاء لغةً دارجةً تختلف قليلًا عن اللغة الشرقية، وصار الأدب يُكتب بكلتا اللغتين الدارجتين، كلٌّ فريق في ميدانه.

ثمّ إنّ الأدباء وجدوا أنفسهم أمام مشكلةٍ كبيرة، تتمثّل في المؤلّفات القديمة المكتوبة بلغة الكرابار، والتي أصبحت عرضةً للضياع بعد الآستغناء عن اللغة المذكورة، وباتوا مضطرّين إلىٰ نقل هٰذه المؤلّفات إلىٰ اللغتين الدارجتين المذكورتين.

من ضمن هٰذه المؤلّفات واكب الحظُّ مؤلَّف خوريناتسي، فترجمه عددٌ غير قليل من المتخصّصين، كان آخرهم ''استيبان مالخصيان'' الذي تولّىٰ ترجمته بإيعازٍ من أكاديمية العلوم في أرمينية، وطبعت عام ١٩٨١ في مطابع جامعة ''يريفان''.

وقد تمّت ترجمة هٰذا الكتاب إلىٰ العديد من اللغات الأجنبية، كالروسية والرومانية والألمانية والفرنسية والإنكليزية وغيرها. وبعد اَطّلاعي عليه رأيت أن أنقله إلىٰ العربية، لأهميته، ولشدّة الشبه بينه وبين كتاب لمحمد بن علي العظيمي الحلبي (٤٨٢ ـ ٥٥٦هـ / ١٠٩٠ ـ ١١٦١م): ''تاريخ حلب، من آدم إلىٰ ٥٣٨ هجرية''*.

بدأتُ عام ١٩٩٧ بنقل الكتاب عن اللغة القديمة ''كرابار''، من طبعةٍ صدرت في البندقية (عام ١٨٨١) خاليةً من الحواشي والتفاسير، إلّا من لائحةٍ بأسماء الأعلام وضعها الآباء المخيتاريون لم ألتزم بها. ثمّ ما لبثت أن اَستعنت بترجمة مالخصيان إلىٰ اللغة الدارجة الشرقية، والتي ذيّلها بشروح منه جعلها في حواشٍ في آخر الترجمة، اَخترت منها ثمانين حاشيةً ممّا قدّرت أنه يهمّ القارئ العربي**.

أما نصوص الكتاب المقدّس، الواردة عرضًا في الكتاب، والتي لم يُشَر إلىٰ مكانها في الكتاب المقدّس، فقد دقّقتها وتأكدتُ من سلامتها وتثبّتُّها.

كَسَب (محافظة اللاذقية): ١٥ شباط ١٩٩٨ — **نزار خليلي**

* تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤.

** وقد أدرَجَها، ناشرُ هٰذه الطبعة العربية بدمشق، كلَّ حاشيةٍ منها في موضعها من صفحات الكتاب.

مترجم الكتاب إلى العربية

• وُلِد **نزار خليلي** في حلب عام ١٩٢٥، من والدَين عربيّين مسلمين.

• تلقّى تعليمه الأوّليّ في مدرسة "المُتنبّي"، ثمّ في ثانوية "سيف الدولة" (التجهيز الثانية).

• عمل مدرّسًا للعربية في "مدرسة زاواريان" الأرمنية الخاصّة، وفيها تعلّم اللغة الأرمنية، فضلًا عن دراسته بوسائله الخاصّة الفرنسية والإنكليزية والتركية.

• عمل موظّفًا في "مؤسّسة الخطوط الحديدية" بحلب عام ١٩٤٧، وتركها متقاعدًا في ١٩٨٣.

• تزوّج عام ١٩٥٤ من "حياة عيسى"، وأنجب "عاصم" (يؤلّف الأغاني، ويُتقن العزف على عددٍ من الآلات الموسيقية) و "سوسن" (تؤلّف الأغاني للأطفال، وتلحّنها، وتُغنّيها بصوتها وهي تعزف على البيانو. لها كتاب وكاسيت بعنوان "غنّ يا طفلي الحبيب"، ١٩٩٧)، وقد أنجبا له الأحفاد.

• انتسب في وقتٍ متأخّر إلى كلية الحقوق بجامعة حلب ولم يُكمل دراسته، ثمّ انتسب إلى كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، وشغله عن متابعة الدراسة انصرافُه إلى الأدب والترجمة.

• حَظِي بالتقدير والتكريم من المؤسسات الثقافية والمطرانيّات والجهات الرسمية في كلٍّ من حلب والقامشلي ودمشق وبيروت، على جهوده المتواصلة في خدمة الأدب والفكر والترجمة.

• زار كثيرًا من الأقطار العربية، وزار مرّاتٍ، بصفة محاضر أو مشارك في المؤتمرات الأدبية، كلًّا من روسيا، وأرمينية، وأزربايجان، وجورجيا، ولقي فيها التكريم من الجامعات والأكاديميات، وقُلّد الأوسمة. وآخر ذلك أنه مُنِح، في صيف العام الماضي (١٩٩٨)، لقب "بروفسّور شرف" من "جامعة آسيا وإفريقيا" في تفليس (عاصمة جورجيا)، تقديرًا لجهوده في نقل بعض الأعمال الأدبية الجورجية الهامّة إلى العربية.

أعماله الأدبية

أولًا: من تأليفه:

١ـ ''عثمان آغا في جزيرة أرواد'' (رواية)، حلب: دار الشرق ١٩٧٠.

ثانيًا: مترجماته عن الأرمنية:

٢ـ ''سيامنتو وخجه زاره''، للشاعر هوانيس شيراز، بيروت: دار سيفان للنشر ١٩٦١.

٣ـ ''المتسوّلون الشرفاء'' (مسرحية)، لـ هاكوب بارونيان، حلب: دار الشرق ١٩٦٤.

٤ـ١٠ـ سبعة كتيّبات للأطفال: ''كيكور''، ''الأخ الجَدْي''، ''ناظار الشجاع''، ''دافيد الصاصوني''، ''آنوش''، ''جرّة الذهب''، ''قطرة عسل''، من تأليف هوانيس تومانيان، حلب: دار الشرق ١٩٦٨.

١١ـ ''مخيتار هيراتسي''، لـ آردزرون كدزويان، حلب: مطبعة الشرق ١٩٧٢.

١٢ـ١٤ـ ثلاثة كتب: ''الطبيب آسادور آلتونيان''، ''الأمراض والكشف عنها سريريًّا''، ''تاريخ الطبّ الأرمني''، من تأليف الطبيب الأرمني الحلبي الدكتور روبير جبيجيان، حلب: مؤسسة جورج سالم الخيرية ١٩٧٣ و ١٩٧٤.

١٥ـ ''آلام مكبوتة'' (قصص)، لـ كريكور زوهراب، حلب: مطبعة الشرق ١٩٧٥.

١٦ـ ''آويديك إيساهاكيان''، للطبيب الأرمني الحلبي الدكتور طوروس طورانيان، حلب: مطبعة الشرق ١٩٧٥.

١٧ـ ''رنّات صامتة'' (قصص)، للطبيب الأرمني الحلبي زاوين دولابجيان، حلب: مطبعة الشرق ١٩٧٧.

١٨ـ ''حبٌّ وحبّ'' (قصص)، للكاتبة الأرمنية الحلبية لوسي سُلاحيان، دمشق: وزارة الثقافة ١٩٨٥.

١٩ـ ''المعلّم الأخير'' (مسرحية)، لـ فارتكيس بيدروسيان، دمشق: وزارة الثقافة ١٩٨٥.

٢٠ـ ''قلوب حائرة'' (قصص)، لـ لوسي سلاحيان، دمشق: دار طلاس ١٩٨٧.

٢١ـ "الدرّاجة الحمراء" (قصص للأطفال)، لـ لوسي سلاحيان، دمشق: دار طلاس ١٩٨٨.

٢٢ـ "جورجيا والشعب الجورجي"، لـ طوروس طورانيان: حلب: مطبعة الشرق ١٩٨٩.

٢٣ـ "ثلاث سنوات" (يوميّات ضابط في الجيش السوفييتي)، لـ سيرو خانزاتيان، دمشق: وزارة الثقافة ١٩٩١.

٢٤ـ "الصقر الأخضر" (قصص)، للكاتب الأرمني اللبناني كيورك إيبجيان، بيروت: دار دونيكيان ١٩٩٣.

٢٥ـ "صوتٌ من جبال كَسَب" (قصص)، للكاتب الأرمني السوري زوهراب عنتبليان، دمشق: دار إشبيلية ١٩٩٣.

٢٦ـ "المراثي" (ملحمة شعرية)، لـ كريكور ناريكاتسي، حلب: دار الفكرة ١٩٩٤.

٢٧ـ "وثائق تاريخية عن المجازر الأرمنية عام ١٩١٥"، اللاذقية: دار الحوار ١٩٩٥.

٢٨ـ "حياة وأعمال الدكتور مصطفى خير الدين العيسى"، للطبيب الدكتور روبير جبيجيان، حلب: دار جبيجيان ١٩٩٧.

٢٩ـ "تاريخ الأرمن، من البداية حتى القرن الخامس الميلادي"، لـ موسيس خوريناتسي، دمشق: دار إشبيلية ١٩٩٩.

ثالثًا: مترجماته في الأدب الجورجي (عن الفرنسية):

٣٠ـ "الفارس في إهاب النمر" (ملحمة)، للشاعر الجورجي شوتا روستافيلي، دمشق: المطبعة الجديدة ١٩٨٤.

٣١ـ "قَدَر جورجيا" (قصة شعرية)، للشاعر نيقولوز باراتاشفيلي، اللاذقية: دار الحوار ١٩٨٧.

٣٢ـ "الناسك" (قصة شعرية)، للشاعر إيليا جافجافادزه، اللاذقية: دار الحوار ١٩٨٧.

٣٣ـ "خمس قصص من الأدب الجورجي"، لجماعة من الكتّاب، اللاذقية: دار الحوار ١٩٨٨.

٣٤ـ "المؤدِّب" (قصة شعرية)، للشاعر آكاكي تسيريتيلي، اللاذقية: دار الحوار ١٩٨٨.

رابعًا: مترجماته عن التركية:

٣٥ـ "رسوم ومعارف"، للكاتب والفنان التركي طارق ممتاز بازغان آلب، حلب: مطبعة المعارف ١٩٩٥.

(إعداد دار إشبيلية ١٩٩٩)

تاريخ الأرمن

من البداية حتى القرن الخامس الميلادي

الكتاب الأول

[تاريخ السلف الأول

من آدم إلى الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٦ ق. م.]

الكتاب الثاني

تاريخ السلف الأوسط

[من عهد الإسكندر المقدوني حتى عهد القديس الملك درتاد

من ٣٣٦ ق. م. إلى ٣٣٠ ميلادية]

الكتاب الثالث

إستكمال تاريخ أمتنا

[من سنة ٣٣٠ ميلادية

إلى ٤٣٨ سنة وفاة القديسين ساهاك ومسروب]

الكتاب الأول

[تاريخ السلف الأول

من آدم إلى الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٦ ق.م.]

١

الحديث عن مواليد أسلافنا الأرمن
جوابًا لرسالة ساهاك الملك
ثم الوعد بتحقيق رغبته

في بداية الحديث عن تاريخ أمتنا، لا بدّ لي ـ أنا موسيس خوريناتسي ـ من أن أُبارك "ساهاك باكارادوني" وأُعظّمه، لِمَا لمستُه فيكَ من روح طيّبة مهيمنة على ما حباك الله به من خيرٍ ومجد، وما عرفتُه من رغبتك الصادقة في معرفة تاريخ أمتنا. وأدركتُ أنّ التعرّف على روحك هو السبيل إلى معرفة شخصك، وأنّ معرفةَ شخصك تقودني إلى تقديرك، والثناء عليك، واحترامك، والصلاة لك، لتبقى ثابتًا على رغبتك لا تتخلّى عنها.

جاء في الكتاب المقدّس، أنّ الله خلقنا على صورته*، وأعطانا العقل والنطق ليُميّزنا عن سائر خلقه، وجعل هاتين الميزتين فيك شعلةً وهّاجة، تُنير سبيلي وتَحْفِزني على البدء في العمل الذي كلّفتَني إيّاه، فأَمضي فيه مشمولًا برعايتك، مع ما أمكن من السرعة، قبل أن يدركني الوقت، خصوصًا وأنه لم يخطر ببال أحدٍ، ممّن سبقك من الملوك من قريبٍ أو بعيد، أن يفكّر في مثل ما فكّرتَ ويكلّف أحدًا من العلماء، القائمين عند بابه، تأليفَ كتابٍ يتضمّن

* سفر التكوين، ١: ٢٧ (من الكتاب المقدّس).

[الناشر: هٰذه الحاشية، وسائر حواشي الكتاب، من وضع ا. مالخصيان، مترجم الكتاب من الأرمنية القديمة إلى الأرمنية الحديثة]

الأحوال التاريخية، أو يسعىٰ إلىٰ الحصول علىٰ وثائق تحكي عن تاريخ أمتنا ـ لهذا صرتَ أنت الأسبق، والأسمىٰ، والأعظم، والأجدر، والأحقّ بالثناء، وأن يُسجّل اَسمك في سجلّ الخالدين ليبقىٰ خالدًا مع خلود هٰذا الكتاب.

يسرّني، الآن، أن أُبلغك قبولي بتكليفك عن طيب خاطر، ساعيًا إلىٰ بذل كلّ جهدي لتحقيق رغبتك في كتابٍ، يبقىٰ شاهدًا لك، وللأجيال بعدك، عن عظمة وعراقة أمتك، يتحدّث عن الأصول والفروع من أسلافنا الأرمن، وعن الرابطة بين الآباء والأبناء، بأسلوبٍ موجز وموثّق تاريخيًّا، علىٰ غرار ما جاء في كتب اليونان الكثيرة.

٢

لماذا اخترنا المصادر اليونانية مع أن المصادر الآشورية والكلدانية أنسب لعملنا

قد يعجب بعض الناس حين يعلمون بأننا لم نعتمد علىٰ دواوين وسجلّات الأمم الكثيرة، ومنها الآشورية والكلدانية، التي تتضمّن وثائقَ تاريخيةً مهمّة عن تاريخ أمتنا الأرمنية، واَخترنا المصادر اليونانية التي تحكي عن تاريخنا.

أقول لهؤلاء: إنّ ذلك كان بسبب ثقتي بالمدوّنات اليونانية التي يَعتبِر ملوكُها أنفسَهم ورثة الدنيا، فهم يدوّنون تراثهم، إلىٰ جانب تراث الأمم الأخرىٰ، بشكلٍ دقيق وتنسيقٍ ينسجم مع حجم غرورهم، مثلهم الأعلىٰ في ذلك بطليموسُ حبيب أخيه*، الذي أكّد علىٰ وجوب ترجمة كلّ الأعمال الأدبية والأشعار والأحوال العامّة من اللغات الأجنبية إلىٰ اللغة اليونانية.

* ذبح أخاه، فلقّبوه بهذا اللقب!

لقد ٱنتقَدَنا كثيرٌ من قليلي الخبرة والمعرفة، وندّدوا بثقافتنا وعلمنا، لأننا ذكرنا أنّ بطليموس هو ملك اليونان، وهو ملك مصر حسب علمهم، وغاب عنهم أنه بسط سلطته علىٰ مصر واليونان معًا وحمل لقب ملك الإسكندرية، وهو لقبٌ لم يحمله أحدٌ من بعده، لا من اليونان ولا من المصريين، وكان فوق ذلك متعصّبًا للغته اليونانية، التي أمر بتدوين كلّ ٱنتصاراته وإصلاحاته وأعماله بها، ولم يَغْفَل عن الٱهتمام بأمتنا الأرمنية، لهٰذا أطلقنا عليه لقب ''ملك اليونان''.

وليس هٰذا وحسب، وإنما هناك أسبابٌ كثيرة دفعتنا إلىٰ الٱعتماد علىٰ المصادر اليونانية في تدوين تاريخنا، لا مجال لذكرها هنا، إنما يكفي أن نعرف أنّ أشهر العلماء والمؤرّخين قد نقلوا إليها خلاصة معلوماتهم في الفلك والنجوم والطبّ والفلسفة والموسيقا التي أخذوها عن الكلدان والفرس، والحساب الذي أخذوه عن الفينيقيين، والمساحة التي أخذوها عن المصريين، حتى صارت اللغة اليونانية المصدر الكامل للباحثين في كلّ العلوم المعروفة في ذلك الزمان. وهٰذا ما جعلني أعتبر اليونان بلدَ العلم الأمّ وعرّابَتَهُ: من أشهر من كتبوا في ذلك الزمان بيروسوس* الكلداني.

أكتفي بهذا القدر لتوضيح سبب ٱختياري المصادر اليونانية في دراستي التاريخية هٰذه.

* بيروسوس: كاهن وثنيّ جاهليّ منجّم في بابل، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد في زمن آنديوكوس سلوذر. كتب بين العامين، ١٨٠ ـ ١٧٠ قبل الميلاد، كتابًا مشهورًا عن الكلدان وآشور، مستفيدًا من وثائق عَثَر عليها في معبد بالأحرف المسمارية، كما كتب كتابًا يتعلّق بعلم النجوم.

٣

عن أسلافنا من الملوك والحكام وعاداتهم

تُعرف الأممُ بتراثها، المكتوب عن عاداتها وتقاليدها وبطولات ملوكها وأمجادهم، والمتاح لكلّ من يرغب في البحث والدرس من خلال القصص والأشعار الشعبيةَ ومراجعة الدواوين الرسمية، ليخرج بفكرةٍ واضحة عن هٰذه الأمة. لكنّ أسلافنا، مع الأسف، لم يتركوا لنا أثرًا مكتوبًا نتعرّف به عليهم، بل تركونا، بنتيجة جهلهم، نتخبّط في دواوين الأمم الأخرى لنتعرّف علىٰ أنفسنا.

أنا لا أتّهم فردًا بعينه، بل أصبّ اللوم علىٰ أسلافنا كلّهم، لأنهم لم يتطلّعوا إلىٰ المستقبل ولم يهتمّوا بالماضي، حتىٰ ضاع أثرهم الإنساني والعلمي، بٱستثناء القليل القليل الذي تطوّع بعضهم لتسجيله في دواوينهم، وهم من الكلدان والآشوريين واليونان والمصريين. قد يُعزىٰ التقصير إلىٰ نقصٍ في الخبرة والمعرفة، الذي طغىٰ علىٰ الأوائل، الذين شغلتهم الحروب والاَضطرابات المستمرّة عن التفكير في مثل هٰذه الأمور، التي ربما ٱعتبروها تافهة.

لكن، مهما كانت الأسباب، فأنا لا أنفي عنهم تهمة التقصير، وسيظلّ عتبي عليهم قائمًا إلىٰ الأبد.

علىٰ أنّ هناك من يريد أن يعزو التقصير إلىٰ غياب أحرف اللغة الأرمنية وإلىٰ ٱستمرار الحروب، فيكون كمن لا يريد أن يرىٰ النور. لأنّ غياب أحرف اللغة وتوالي الحروب لا يقفان حائلًا دون تدوين التاريخ ولو بأحرفٍ مستعارة، كما أنّ الأمة قد حظيت بفتراتِ سلام طويلة كانت تكفي لتحقيق هٰذا الغرض. خصوصًا وأنّ أحرف الأمتين ٱلفارسية واليونانية، الجارتين، كانت

تستطيع أن تؤدّي المهمّة، فلا يبقىٰ مبرّرٌ للجهل والتقصير. ولقد ثبت ذلك حين تمكّن بعض المتأخّرين من ملوكنا، ومنهم أفراد الأسرة السبوهية، من تدوين ما تيسّر لهم من شؤون الإعمار وفنون العلم والأدب والتاريخ، فلم يبقَ لنا إلّا أن نُصِرّ علىٰ اتهام المتقدّمين بالجهل والتخلّف.

حيال ما تقدّم، أراني لا أمنع نفسي عن الإعجاب بكَ، وبمشروعك الذي طرحته لتأليف كتابٍ شامل يتحدّث عن تاريخ أمتك، حَمَلْتَ لواءه وتحمّلتَ عباه، وحمّلتَني وحدي مهمّة البحث والتقصّي والتثبّت من صحة الوقائع في أخبار الملوك وسُلالات النبلاء والعامّة، والتحرّي عن أصولهم وفروعهم، وعن الأصيل في الأمة والدخيل عليها والمنصهر في بوتقتها. وتوثيق ما فعلوه، ٱبتداءً من أول الخلق وٱنتهاءً بزمننا الحاضر، وهٰذا ولا شكّ فضلٌ جميل منك، إضافةً إلىٰ أنه يُخلِّد ٱسمك إلىٰ الأبد.

بهذا التكليف، حمّلتَني عبء التحرّي عن كتابٍ أو سجلٍّ يتضمنّ تاريخ أجدادك أستعين به للتحدّث عنهم، متتبّعًا أسلوب اليهود في ذكر السُّلالات، نزولًا من أول السلف وصولًا إليك، أو أعكس الأمر فأبدأ بك ٱرتفاعًا إلىٰ سلفك إلىٰ أن أصل إلىٰ نقطة البداية. لكنني لم أرتح إلىٰ أسلوب اليهود هٰذا ولا لكتّابهم، وفضّلت أتباع أسلوبٍ مستقلٍّ يحمل طابعي. قد يكون ذلك صعبًا عليّ، لكنّ الصعب يهون أمام رضائك ورضىٰ الناس، فلا يضيع تعبي سدًىٰ.

سأبدأ بمثل ما بدأ به المؤرّخون الكنسيّون، وبما يتلاءم مع العقيدة المسيحية، ضاربًا صفحًا عن أساطير الأولين الخرافية، التي تحكي عن بداية الخلق حسبما يطيب لها من دون دليلٍ أو إثبات. وأرىٰ أن أكتفي بالحديث عن أزمنة معينة وعن أشخاصٍ بارزين، علىٰ قدر ما يتلاءم مع الكتاب المقدّس، ومع توقّعات الجاهليين، بعدما نختار المعقول منها ونتثبّت من صحته.

٤

عدم اتفاق المؤرخين
على ما يتعلق بآدم وغيره من الآباء الأولين

لقد ثبت لدينا أنّ آراء المؤرّخين، مثل بيروسوس وبولييستور وآبيطينوس*، لم تتّفق حول مفهوم الروح القُدُس، ولم تتّفق مع الكتاب المقدّس حول صاحب الفُلْك وأصل البشر، وبقيت فجوة الخلاف بينهم كبيرةً، شملت أسماء الأشخاص والأماكن وتعدّتها إلىٰ أصل الجنس البشريّ بشكلٍ غير معقول ولا مقبول عندنا.

لقد غيّر آبيطينوس، شأنُه شأن غيره من المؤرخين، اَسمَ نوح إلىٰ آزوفروس، وقال عنه: «*إنّ الله الكريم قد ولّاه علىٰ الناس وليًّا مرشدًا، وجعله يجلس علىٰ كرسي الملك عشرة ''تشارات''*»، وهي كلمةٌ آشورية عدديّة تُساوي الواحدةُ منها ثلاثة آلاف وستمائة [سنة]، وهٰذا عددٌ غير معقول لعمرٍ آدميّ، ولا يمكن أن يكون نوح قد عاشها. لعلّهم اَتّفقوا مع الكتاب المقدّس، حول حكاية الطوفان واَنفتاح المياه من السماء وتفجُّرها من الأرض، إلّا أنهم لم يتّفقوا معه علىٰ الحساب الشمسيّ في عدد السنين واَنقسام السنة إلىٰ أربعة فصول. كما أنهم لم يعترفوا إلّا بعشرة رُسُلٍ أُرسلوا للناس. لذلك لا يمكننا أن

* بولييستور: شاعر ومؤرّخ يونانيّ في مدينة ميليد أو مينت، في القرن الثاني قبل الميلاد. كتب كثيرًا من الكتب التاريخية والجغرافية بدقّة، لم يتبقَّ منها غير وريقات بالية. آبيطينوس: لم يرد ذكره إلّا علىٰ لسان يغيسيبيوس، الذي قال إنه كتب تاريخ الآشوريين وتاريخ الكلدان، ولم ترد عنه معلومات أخرىٰ. نقل يغيسيبيوس كيساراتسي عن هٰؤلاء الثلاثة، ومنه نقل خورِيناتسي.

نجد وجهةَ تقاربٍ في عمر نوح* لا بحساب السنين التي تعتمد علىٰ ولادات القمر التي يتّبعها المصريون، ولا بحساب السنين الإلٰهية، أي الشمسية، ولقد سمّيت إلٰهية لأنها وردت في الكتاب المقدّس**. كنت أودّ أن أُناقش هٰذا الأمر وأنتقده، ولكنّ وقتي لا يتّسع لمثل هٰذا الأمر الآن لانشغالي بالسَّلَف. وقد أعود إليه في زمانٍ ومكان آخرين.

يدّعي هوسيبيوس*** أنّ آدم أبا البشر قد وَلَدَ شيثا، وأنّ شيثا وَلَدَ آنوش الذي ترك منقوشتَين تتحدّثان عن أمورٍ مقبلة، إلّا أنه لم يُحدِّد مكان المنقوشتين اللتين يدّعي وجودهما، علمًا بأنّ آنوش هو أول من ذكر اَسم الله.

لكن لماذا؟ وما هي الدواعي التي جعلت آنوش أول من ذكر الله، مع وجود آدم، أولِ إنسانٍ خلقه الله ولقّنه الوصية من فمه؟ وحين أذنب وحاول أن يتوارىٰ عن نظر الله، ناداه بصوته: *«أين أنت؟»*، وكان حَرِيًّا به، مع مجيء خَلَفِه هابيل الذي تقبّل الله قربانه تكريمًا له، أن يكون أول من ذكر الله، فلماذا آنوش إذن؟ وما المقصود من ذكر الله وقد سبقه إليه آدم وهابيل؟ وهٰذا أيضًا أمرٌ متروك إلىٰ ما بعد، لأنه لا يتعلّق بموضوعنا.

* كسيسوتروس: هو اَسم نوح باللغة الكلدانية والبابلية. جاء ذكره في قصّة الطوفان علىٰ الرُّقُم المكتوبة بالحروف المسمارية.

** يدّعي الفلكيون أنّ السنة الإلٰهية تساوي دورة الشمس مع الكواكب السيّارة والنجوم الثابتة حين تلتقي كلّها في نقطةٍ معيّنة من السماء، ويتراوح طولها بالنسبة للسنة الأرضية ما بين ٢٠ ٠٠٠ إلىٰ ٣٠ ٠٠٠.

*** هوسيبيوس فلابيانوس: مؤرّخ يهودي عاش في القرن الأول (توفي ٩٥م) في زمن القيصرين فيسباسيانوس و تيدوس. شارك في الثورة اليهودية علىٰ الرومان، وكان شاهد عيان علىٰ تدمير أورشليم وضياع التابوت. كتب كتابًا يصف فيه هٰذه الواقعة، اَستفاد منها مؤرّخنا.

طُرِد أبو البشر من الجنّة، وأُبعد عن وجه الله، لأنه خالف الوصية ووقع في شرّ عمله. وسقط هابيل ٱبن آدم المقرّب من الله قتيلًا بيد أخيه، لذلك حرمهم الله من ذكره ومن التوجّه إليه بالخطاب، إلىٰ أن وَقَعوا في حيرةٍ ويأس وتخبّط في أمورهم الحياتية، وعادوا إليه بقلبٍ سليم يدعونه ويذكرونه، وكان ذلك في عهد آنوش. ويُفسّر ذكر الله بإحدىٰ غايتين ٱثنتين: الرجوع إلىٰ الله بعد نسيانه، أو الرجوع إلىٰ الله طلبًا للعفو والمغفرة.

بعد مائةٍ وتسعين سنةً وَلَدَ آنوش قينان. وبعد مائةٍ وسبعين سنةً وَلَدَ قينان ٱبنَهُ مهلئيل. وبعد مائة وخمس وستين سنةً وَلَدَ مهلئيل ٱبنَهُ يارد. وبعد مائة وٱثنتين وستين سنةً وَلَدَ يارد ٱبنَهُ آخنوخ. وبعد مائة وخمس وستين سنةً وَلَدَ آخنوخ ٱبنَهُ متوشالح. وعاش آخنوخ بعد ولادة متوشالح مائتي سنةٍ في سعادةٍ وهناء، بعدما تخلّص من الظالمين كما قيل، وسنشرح في حينه كيفية خلاصه. في المائة والخامسة والستين وَلَدَ متوشالح ٱبنَهُ لامك. في المائة والثامنة والثمانين وَلَدَ لامك ولدًا سمّاه نوحا.

قصة نوح :

قد يسأل سائل عن سبب ذكر ٱسم نوح مسبوقًا بكلمة ''سمّاه''، بينما قيل عن الآخرين أنهم ''ولدوا''. هٰذا، لأنّ أباه تنبّأ له بقوله: *«هٰذا يُعزّينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الله»*. وحين جاء العزاء أزال كلّ شيءٍ من علىٰ الأرض إلّا ما أمر الله به. ولقد جاء لتطهير الأرض من شرور الجيل الثاني من البشر الذين طَغَوا وبَغَوا فيها. ولقد أراد بكلمة ''عملنا''، تلك الذنوبَ التي ٱرتكبوها. وقصد ''بأيدينا''، تلك الأيدي الأمّارة بالسوء التي تساعد علىٰ ٱرتكاب المعاصي. علىٰ أنّ هٰذه النبوءة، وإن كانت ترمز إلىٰ الحقّ، قد غفلت عن النفوس الطيبة الطاهرة التي ساهمت، مع السيل

والطوفان، في تطهير الأرض من أدرانها. أما نوح فكان صِدِّيقًا آمتلأ قلبه بالإيمان، وصار جديرًا بوراثة النعمة الأبوية، لذلك عظّمه الكتابُ المقدّس، وأسبغ عليه لقب الآبن الصالح.

٥

مواليد أبناء نوح وتنتهي عند إبراهيم
نينوس ليس بيل ولا ابن بيل

من الصعب جدًّا، كما يعرف الجميع، أن يؤلِّف المرء كتابًا يتحدّث عن الأزمنة الأولىٰ وتسلسل الأعراق الأولىٰ التي تفرّعت عن أبناء نوح الثلاثة، دون أن يصطدم بمفهوم الكتاب المقدّس، الذي يُفضّل جماعةً يعتبرها شعبَ الله المختار، ويهمل باقي الناس وكأنهم لا وجود لهم ولا يستحقّون أن يُذكَروا. ومع ذلك نرىٰ أنه لا بدّ لنا من مجاراة الكتاب المقدّس، ومطابقته مع ما نعتقد أنه صادقٌ وصحيح في التواريخ القديمة، بعدما نتأكّد من صدقه المطلق.

أما أنت، أيها القارئ اللبيب، فتدبّر أمرك مع ما نحن فيه في التخبُّط في أصناف الأعراق الثلاثة في عهود إبراهيم ونينوس وآرام، وتعجَّب!

جاء في الكتاب المقدّس، أنّ سام كان في المائة من عمره في زمن الطوفان، ووَلَدَ آبنَهُ أرفكشاد بعد سنتين منه.

سلالة سام :

وَلَدَ سام أرفكشاد وهو في المائة من العمر.

ولد أرفكشاد شالح وهو في المائة والخامسة والثلاثين.

ولد شالح عابر وهو في المائة والثلاثين.

ولد عابر فالج وهو في المائة والرابعة والثلاثين.
ولد فالج رعو وهو في المائة والثلاثين.
ولد رعو سروج وهو في المائة والثانية والثلاثين.
ولد سروج ناحور وهو في المائة والثلاثين.
ولد ناحور تارح وهو في المائة والتاسعة والعشرين.
ولد تارح آبرام ـ وهو إبراهيم ـ في السبعين من العمر.

سلالة حام :

وَلَدَ حام كوش.
ولد كوش مصرابيم.
ولد مصرابيم نمرود.
ولد نمرود يوباب.
ولد يوباب آنيبس.
ولد آنيبس آربيل.
ولد آربيل كاحال.
ولد كاحال آربيل الثاني.
ولد آربيل الثاني نينوس.
ولد نينوس نينواس.

سلالة يافث :

وَلَدَ يافث جومر.
ولد جومر تيراس.
ولد تيراس توجرمة.

ولد توجرمة هايك.
ولد هايك آرامانياك.
ولد آرامانياك آرامابيس.
ولد آرامابيس آماسيا.
ولد آماسيا كيغام.
ولد كيغام حرما.
ولد حرما آرام.
ولد آرام آرا الجميل

تدلّ هٰذه اللوائح علىٰ أنّ شالح هو الرابع لنوح والثالث لسام، كما أنّ تيراس هو الرابع لنوح والثالث ليافث. علىٰ أننا لم نجد خلال بحثنا أيّ أثرٍ أو ديوان يُثبت تسلسل هٰذه الفروع، لذلك دونّاها كما هي علىٰ علّاتها. كذلك لم نجد أيّ أثر لمصرايم الرابع لنوح والثالث لسام، بين الترجمات الموجودة تحت أيدينا في أيّ زمنٍ من الأزمان إلّا عند آشوريٍّ لبيبٍ واسع الإطلاع، اَقتنعنا بصدق قوله لأنه واسع الإطّلاع والقراءة. وعرفنا منه أنّ اَسم مصرايم قد اَشتُقّ من اَسم "مصر"، فإذن هو مصريّ، وأنّ نمرود الذي يحمل اَسم بيل أيضًا كان حبشيًّا، ولمّا كانت الحبشة جارةً لمصر لذا اَقتنعنا بوجهة النظر التي تقول بأنّ مصرايم هو الرابع لنوح والثالث لحام.

إننا لم نبيّن أعمار بني حام كما فعلنا ببني سام، لأنّ أعمارهم لم تُدوَّن، أو أنّ تاريخها لم يصل إلينا، مثلها كمثل أبناء يافث الذين لم يصلنا من أخبارهم أيُّ شيءٍ علىٰ الإطلاق. لذا ما علينا إلّا أن نقبل بلائحة الأنسال المذكورة آنفًا مثلما هي، لأنها تبدو مقنعةً ما دامت بفروعها الثلاثة تعطي أحد عشر جيلًا لكلٍّ منها تنتهي عند إبراهيم ونينوس وآرام، أمّا آرا فعُدَّ الثاني عشر بعد نينوس، وقد مات شابًّا. وهٰذا صحيح لا شكّ فيه، لأنه ورد، في حكايةٍ علىٰ

لسانِ مَن لا نشكّ في صدق أخباره الكثيرة، إنه آبوتينوس الذي يقول: «*إنّ نينوس هو آبن آربيل بن كاحال بن آربيل آبن آناب بن يوباب بن بيل*». كذلك فإنّ آرا الجميل، الذي قتلته سميراميس شابًّا، هو «*آرا الجميل بن آرام بن حرمة بن كيغام بن آماسيا بن آرامايس بن آرامانياك بن هايك الذي وضع نهايةً لحياة بيل عدوّه اللدود*». ولقد جاءت هٰذه المعلومات في مدوّنات آبوتينوس التاريخية الأولىٰ، التي خصّصها للأقوام الصغيرة علىٰ آختلاف أنواعها، والتي أغفل بعضهم ذكرها.

ولقد شهد علىٰ ذلك غيفاليون*، الذي قال في أحد فصول كتابه: «*بدأنا في مستهلّ عملنا بكتابةٍ مفصّلة عن تسلسل الأقوام، معتمدين علىٰ الدواوين الملكية، لكننا تلقّينا أوامر من الملوك بآستبعاد الأمم المغمورة والشرّيرة، وليقتصر عملنا علىٰ ذكر الأبطال والحكماء والنبلاء المشهورين، لكي لا نهدر وقتنا سدى*» إلخ...

إلّا أنّ هٰذا الأمر قد بدا غريبًا حينما جاء علىٰ ذكر نينوس وبيل، لأنّ نينوس طيّب وبيل شرير، وكان المفروض أن لا يُذكَر بيل، لكنّ الأمر آختلط وآدّعىٰ الأقدمون أنّ نينوس هو آبن بيل، بل إنه بيل بعينه، علىٰ الرغم من أنّ ذلك لم يَثْبُت، لا في علم الأقوام ولا في حساب السنين. ولما كان واحدٌ من الآثنين مشهورًا بسمعته الطيّبة، لذا فقد غطىٰ علىٰ الآخر لأنه من النبلاء، وآختلط الأمر وضاع الفرق بين الأبعد والأقرب.

إنّ الأدب اليونانيّ حافلٌ بمثل هٰذه الآختلاطات، لأنّ الكلدان، الذين نقلوا من أعمالهم إلىٰ اليونانية، إنما فعلوا ذلك عن طريق الخطأ وعدم المعرفة،

* غيفاليوس، ذكره يغيسيبيوس كيساراتسي وأخذ عنه، ومنه أخذ خوريناتسي.

أو أنه فُرِض عليهم بأمرٍ من ملوكهم، مثل آريوس وغيره، لغرضٍ في نفوسهم. وعلىٰ الرغم من ذلك اٌخترنا المصادر اليونانية لعملنا.

٦

عن علماء العاديات
الذين اتفقوا مع كتاب النبي موسى على بعض الأمور
وخالفوه في بعضها
وعن اقوال الفيلسوف أوليمبيودوروس القديمة

بعد التأكّد من الصحيح في المدوّنات العديدة، بيّنّا، قدر المستطاع، سُلالاتِ أبناء نوح الثلاثة حتى إبراهيم ونينوس وآرام. وأعتقد أنه لن يخالفني أيّ واحدٍ من الناس المطّلعين، فيما كتبت، إلّا إذا كان يرغب في تشويه التواريخ الممحّصة ليُحوّلها إلىٰ أساطير، يفرح بها قصيرو النظر.

أما أنت، يا من تَحُضُّ علىٰ البحث وتشجّع العلم، والدافعُ إلىٰ القيام بهذا العمل، فإنني أسعىٰ لنيل رضاك بتذكيرك، بكلماتٍ موجزة، بالكيفية التي كتب بها الرواة القدامىٰ تاريخ الأشخاص الذين ذكرناهم آنفًا: هل كتبوه معتمدين علىٰ الدواوين الملكية، أو أنهم كتبوه اٌعتباطًا من دون تدقيقٍ، محوِّرين في الأسماء والأماكن والأزمان؟ وهل يعتبر ما كتبوه صحيحًا، أو أنهم يكذبون؟ هٰذا ما لا أستطيع تأكيده، الآن علىٰ الأقل، لأنني لا أملك الدليل القاطع علىٰ ما يتعلّق ببدء الخليقة: لأنهم لم يَذْكُروا المخلوق الأول علىٰ أنه أول البشر، بل ذَكَروه بعدما لقّبوه بالملك. فهل أَقْبَل بأنهم لا يكذبون، وهم يحاولون كتابة تاريخ حياةٍ بعد خمسة وثلاثين ألف عام من الزمان، ويحاولون جعل التاريخ يتلاءم مع أقدم الأمم والطوفان ومع كتاب موسىٰ النبي؟ إنهم صادقون في ذكر ثلاثة

رجال قبل الطوفان، وصادقون في رحلة الفُلْك إلىٰ أرمينية، أمّا في ما عدا ذلك فهم كاذبون مضلّلون. لكنني مرتاحٌ إلىٰ آعتمادي في أقوالي علىٰ كتاب بيبوس سيببيللا*، الذي أعتبره الأوفىٰ والأصدق من كلّ ما عداه لأنه يقول: «*قبل بناء الفُلك، وتعدُّد الألسنة بين الناس، وإبحار نوح إلىٰ أرمينية، كان حكام الدنيا: زَرَوَان و ديدان و هابيدوستي*» الذين أعتقد أنهم هم سام و حام و يافث أنفسهم.

ويقول أيضًا: «*عندما آقتسم هؤلاء السلطة علىٰ الدنيا، بدأ زَرَوَان يتوسّع في الدنيا علىٰ حساب الآخرين بالقوة*». ثمّ إنّ هناك كاهنًا عند ملك الباكدريين، أي الميديانيين الذين يعبدون النار، قد أطلق علىٰ زروان لقب "البدء" و"أبي الخَلْق"، ونسج حوله كثيرًا من الأساطير، لا نرىٰ ضرورةً لذكرها.

يقول سيببيللا:

لذا، ولمّا تجبّر زَرَوَان ثار عليه ديدان وهابيدوستي، لأنه أراد أن ينصّب أبناءه ملوكًا علىٰ كلّ الدنيا، فآشتبكوا في حربٍ ضارية آحتلّ في أثنائها ديدان جزءًا من مُلك زروان. عندئذ تدخّلت أختهم آسدغيك، وأقنعتهم بوقف القتال. وافق ديدان وهابيدوستي علىٰ وقف القتال، ورضيا بتنصيب زروان ملكًا عليهم بذبيحةٍ وشرطٍ يقضي بأن يُقتل كلّ ذكرٍ من ذرية زروان لضمان عدم آنتقال عرش الملك إليهم بالوراثة من جيلٍ إلىٰ جيل، وعيّنوا لهذه الغاية مراقبين أشدّاء يتتبّعون ولادات نساء أسرة زروان. وتمّ بالفعل قتل

* بيبوس سيببيللا، سيببيللا، لقب يطلق علىٰ عذارىٰ عِشْنَ في اليونان وروما نُذِرنَ لابولون، فآعتزلن الناسَ في كهوفٍ بعيدة، يتأمّلن ويكتبن. أشهرهنّ آريتيريا سيببيللا، لذلك نُسب إليها أول كتاب آستنتاج باليونانية آشتراه ملك روما خوفًا عليه من الحريق، ومع ذلك احترق، وجاء فيما بعد رجالٌ جمعوا بقاياه، وأعادوا تأليف ما ضاع منه قبل المسيحية وبعدها.

اثنين من الذكور. لم ترض آسدغيك بأن تُراق دماء هؤلاء الأطفال بلا ذنب اقترفوه، وعمدت إلىٰ وسيلةٍ لا يُقتل فيها الأطفال ولا يُنقَضُ فيها العهد، واقترحت عليهم بأن يؤخذ الذكور من أسرة زروان ليعيشوا في الجنوب قرب جبل يسمّونه توتسنكيتس، تحوّل اسمه فيما بعد إلىٰ أوليمبيوس، ووافق الجميع، وانتهت المذبحة.

قد يَعتبر بعضهم هٰذه الأحداث صحيحةً، ولا يعتبرها بعضهم الآخر كذلك ويرونها أسطورة. ولكنني موقنٌ بأنّ الشطر الأكبر منها صحيح، لأنّ الكتاب ـ الذي ألّفه يبيبان*، أسقفُ قسطنطية في قبرص، تحت عنوان "كتاب الملحدين" ـ يدحض ادّعاء الإسرائيليين بأنّ إلٰهم أمر بأن يُبيدوا سبعة أقوام من غير الإسرائيليين والاستيلاء علىٰ مواطنهم. لكنّ عدالة الله الحقّة قد أبادت سبعة أقوام من الإسرائيليين أنفسهم، بعدما توسّعوا في أرض حام، وعاد حام واستولىٰ علىٰ أرضهم وأباد منهم خلقًا كثيرا.

لكنْ علينا هنا أن نذكر، ولو باختصارٍ شديد، الأقوالَ القديمة الموغلة في القدم، التي تحكي عن العلماء اليونان في أعماق الماضي، والتي استقيناها من شخصين يسميان كورك وبانان، ومن الملك دافيد ـ الذي لا يغلب، ملك الأرمن، الذي درس الفلسفة في اليونان ـ في خطابه الذي ألقاه أمام أعضاء مجلس الشيوخ:

أيها الشيوخ المحترمون.

في أحد أيام دراستي في اليونان، وقعتْ لنا طرفةٌ في أثناء حديثٍ كان يدور بين عددٍ من أساطين العلم حول الجغرافيا وعلم

* يبيبان: ابن أسرة يهودية قبرصية، وُلد في فلسطين سنة ٣١٠ م، اعتنق المسيحية، وشغل كرسيّ أسقفية قبرص في مدينة قسطنطية. كان معارضًا لغوريكينيس ولكلّ فكرٍ حرّ. كتابه الرئيس يحمل عنوان: "صيدلية البيت، النباتات". مات سنة ٤٠٤، وتُرجم كتابه إلىٰ الأرمنية.

الأقوام، تضاربت فيها وجهات النظر. فأنبرىٰ أوليمبيودوروس وكان الأنبغ فيهم، وقال: وصلتنا أقوالٌ شعبية غير مدوّنة، ولكنّ الناس يتداولون فيها ويتحدثون عن وجود كتابٍ يحكي حكاية نوح وأبنائه، يقول: إنّ نوحًا، عندما سار به الفُلْك نحو بلاد أرمينية، ووصل إلىٰ البرّ، نزل أبنُه سام من الفُلك، فأبَرَّ، وسار بأتّجاه الشمال الغربيّ ليستكشف الأرض. وجد عند سفح جبلٍ عظيم سهلًا فسيحًا، فيه نهرٌ يجري نحو بلاد آشور. فتوقّف عندَ النهر، وأقام قرب ضفّته شهرين قمريَّين، فوضع للجبل أسم "سيم"، وعاد من حيث أتىٰ إلىٰ الجنوب الشرقي. أمّا ديدان فقد ترك أباه وسار مع النهر مع ثلاثين من أولاده وخمسَ عشرة بنتًا مع أزواجهنّ، وأستقرّ في المكان الذي كان سام قد سمّاه دارافن، وأستبدله بأسم تسرونك، وهي كلمةٌ أرمنية تعني التشرّد، ذلك لأنّ أبناءه قد أنفصلوا عنه هناك وتفرّقوا في الأرض. ذكرنا هٰذا علىٰ السَّمَع، لأننا لم نعثر علىٰ أثر للكتاب المذكور. يقولون، إنّ ساما قد عاش أيامًا قليلة في النواحي الممتدّة علىٰ طول حدود الباكدريين، وعُرف هناك بأسم زروان، ثمّ ترك فيها أحد أبنائه ورحل، بعدما أطلق علىٰ المكان أسم زراوانت، وما زال الأسم هٰذا موجودًا حتىٰ اليوم. أُقرّ بأنني أخذت هٰذه الروايات من أفواه شيوخ قوم آرام، حين كانوا يروونها في ليالي السَّمَر في فترة أحتفالات المواسم الدينية.

نحن لا يهمّنا مقدارُ ما في هٰذه الروايات من صدقٍ أو كذب، وإنما يهمّني أن أُطلعك أنت عليها لتكون علىٰ بيّنةٍ من خفايا الأمور، التي كتبتُها، أو سأكتبها في مكانٍ آخر، بعد التقصيّ عنها بالسَّمع، أو عن طريق الكتب التي تقع تحت يدي، لعلّي أنال رضاك فأُرضي ضميري.

* أوليمبيودوروس: مؤرّخ يونانيّ من مدينة طيبة بمصر، عاش في القرن الخامس الميلادي، وكتب تاريخ الأحداث التي جرت بين العامين ٤٠٧ ـ ٤٢٥، ولقد تطابق زمنه وتخصّصه مع زمن دافيد وتخصّصه.

٧

شرح موجز عن حقيقة بيل
الذي يُعرف باسم النمرود في الكتاب المقدس

كان بيل معاصرًا لجدّنا هايك، وكانوا يحكون عنه حكاياتٍ شتىٰ. وأعتقد أنّ كرونوس* وبيل ونمرود هي أسماءُ ثلاثة لشخصٍ واحد، علىٰ نحو ما كان يفعله المصريون فيطلقون عدّة أسماء علىٰ شخصٍ واحد، وعلىٰ غرار ما فعله موسىٰ. وهٰكذا نرىٰ أن هيبيدوس وآريكاك وكرونوس هم حام وكوش والنمرود، ضاربين صفحًا عن مصراييم، لأنهم يعتبرون هيبيدوس** أول مخلوقٍ اكتشف النار، فجاء بروميديوس*** وسرق هٰذه النار، ووزّعها علىٰ العالم كلّه. لا تهمّنا هٰذه التناقضات في السرد، لأنها لا تدخل ضمن نطاق موضوعنا. علىٰ أنّ تسلسل أقوام ملوك مصر، وحساب السنين وملوك أسرة الرعاة حتى هيبيسدوس، مطابقٌ لحساب العبرانيين، من أيّام يوسف رجوعًا إلىٰ سام وحام ويافث.

نرىٰ أن نكتفي بما أوردناه حول هٰذا الموضوع، لأننا إذا أردنا أن نتحدّث عن كلّ الأمور، بدءًا من بناء الفُلك حتىٰ أزمنتنا الحاضرة، لما وصلنا أبدًا إلىٰ

* كرونوس: إلٰه الزمان عند اليونان، وهو أبو زيوس.

** هيبيدوس: إلٰه النار عند اليونان، وابن زيوس.

*** بروميديوس، ابن فريميدون و هيرا من آلهة اليونان، سرق نارًا من لهب زيوس بواسطة عيدان القصب ووهبها إلىٰ العالم، فغضب عليه زيوس وقيّده بالسلاسل في جبال القفقاس. في الليل يأتيه نَسْرٌ ينتزع قلبه وكبده، ويعيدهما إليه في النهار. وبواسطة هرقل قُتل النسر وتحرّر بروميديوس. وهو أول من عرف الفنون.

الموضوع الذي اقترحته علينا، وإنْ وصلنا، فسيستغرق ذلك منّا وقتًا طويلًا نحن في غنًى عنه، وقد نتفرّغ له في المستقبل، وأنت تعلم أنّ عمر المخلوقات قصيرٌ، علمه في الغيب.

لذا سأبدأ بتعريفك على تاريخنا: كيف بدأ، وفي أي مكان.

٨

مَن ، ومِن اين حصل على هذه المعلومات ؟

يُحكى أنّ آرشاك الكبير، ملكَ الفرس والبرتيفيين، وهو منهم، قد حارب المقدونيين وانتصر عليهم، واستولى على كلّ بلاد الشرق وبلاد آشور، وجعل نفسه ملكًا عليهم هم أيضًا، بعدما قتل الملكَ آنديوكوس وأخضع كلّ الدنيا لسيطرته، فعيّن أخاه فاغارشاك ملكًا على بلادنا أرمينية. ولقد فعل ذلك ليضمن دوام سلطته على مملكةٍ لا تُقهَر.

تولّى فاغارشاك المُلك، واتّخذ ميدزبين عاصمةً له، ثمّ ثبّتَ حدود مملكته من جهةٍ غرب آشور وفلسطين وآسيا وكلّ ما بين البحرين الأبيض والأسود وتساليا، ومن بحر بوندوس إلى حيث ينتهي القفقاس عند البحر الغربي*، وأزربايجان. ويقال أيضًا: مهما يشطح بك الفكر، فإنّ حدودَ الأبطال تظلّ منوطةً بسلاحهم، كلما كان أقطع كانت سيادتهم أكبر.

بعدما مكّن فاغارشاك حكمه وثبّتَ ملكه، أراد أن يعرف أجناس وقوميات الناس الذين تعاقبوا على إدارة بلاد أرمينية قبله، ليعرف ما إذا كان

* البحر الغربي: يقصد به بحر الخزر.

قد ٱحتلّ مكان الشجعان أو مكان الجبناء. وفي سبيل ذلك ٱستدعىٰ رجلًا آشوريًّا حكيمًا ٱسمه "مار عباس كادينا"*، يعرف اللغتين الكلدانية واليونانية، فزوّده برسالةٍ، وأرسله إلىٰ أخيه آرشاك، ملك فارس الكبير، مع هدايا ثمينة، طالبًا منه البحث في ديوانه وتزويده بردٍّ علىٰ رسالته التالية:

٩

رسالة فاغارشاك ملك الأرمن
إلى آرشاك الكبير ملك الفرس

إلىٰ آرشاك ملك البرّ والبحر، شبيهِ الآلهة في الخُلُق والشكل، مَن تجاوز حظُّه ونجاحه الخيالَ علىٰ ٱتّساعه كٱتّساع السماء فوق الأرض، من فاغارشاك، شقيقك الأصغر ورفيقك في السلاح، الذي عيّنته ملكًا علىٰ الأرمن، طال عمرك، وجعلك حليف الٱنتصارات المتتالية.

عندما وَلّيتني علىٰ أرمينية أوصيتني وصيةً تحثّني بها علىٰ الٱهتمام بأخبار الشجاعة وكلّ أنواع العلوم، فوضعتُ وصيّتك نصب عيني ولم أنسَها، بل كرّست كل ٱهتمامي ورعايتي لها بقدر ما يصل إليه مدىٰ تفكيري وقدرتي بما هو متوفّر لديّ. والآن، وبعدما نظّمت مملكتي برعايتك، أردتُ مصمّمًا أن أعرف شيئًا عمّن سبقني إلىٰ حكم بلاد الأرمن: من هم؟ ومن أين جاؤوا؟ لأنني لم أجد هنا آثار معابد أو هياكل من مثل ما عندنا، وأنني لم

* مار عباس كادينا: أرمني مسيحي، تستّر تحت ٱسم آشوري وثني. جمع معلوماته من الأرمن أنفسهم، من روايات حروبهم مع الجبابرة التي قُتل هايك خلالها بيل إله آشور، وقُتلت سميراميس بعدها آرا ملك الأرمن.

أتوصّل إلىٰ معرفة شيءٍ من سكان البلاد كبيرًا أو صغيرًا، ولم أجد أيّة مدوّنةٍ تُرشدني إليهم، ولم أجد غير الفوضىٰ والخلط.

لهٰذا أتوسّل إلىٰ جلالتك أن تأمر بوضع سجلّات ديوانك الملكيّ تحت تصرّف الرجل الذي يحمل إليك رسالتي، لكي يتسنّىٰ لأخيك وآبنك أن يكتشف شيئًا ممّا خفي عليّ بأسرع وقت. وأنا واثق من أنّ دأبنا علىٰ تنفيذ وصيّتك سيسرّك أنت أيضًا، عشتَ مقيمًا مع الآلهة أيها الملك العظيم.

ما كاد آرشاك الكبير يتلقّىٰ الرسالة من مار عباس كادينا ويعرف فحواها، حتىٰ أمر بإحضار السجلّ الملكيّ الذي كان في نينوىٰ، وأمر بوضعه تحت تصرّف مار عباس مسرورًا من حماسة أخيه وراضيًا عن رغبته تلك، وهو الذي آئتمنه علىٰ نصف مملكته.

بعدما بحث مار عباس في كلّ السجلّات، وجد سجلًّا مكتوبًا باللغة اليونانية يحمل العنوان التالي:

ديوان البداية :

تُرجم هٰذا الكتاب، بأمرٍ من الإسكندر المقدوني، من اللغة الكلدانية إلىٰ اللغة اليونانية، ويحتوي علىٰ تاريخ أصل الأقدمين والأولين.

في البدء ـ كما يقول ـ كان زَرَوَان وديدان وهابيدوستي، ومن هؤلاء تسلسلت الأقوام المختلفة، وصارت قبائلَ وشعوبًا، تفرّقوا في الأرض، وآستقرّ كلّ شعبٍ في مكانٍ آختاره بعد سنين طويلةٍ من الترحال.

آختار مار عبّاس كادينا من هٰذا الديوان ما يتعلّق بأمتنا فقط، ونقل تاريخه المكتوب باللغتين اليونانية والآشورية، وعاد به إلىٰ ميدزبين، إلىٰ الملك فاغارشاك. فتسلّم فاغارشاك ـ الملك العظيم الجبّار البطل الذكيّ العبقريّ ـ

ذلك الكتابَ بٱهتمامٍ زائد، وٱعتبره قطعةً نادرة من بين كنوزه، وأمر بحفظه بعنايةٍ فائقة، كما أمر بنقش مقتطفاتٍ منه علىٰ نُصْبٍ تذكاريٍّ تخليدًا لذكراه. جئنا نرويه لك لنُشبع فضولك إلىٰ ما توصّلنا إلىٰ معرفته عن أسلافنا الأصليين، من البداية حتىٰ سردانابال الكلداني، بل الأقرب منه أيضا.

يبدأ التاريخ هٰكذا فيقول:

كان الآلهة الأُوَل مقدّسين مباركين، ينضحون الخير علىٰ الدنيا، وكانوا بداية العالم، ثم ٱنبثق منهم البشر، وجاء جيل العمالقة الأقوياء المردة طِوال القامة، الذين أرادوا ٱحتكار كلّ خيرٍ لأنفسهم من دون باقي المخلوقات، وبنَوْا في سبيل ذلك عنابر حصينةً يختزنون فيها محتكراتهم. فغضبت الآلهة عليهم، ونفخوا نفخةً أطاحت بكلّ ما بنوا، ووزّعوا ما فيها علىٰ الناس، ثمّ جعلوا لكلّ أمةٍ لغةً لا تفهمها أمةٌ أخرىٰ، بحيث تسبّبت في إنزال الحيرة والٱضطراب بين الناس. مِن هؤلاء الأوائل هايك المنسوب إلىٰ يافث، وكان مشهورًا بشجاعته وحسن ٱستعماله لقوسه العظيم ومهارته في رمي الرمح.

علىٰ أننا لن نتناول في حديثنا الآن، هٰذه الحقبة من الزمان، لأننا لن نكتب تاريخ الخلق كاملًا، فهدفنا هو الكشف عن بداية وأصل آبائنا الأولين، ممّا يحتويه الديوان نفسه الذي يأتي علىٰ ذكر هابيدوستي وميرود وسيرات وتاكلات، وهم الذين نعرفهم بأسماء يافث وجومر وتيراس وتوجرمة (أو توركوم). ثمّ يستمرّ الديوان في ذكر خَلفِهم بالترتيب، إلىٰ أن يصل إلىٰ هايك وآرامانياك وغيرهم الذين جاء ذكرهم آنفًا.

١٠

حول ثورة هايك

يقول الديوان:

إنّ هايك كان رجلًا متناسق البنية، ممشوق القوام، ذا شعرٍ قاس أجعد، وعينين برّاقتين، وكتفين عريضين، برز من بين العمالقة بطلًا مرموقًا يتصدّىٰ لكلّ مَن يحاول الاعتداء علىٰ العمالقة وآلهتهم ويحاول السيطرة عليهم. وصادف أن حاول بيل بجبروته أن يُخضع العماليق لأمره متحدّيًا هايك، في وقت كان فيه الجنس البشريّ قد بدأ بالتكاثر والانتشار علىٰ وجه الأرض التي لم تخلُ مع اتساعها من أقوام كالعماليق وغيرهم، يدفعهم الطمع إلىٰ مقاتلة الآخرين والاستيلاءَ علىٰ أماكنهم. وكان بيل من بين هؤلاء الطامعين، تمكّن من بسط نفوذه علىٰ كلّ البلاد. ولمّا وصل به الأمر إلىٰ مهاجمة هايك، انتظر هايك حتىٰ وَلَد ابنَه في بابل، ثمّ رحل إلىٰ الشمال نحو مناطق آراراد ، مع أبنائه وأبناء أبنائه وكلّ عشيرته التي يبلغ عددها ثلاثمائة نفرٍ كلّهم أقوياء أشدّاء. فلمّا وصل إلىٰ سهل عند سفح الجبل وجد أناسًا قد سبقوه إلىٰ المكان، فأخضعهم لسلطته، وأقام في أماكنهم، وبنىٰ البيوت، وأنشأ المزارع، وجعل لابنه آرامانياك حقّ وراثته من بعده.*

ذلك ما تؤكّده الرواياتُ المحكيّة غير المكتوبة.

* آراراد: ليست آيراراد الواقعة في وسط أرمينية، بل هي بلادٌ تقع في غربها إلىٰ الجنوب من بحيرة وان.

يقول مار عباس:

بعدما وطّد هايك سلطته علىٰ الأرض، وأسكن فيها من عشيرته ما شاء، رحل مع نفرٍ من عشيرته وأتباعه نحو الشمال الغربيّ، وجاء فآستقرّ في بقعةٍ مرتفعة أطلق عليها آسمه هايك. وهٰذا يعني أنّ القوم الذين سكنوا هنا هم من نسل توركوم. وكما فعل في آراراد، بنىٰ هايك، علىٰ هٰذا المرتفع من الأرض، قريةً سمّاها بآسمه "هايكاشين". يذكر التاريخ أنّ السهل، الذي يلفّ حول الجبل، كان مأهولاً بقوم آخرين آنتشروا فيه من قبل، أخضعهم هايك لسلطته فخضعوا له مرغمين.

وهو ما تؤكّده الرواياتُ المحكية غير المكتوبة.

١١

حول التحازب وموت بيل

يقول مار عباس:

ويستمرّ الكلام عن الإلٰه بيل، فيقول بأنه بسط سلطته علىٰ الجميع، ثمّ أوفد أحد أبنائه ــ مع بعض المخلصين له من الرجال ــ إلىٰ الشمال، إلىٰ حيث هايك، مع خطابٍ يدعوه فيه إلىٰ الرّضوخ له لكي يتركه في سلام، وجاء في الخطاب:*

"لقد أسكنتَ نفسك وأهلك في مناطقَ شديدةِ البرودة، فإذا أردت أن تدفأ فعليك أن تخفّف من طبعك القاسي، وأَطِعْني تَعِشْ بسلام أينما شئت من الأرض التي تختارها".

* بيل: هو الآسم الجاهلي، الذي يقابله آسم نمرود في الكتاب المقدّس. أمّا هايك فلم يرد آسمه في الكتاب المقدّس.

لكنّ هايك رفض العرض، وردّ الوفد مع جوابٍ قاسٍ وعادوا إلىٰ بابل.

عندئذ جمع الإله بيل جيشًا عظيمًا، وسار علىٰ رأس جنده المشاة إلىٰ الشمال بٱتّجاه جبال آراراد. ولمّا ٱقترب من مساكن كاتموس، أرسل هٰذا رجالاً يحذّرون هايك، ثمّ شدّ رحاله وهرب مع عشيرته إلىٰ هايك، ليقول:

"ٱعلم، يا أعظم العظماء، أنّ بيل قادم إليك برجالٍ أشداء وعمالقةٍ تصل قاماتهم إلىٰ السماء، فلمّا ٱقترب من بيوتي هربت إليك مضطربًا قلقًا، فتدبّر أمرك وفكّر فيما تفعل".

بينما كان بيل ينحدر مع جحفلٍ من رجاله، من أعلىٰ الجبال إلىٰ السهل نحو منازل هايك كالسيل الهادر، واثقًا من عزم رجاله الأشدّاء ووفائهم، كان هايك، العملاق البطل الذكّي ذو الشعر الأجعد والعينين البرّاقتين، يجمع المقاتلين من أهله وعشيرته ومن القوم الذين يستظلّون بظلّه، ولما ٱكتمل عددهم القليل بالنسبة لرجال بيل، جمعهم عند ضفّة بحيرةٍ* تتميّز بأسماكها الصغيرة ومائها المالح، وقال لهم:

"لقد ٱجتمعنا هنا لمواجهة بيل، وعلينا لكي نتغلب عليه أن نفاجئه ليلًا حين يرتاح جنده، فإمّا أن ننتصر عليه أو نموت ولا نقع في الأسر لنصير عبيدًا له. فٱستعِدّوا إذن لنضرب ضربتنا، ولتكن شديدةً، لنشتّت شمله ونسجّل النصر".

وساروا إلىٰ الأمام يقطعون المسافات، حتى وصلوا إلىٰ وادٍ، يقع بين جبلين عاليين، عسكر فيه بيل. فأطلّوا عليهم من علٍ، ووضعوا الخطّة، وهجموا علىٰ جيش بيل كالموج المتلاطم، وضربوهم ضربةً شتّتت شملهم وأنزلت فيهم الذعر والاضطراب.

* إنها بحيرة وان، و طارخ ٱسمٌ يُطلق علىٰ سمكها.

أما بيل فكان بعيدًا عنهم، مع المقرّبين إليه من الرجال، عند الضفّة اليسرىٰ من البحيرة، غافلًا عمّا يجري، هادئًا ينتظر الصباح. ولمّا عرف هايك مكانه مع رجاله الأشدّاء المدجّجين بالسلاح، بدأ يقترب منه مع رجاله بحذرٍ، إلىٰ أن باغتهم. بُهِتَ بيل، الذي كان يضع خوذةً حديدية علىٰ رأسه تتدلّىٰ من نهاياتها أوسمةٌ مختلفة، ويرتدي، لحماية صدره وظهره، درعًا مصنوعًا من النحاس والخشب، ولفّ ساقيه بدرعٍ من الزَّرَد، وشدّ علىٰ وسطه حزامًا علّق علىٰ جنبه سيفًا ذا فقار، وأمسك بيده اليمنىٰ رمحًا ضخمًا جدًّا، وباليد اليسرىٰ ترسًا قويًّا، وقد أحاط به جنده من اليمين واليسار.

في هٰذه الأثناء كان هايك قد صفّ رجاله علىٰ شكل مثلّثٍ، يقف علىٰ أحد أضلاعه ٱبنه آرامانياك وٱثنان من إخوته علىٰ اليمين، ووضع كاتموس وٱثنين آخرين من أبنائه ممّن يُجيدون القتال بالسيف والرمح، وجعل باقي الرجال وراءه علىٰ ضلع المثلّث الثالث، وتقدّم بهدوء إلىٰ الأمام. ولمّا ٱقترب رجال هٰذا من رجال ذاك، صرخوا صراخًا عاليًا وأحدثوا ضجّةً عظيمة، هَلِعَت لها قلوب رجال بيل الذين هزّتهم المفاجأة. ودار القتال سجالًا لا تميل كفّةٌ علىٰ كفّة.

عندما أدرك ٱبن الآلهة مدىٰ الخطر المُحدق به، أمر رجاله بالٱنسحاب إلىٰ أعلىٰ الربوة التي ٱستعملها حصنًا له، ريثما يتمكّن من جمع شتات جيشه المضطرب ليخوض المعركة الثانية. لكنّ هايك، الرامي الماهر، أدرك غرضه، ولم يُمهله، بل ٱندفع إلىٰ الأمام حتى ٱقترب منه، وشدّ القوس الكبير المتين وثبّت عليه نبلةً ثلاثيّة الرؤوس وأطلقها، فٱنسابت تئزّ أزيزًا مرعبًا، إلىٰ أن ٱخترقت صدره وٱنغرزت في الأرض، ووقع ٱبنُ الآلهة المغرور صريعًا، وضاع يلفظ أنفاسه.

ولمّا رأى أفراد جيشه العظيم ما حلّ بقائدهم، هربوا في كلّ ٱتّجاه يتوقّعون فيه السلامة.

يكفينا هٰذا القدر من الرواية.

بعد ذلك دعا هايك إلىٰ تنظيف مكان المعركة وإصلاحه، وأطلق عليه ٱسمه هايك، رمزًا لآنتصاره. وبقي المكان يعرف بآسم "وادي بني هايك" حتىٰ يومنا هٰذا. أمّا الربوة التي قُتل عليها بيل ورجاله، فسمّاها بآسم المقابر، وهي تعرف الآن بآسم "المقبرة". لكن مار عباس يقول إنّ هايك عالج جثّة بيل بالبخور والأدوية، وأمر بأن تُحمل إلىٰ مقاطعة هارك، لتُدفن في مكانٍ مرتفع تحت أنظار زوجته وأبنائه.

منذ ذلك اليوم وبلادنا تُدعىٰ بآسم "هايك" تخليدًا له ولذكراه.

١٢

حول ذرية هايك وابنائه
وما فعله كلٌ منهم

وردت في ديوان مار عباس حكاياتٌ كثيرة أخرىٰ سنختار منها ما يتعلّق بمجتمعنا وبما يهمّنا منها.

بعد ذلك يقول:

إنّ هايك عاد إلىٰ مساكنه السابقة، ومنح حفيده كاتموس شيئًا كثيرًا من غنائم الحرب، وخصّص له حرسًا من خيرة أتباعه، وأمره بأن يعود إلىٰ بيته حيث مكانُ إقامته. أمّا هو فقد أقام في سهلٍ يدعىٰ "هارك"، وعاش فيه سنين طويلةً مع ولده آرامانياك، الذي وُلِد في بابل كما ذكرنا آنفًا، ومات، بعدما ٱئتمن ٱبنَه آرامانياك علىٰ قومه.

وتنازل هٰذا بدوره عن المكان، الذي كان يسمّىٰ هارك، لأخويه خور و مانافاز، مع كلّ ما فيه من أنصبة لـ"باز" بن مانافاز، الذي ورث هارك بعد

آبائه. بينما ورث ٱبنه باز ساحل الشمال الغربيّ من البحر المالح، وسمّىٰ تلك المنطقة والبحر بٱسمه*، وبذلك قيل إنّ أصل المنافازيين هم أفراد هٰذه العشيرة ومنهم البازيون القدماء. ويُعتبر الفورتونيّون فرعًا منهم، ٱقتتلوا فأباد بعضهم بعضًا بعد القديس درتاد. علىٰ حين تكاثر نسل خور في المناطق الشمالية، التي شيّد فيها منشآتٍ ومبانيَ كثيرة. ومن نسله أسرة خورخوروني، الذين ٱشتهروا بالقوة والشجاعة التي ما تزال قائمةً حتى يومنا هٰذا.

بعدما تنازل آرامانياك لأخويه، أخذ كلٌّ عشيرته وٱرتحل نحو الشمال الشرقيّ، ونزل في سهلٍ عميق محاطٍ بجبال ذات قمم عالية، يجري في جهة الغرب منها نهر هادر. يَهَبُ السهلَ، المنبسطَ بٱتّجاه الشرق والمفتوحَ بطوله علىٰ الشمس وسفوح الجبال، ينابيعَ كثيرةً تتفجّر من أسفلها ثم تجري لتتّحد وتشكّل أنهارًا عظيمة تجري بهدوء نحو الحدود، فتشكِّل فيما بينها مساحاتٍ علىٰ دوّار الجبال، يلتقي فيها الشبّان والصبايا للتعارف والمرح. أما الجبل الجنوبيّ الذي يقارع الشمس بٱرتفاعه، فيبدو مع قمّته البيضاء وكأنه ٱنبثق من الأرض، وٱستقرّ في محيطٍ، يستطيع رجلٌ مُهَرْوِلٌ قويّ أن يقطعه في ثلاثة أيامٍ، حسب قول واحدٍ من جماعتنا. بعد ذلك يبدأ بالٱرتفاع مخروطيًّا شيئًا فشيئًا، وبالتدريج، ليبدو كشيخٍ بين "عِزْوة" فتية. عندما ٱستقرّ آرامانياك في هٰذا المكان، ٱستصلح قسمًا منه وقسمًا من سفح الجبل الذي يقابل الشمال، وأطلق علىٰ المكان ٱسم سهل آراكادز ليتلاءم مع ٱسم الجبل الذي سماه آراكادز أيضا.

لكنّ المؤرّخ يذكر شيئًا شائقًا يدّعي فيه أنّ أناسًا، بأعدادٍ قليلة، ٱنتشروا في الأرض هنا وهناك، قبل وصول أبينا الأصلي هايك إلىٰ تلك البقاع.

* البحر هو بحيرة وان، وكانت تعرف قديمًا بٱسم "بحر باز".

بعد سنواتٍ من إقامة آرامانياك هناك وُلِد ٱبنه آرامايِيس وعاش بعده سنواتٍ عدّة ثمّ مات. بعد ذلك، بنىٰ آرامايِيس لنفسه بيتًا علىٰ رابيةٍ تطلّ علىٰ النهر سمّاه بٱسمه آرمافير، وسمّىٰ النهر بٱسم يراسخ تيمُّنا بٱسم حفيده يراسد، بينما أرسل ٱبنه الأكول كثير الولد شار مع كلّ عشيرته إلىٰ سهلٍ خصب معطاء وراء الجبل الشماليّ آراكادز، حيث تتدفّق مياهٌ غزيرة. وسمّيت المنطقة فيما بعد بٱسم شيراك. من هنا ٱنتشر المثل الشائع بين القرويين: *«أنت تملك معدة شار، لكننا لا نملك عنابر شيراك»*. وعاش آرامايِيس هٰذا سنواتٍ ووُلِد ٱبنُه آماسيا، ومات بعد عدّة سنوات.

أقام آماسيا في آرمافير، وبعد عدّة سنواتٍ وُلد ٱبنه كيغام، وبعد كيغام وُلِد بارسيخ وتسولاك، ثم ٱنتقل إلىٰ جوار النهر قرب الجبل الجنوبيّ، وبنىٰ، عند سفحه وفي رياضه، بيتين بمواصفاتٍ عالية يتّجه أحدهما إلىٰ الشرق حيث الينابيع المتدفّقة، أمّا البيت الثاني فبناه في غرب البيت الأول، وعلىٰ بعد مسيرة نصف يومٍ في أيّام الصيف الطويلة. وعاد بعد ذلك إلىٰ آرمافير، وعاش سنواتٍ قليلةً، ومات بعدما خصّص هذين البيتين لولديه بارسيخ وتسولاك. فسمّىٰ تسولاك منطقته بٱسم تسولاكيرد، بينما سمّىٰ آماسيا الجبل ذاك باسم ماسيس.

وعاش كيغام سنواتٍ في آرمافير ووُلِد هارما (حرمة)، وترك هارما مع أولاده في آرمافير، ورحل إلىٰ ما وراء الجبل الآخر من الشمال الشرقيّ عند ضفّة بحيرة. فأصلح الأرض وعمّرها، وترك عليها سكانًا وأطلق علىٰ الجبل ٱسم كيغ بٱسمه، وعلىٰ المعمورة ٱسم كيغاركون بٱسم البحيرة. في هٰذا المكان وُلِد ٱبنه سيساك، وكان بهيّ الطلعة، عريض المنكبين، ممشوق القوام، أهيف القدّ، حسن البيان، جميلًا، ماهرًا في رمي الرمح والنّبال. في هٰذه المنطقة، ترك كيغام لسيساك معظم ماله، مع عددٍ كبير من أتباعه لخدمته، وجعل ميراثه

من البحر، بٱتّجاه الشرق حتىٰ سهلٍ وصل إليه بارسيخ مخترقًا الجبل مارًّا بأوديةٍ طويلة ضيّقة وعرة. في هٰذا المكان سكن سيساك، وبنىٰ عليه كثيرًا من المباني، وجعل الأرض عمارًا أَطلق عليها ٱسم سونيك تيمُّنا بٱسمه. لكن جاء الفرس فيما بعد، وأطلقوا علىٰ المكان ٱسم سيساكان. وفي هٰذا المكان نُصِّب فاغارشاك أولُ ملكٍ للأرمن من ذريّة بارتيف، وجَعل الوجهاء منهم ومن ذريّته سادةً علىٰ هٰذه الديار لأنهم من عشيرة سيساك. ولقد فعل فاغارشاك ذلك حسبما علمه من تاريخهم. أمّا كيف حصل علىٰ هٰذا التاريخ، فهذا أمر سنبيّنه في حينه.

عاد كيغام مرّةً أخرىٰ إلىٰ السهل الذي ينحدر من الجبل نفسه، وأنشأ في وادٍ حصين مزارع وبيوتًا أطلق عليها ٱسم كيغامي. لكنّ الٱسم تحوّل بعده إلىٰ ٱسم حفيده كارنيك وصار كارني. وٱنتهىٰ الأمر إلىٰ عهد آرداشيس حفيد فاغارشاك، حيث جاء من ذريّته فتى يافعٌ يُدعىٰ فاراج، وكان ماهرًا في صيد الغزلان والأيائل والوعول، قويَّ البنية، لا تخيب رميةُ رمحه. عَيَّن هٰذا الفتىٰ علىٰ رأس كوكبة الصيد الملكية، ومنحه معمورةً علىٰ ضفّة النهر المسمّىٰ بٱسم هرازدان. منه جاءت عشيرة فاراج. بعد ذلك عاش كيغام ـ كما ذكرنا ـ سنين طويلةً، وولد هارما وعاش بعده أعوامًا أخرىٰ، ومات بعدما أوصىٰ ٱبنه بالإقامة في آرمافير.

هٰذا هو هايك جدّ الأمة الأرمنية، الذي كان ٱبنا لتوركوم بن تيراس بن حام بن نوح، وهٰذه الأمة هي من ذرّيته التي سكنت تلك البلاد، وبدؤوا يتكاثرون فيها ويعمّرونها.

عاش هارما أعواما ووَلَدَ آرام، الذي قام ـ كما يقولون ـ بأعمالٍ بطولية في حروبه الطاحنة التي ٱنتصر فيها، ووسّع حدود مملكة الأرمن في كلّ الٱتجاهات، فتسمّينا بٱسمه علىٰ الأرض، وسمّانا اليونان "آرمين"، وسمّانا

الفرس والآشوريون "آرمنيك". فإذا شئت أن تعرف متىٰ وكيف حصلت بطولات هارما وأعماله الكثيرة، فنحن علىٰ آستعدادٍ لروايتها لك خارج هٰذا الكتاب، وإن لم تشأ نضرب عنها صفحًا أو نسردها هنا فورًا وذلك منوط بك*!

١٣

حول حرب هارما مع الشرقيين وانتصاره وموت نوكار ماتيوس

لقد وجدنا العمل الذي كلّفتنا إيّاه ممتعًا أكثر من متعة وليمةٍ يكثر فيها الطعام والشراب، لذا عزمنا علىٰ أن نكتب الأحداث كلّها بشكلٍ مختصر، بما فيها الحروب التي خاضها آرام الهايكي، وكيف أنّ هٰذا الرجلَ، المتحمّس القومي ـ حسبما تقول المدوّنة تلك ـ قد آثر الموت في سبيل وطنه وقومه علىٰ أن يرىٰ الأغراب يدوسون حدود وطنه ويتحكّمون في إخوته بالدم.

آنزعج آرام، قبل سنوات من آستيلائه علىٰ نينوس الآشورية ونينوىٰ، من الأمم المحيطة ببلاده التي كانت تطمع فيها، فجمع عددًا كبيرًا من الرجال الشجعان المحاربين من قومه، بلغوا خمسين ألفًا، من المتدرّبين علىٰ رمي السهام وذوي الحميّة واللهفة للتصدّي لنوكار الماتيّ الذي آجتاح حدود الأرمن علىٰ رأس جيشٍ من الميتانيين، وكان نوكار هٰذا ـ كما تقول المدوّنات التاريخية ـ رجلًا مغرورًا متسلّطًا يحبّ الحرب. فلما أقام علىٰ أرض الأرمن

* طلب التوضيح خارج عن نطاق الكتاب، ويبدو ضربُ الصفح عنه والإحجامُ عن سرده غريبًا، ولكن يقول مار عباس في ديوانه إنه جمع معلوماته من بعض الناس من دون وثائق ثابتة، ويبدو أنّ هٰذا هو السبب في إحجام المؤرّخ خوريناتسي عن رواية القصة.

سنتين بعد ٱجتياحها، ولم ينسحب منها، بل راح يعيث فيها فسادًا، مثلما كان يفعل الكاشيون قديمًا، ثارت حميّة آرام، وٱنقضّ عليه وعلىٰ جنده بغتةً عند الفجر، وقتل مَن قتل من جيشه العظيم وشرّد من شرّد، وأسر نوكار الملقّب بالماتيّ وجاء به إلىٰ آرمافير، وأمر بأن يُقيّد بالسلاسل علىٰ أعلىٰ برج في سورها، ويُغْرَز سفودٌ في جبينه لكي يراه القادمون إلىٰ المدينة ويصير عِبرةً لغيره. بعد ذلك سار بجيشه وٱستولىٰ علىٰ بلاده الممتدّة حتى جبل زاراسب، وبقيت تحت حكمه حتى تملّك نينوس علىٰ آشور ونينوىٰ.

عندما ٱنتصب نينوس ملكًا علىٰ نينوىٰ، قرّر الٱنتقام لسلفه بيل. لكنه لم يحرّك ساكنًا زمنًا طويلًا خوفًا من شجاعة آرام، بٱنتظار الفرصة المناسبة لتنفيذ ٱنتقامه بإبادة كلّ ذريّة هايك العظيم. وهكذا، وخوفًا علىٰ مُلكه من الضياع، ٱحتفظ بسرّه الخبيث في صدره، وترك آرام يتحكّم في بلاده كما يشاء، بل أعطاه جوهرةَ الرجل الثاني في الحكم.

نكتفي بهذا القدر من الحديث في هٰذا الموضوع، لأنّ عملنا لا يسمح لنا بالتوقّف كثيرًا عند بداية تاريخنا.

١٤

حول القتال مع الآشوريين والنصر
وحكاية بايابيس كاغيا وقيصرية
وغيرها من أسماء المشهورين من أوائل الهايكيين وغيرهم

نقتطف مما يحكيه الديوان ما يهمّنا من أعمال آرام الجريئة في الغرب، وقتاله مع الآشوريين، مع بيان أسباب النزاع وأهدافه، على أن نوجز قدر المستطاع في أقوالنا.

بعدما انتهى آرام من محاربة الشرقيين، توجّه بالقوة تلك نحو ديار آشور، حيث يحكم من دنّس تراب بلاده، ويدعى بارشام من ذرية العمالقة. وكان جيشه مكوّنًا من أربعين ألف مقاتلٍ من المحاربين المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، فلما جاء بارشام، مع كلّ هذا العدد من المحاربين، بدأ يعيث في الأرض فسادًا، ويجمع الأتاوات من الناس بالقوة والجور. لذا توجّه إليه آرام وحاربه، وهزمه، وطارده من وسط كورجوك حتى بلاد الآشوريين، وهو يعمل في الهاربين قتلًا، دون أن يتمكّن من بارشام الذي كان يحتمي وراء حملة السلاح من حرسه. وانتهت أسطورة بارشام الذي ألّهه الآشوريون وعبدوه خوفًا من بطشه. وبقي آرام على قسمٍ كبير من بلاد آشور يتقاضى منهم خراجًا سنويًّا لأعوامٍ طويلة.

أما بطولاته في الغرب وما فعله مع الآلهة، فسنحكيه فيما يلي:

بعدما دعم جيشه بأربعين ألفًا آخرين من المقاتلين المشاة وألفين من الفرسان، تحرّك باتّجاه كابادوفكا، وهو المكان الذي يعرف اليوم باسم ''قيصرية''، بعدما أوكل إلى السيساكيين أمر الشرق، وإلى خلفاء كاتموس

أمر الجنوب، اللذين كان قد أخضعهما لسلطته، ولم يبقَ وراءه ما يُقلقه. لذلك آحتلّ بلاد الغرب وبقي فيها زمنًا طويلًا. أثار عليه بايابيس كاغيان من آلهة الغرب، فآنتفض يريد طرده من بلاده، وآستولىٰ علىٰ مساحةٍ كبيرة من الأرض بين بحرَي بوندس والأوقيانوس*. فتصدّىٰ له آرام، وقهره وأرغمه علىٰ الفرار إلىٰ جزيرة في البحر الآسيوي. بعد ذلك عيَّن مَن يُدْعىٰ ماشاك علىٰ حكم البلاد لترسيخ الأمن فيها، تؤازره حاميةٌ قوامها عشرة آلاف مقاتل، وعاد هو إلىٰ بلاد هايك.

لكنه أمر، قبل أن يغادر تلك البلاد، بأن يتعلّم سكانُها لغته الأرمنية ويتكلّموا بها. لهٰذا السبب ظلّ اليونان يسمّون تلك المنطقة، حتى الآن، بآسم ''برودين أرمينية''، وهي كلمةٌ يونانية ترجمتها ''أرمينية الثانية''. وبعد رحيل آرام أمر ماشاك المصلح هٰذا بتسوير البلاد وإعمارها، فسمّاها الأقدمون ''ماجاك'' بآسمه ماشاك، الذي حوّروا آسمه ماشاك علىٰ الرغم من أنه بانيها ومعمّرها، إلّا أنّ الناس الذين جاؤوا من بعده ورأوا آتّساع رقعتها، سمّوها ''قيصرية''. ولم يُقصِّر بحقّ المناطق الخالية، بل أَولاها آهتمامه، فعمّرها وأسكن فيها خلقًا كثيرًا ما دامت تقع ضمن حدوده، لذلك آتّفق الناس علىٰ تسميته بهايك الثاني، خلفًا لهايك الأول، ثمّ هايك الثالث وهايك الرابع، وهٰذه الأسماء العددية أُطلقت علىٰ المناطق التي عمّرها، لهٰذا نرىٰ الأسماء العددية في مناطق أرمينية الغربية، وما بعد ذلك لا أساس له، ولا يعنينا في شيء.

وبالنظر إلىٰ شهرة هٰذا الرجل التي طبّقت الآفاق، أَطلقت الأمم المجاورة آسمه علىٰ كلّ تلك البلاد، وما زالت تحمل ذاك الآسم حتى الآن تخليدًا

* بوندس: هو البحر الأسود. والأوقيانوس هو البحر الأبيض المتوسط، الذي سيأتي آسمه بعد أسطرٍ قليلة بآسم بحر آسيا.

لذكراه ولأعماله البطولية. ونعتبر ما قلناه حول هٰذا الموضوع كافيًا ولا حاجة بنا إلىٰ الإفاضة به.

إنّ عدم ورود هٰذه الأمور في سجلّات الملوك أو في المخطوطات الهيروغليفية، لا يثير الشكّ ولا يبعث الريبة فيها، لأنها حصلت قبل عهد نينوس، حين لم يكن أحد يهتمّ بمثلها من قبل. هٰذا ولأنّ الرواة في الأمم الغابرة ما كانوا يَرْوُون إلّا ما يتعلّق بأحوال ملوكهم، فلا يهتمّون بأخبار الأمم الأخرى، كذلك لم يجد الكتاب مبرّرًا لتدوينها في سجلّاتهم، ما دامت أخبار ملوكهم البطولية هي محور الروايات والأخبار. فإذا ما نُسبت لغيرهم تُعَدّ ٱنتقاصًا من قدرهم وهدرًا لشرفهم وكرامتهم. يدّعي مار عباس كادينا أنّ هٰذه الأحداث لم تدوّن في دواوين الملوك، بل في كتب بعض الرواة المغمورين غير المعروفين، من أمثال الشعراء والمنشدين الجوّالين. ويدّعي أيضًا، كما علمت، أنّ نينوس ـ وقد كان مغرورًا أنانيًّا ـ كان يرغب في تخليد ٱسمه وحده علىٰ أنه خليفة الله في الأرض، لهٰذا أمر بحرق كلّ المدوّنات التي تتحدّث عن أعمال وإنجازات وبطولات غيره من القادة، وجعل التدوين مكرّسًا له وحده في زمانه وما قبله ولا جدوىٰ من التفتيش عن الدافع إلىٰ ذلك.

عاش آرام سنواتٍ ووَلَدَ آرا. وعاش معه سنواتٍ أخرىٰ ثم مات.

١٥

عن آرا
وموته في الحرب بأمر من سميراميس

قبل موت نينوس بسنواتٍ قليلة تولّىٰ آرا شؤون بلاده، وحصل علىٰ بركة نينوس كما لو أنه أبوه، لكنّ زوجة نينوس، المرأة الشهوانية الدنيئة

سميراميس، أحبّت آرا بعدما سمعته عن جماله ورغبت في أن تراه، وبما أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك علنًا، آنتظرت حتىٰ مات نينوس وهرب كريدي، وصارت هي الملكة مطلقةَ اليد في البلاد، فأرسلت وفودًا إلىٰ آرا الجميل تُغريه بالهدايا والهبات، وتدعوه ليأتي إليها في نينوىٰ لينال منها ما يريد، وتَعِدُه بأن تنصّبه ملكًا علىٰ بلادها، إذا ما قبل بالزواج بها، أو إذا شاء فإنها تُشبع شَبَقَها منه ثمّ تُعيده إلىٰ بلاده مكرّمًا محمَّلًا بالهدايا.

كان آرا يرفض طلبها في كلّ مرّة تدعوه إليها، إلىٰ أن غضبت عليه غضبًا شديدًا، وشنّت علىٰ أرمينية حربًا بجيشٍ جرّار لكي تنال منه بغيتها عَنوةً، دون أن تفكّر في حمأة غضبها بقتله، بل أرادت بهذه الحرب أن تتمكّن من أسره وتُرضي غريزتها، لأنّ صيت جماله الذي يفوق الوصف قد أسكرها وزاد في شبقها، لهذا سارت بجيشها إلىٰ دياره المسمّاة بآسم "آراراد"، فدخلتها وأوصت رجالها بأن يأتوها به حيًّا. وهكذا تشتّت جيش الأرمن، ومات منهم خلقٌ كثير كان آرا بينهم، وقد قتله رجال سميراميس من دون أن يعلموا. ولما بحثوا عنه، بعد وقف القتال، وجدوه جثّةً هامدة في ميدان القتال بين جثث أبطاله. فأمرت بأن يُحمَل إليها في برج القصر.

عندما علمت سميراميس بأنّ جيش الأرمن يحاول أن يُلملم شتات أفراده قالت: *«لقد أمرتُ الآلهة بأن يلحسوا جراحه حتى تندمل ويعود إلىٰ الحياة من جديد»*. وكانت صادقةً في ذلك، لأنها كانت تتمنّىٰ أن يعود إلىٰ الحياة بواسطة السّحر، لكنّ الجثّة بدأت تَنتِن، لذا أمرت بأن تُلقىٰ في حفرةٍ عميقة وتدفن تحت التراب. وفي الوقت نفسه زيّنت أحد عشّاقها وأخفته عن الأنظار، وأشاعت بين الناس أنّ الآلهة قد آستجابت لرغبتها، ولحست جراح آرا، وأَحيتْه، وهو الآن عندها، لقاء ذلك يتعيّن عليها أن تزيد في شكرهم وتعبُّدهم، وتدعو الناس إلىٰ تمجيدهم لأنهم أنعموا علينا وفرّحونا، ثم أمرت بأن يُقام له

تمثالٌ بين الآلهة، تُقدَّم له الذبائح والقرابين، لأنّ الآلهة قد أحبّته. وبمثل هٰذه الإشاعات التي روّجتها بين الأرمن، تمكّنت من تهدئة أحوالهم وٱحتواء ثورتهم.

يكفي هٰذا الموجز عن آرا، علمًا بأنه، خلال سنوات حياته، أنجب ولده كارتوس.

١٦

كيف بنت سميراميس بعد موت آرا بلدًا وسدًّا على النهر ؟

بعدما هدأت الأمور وٱستتبّ الأمن، بقيت سميراميس في ذلك السهل، الذي سُمّي بٱسم آرا وصار "آيراراد"، وتجوّلت في المنطقة الجبلية في فصل الصيف، ورأت الجمالَ الذي تتمتّع به الحقول المزهرة، والهواءَ النقيّ، والينابيع الصافية، وهدوء الأنهار الجارية، فأعجبت بها وقالت: «*أريد أن يُبنىٰ، في هٰذا المكان البديع، بلدٌ، وأن يُشيَّد بيتٌ ملكيٌ نقيم فيه في الصيف، الفصل الرابع من السنة لنستمتع بجوّ أرمينية الجميل. أمّا في الفصول الثلاثة الأخرىٰ فنقيم في نينوىٰ حيث الجوّ الملائم*».

بعد تجوّلها في أماكن عدّة وصلت إلىٰ شاطئ بحرٍ مالح في الجهة الشرقية، تحاذيه ربوةٌ متطاولة تمتدّ نحو الغرب مع ميلٍ خفيف إلىٰ الشمال، وفي الجنوب جلاميدُ صخرٍ قائمةٌ تشقّ السماء، يقع في جنوبها غورٌ عريض علىٰ شكل سهلٍ متطاول ينحدر بالتدريج نحو البحر، في حلّة وادٍ جميل تجري في قاعه مياهٌ تنحدر من أعلى الجبل علىٰ طول سلسلةٍ جبلية، لتتّحد في النهاية

وتشكّل نهرًا، اجتذب الناس إليه فسكنوا على ضفّتيه وعمّروا المكان، عند سفح جبلٍ يطلّ على المنطقة من الشرق*.

عندما وقعت عين سميراميس، المرأةِ الشَّبِقة محروقة الفؤاد، على المكان، أمرت فورًا بأن يُجلب اثنان وأربعون ألفًا من العمال الفَعَلة غير الفنيين، وستةُ آلاف عاملٍ فنّيّ من النخبة من المتخصّصين بأعمال الخشب والحجر والنحاس والحديد، يُجْمَعون من آشور ومن المناطق الأخرى الواقعة تحت حكمها. ونُفِّذ الأمر بحذافيره، ووصلت جموع العمال من غير الفنيين ومن الفنيين المهرة. فأمرت بأن يبدؤوا ببناء سدٍّ، بأحجارٍ ضخمة ملتحمة بطينة من الكلس والرمال، لتخزين المياه المهدورة يكون مرتفِعًا وواسعًا يقال بأنه ما زال موجودًا حتى الآن، ثابتًا متينًا، يعتصم سكان المنطقة بفتحاته عند الخطر وبقمم الجبال التي تشكّل جسم هٰذا السدّ الذي لا يستطيع أحدٌ، مهما بلغ من القوة، أن ينتزع حجرًا واحدًا من حجارته. وكانت طينة الكلس والرمل من المهارة على نحوٍ يَظنّ معه الناظرُ إليها أنها تقطر دهنًا. وهٰكذا، وبعد جهدٍ جهيد، أُقيم السدّ محتلًّا مساحةً واسعة قريبة من المكان الذي حُدِّد لبناء المدينة.

عندئذ أمرت بأن يُوَزَّع العمال على فرقٍ، يُعيَّن على كلّ فرقة رئيسٌ خبير من النخبة، يلتزمون بعملٍ حازم حثيث لكي يتمّ إنجاز البناء في سنواتٍ قليلة. ثمّ أحاطت المدينة بأسوارٍ لها بواباتٌ تُغلق بمصاريع من النحاس، تقوم على حماية قصورٍ، تُبنى في وسط المدينة بطابقين وثلاثة طوابق، باذخةٍ مزدانة بأحجارٍ مختلفة متنوّعة الألوان، لكلٍّ منها نوافذُ بحسب ما يناسبها. كما شقّت طرقًا حول المدينة اتّسمت بالجمال والبحبوحة. وبنت في المدينة حماماتٍ جميلةً

* البحر: هو بحيرة وان، والجبل: هو فاراكا.

عجيبة تلائم جمال المدينة وتوفّر حاجتها. وفتحت للنهر أقنيةً، مرّرتها داخل المدينة، للاستعمالات العامّة وريّ الحدائق والبساتين، وبعد خروجها من المدينة تدور حولها في قنوات تساعد علىٰ ريّ الحقول والضواحي المحيطة يمينًا ويسارًا. هٰذا، ولم تبخل علىٰ الشرق، الشماليّ والجنوبيّ، بالقصور والحدائق الغنّاء، التي غرست فيها أشجارًا كثيفة خُضْرًا مثمرةً بأثمارٍ مختلفة، وأكثرت من زراعة الكرمة ذات العصير الوفير. وهٰكذا أصبحت المدينة المحصّنة بهيّةً جذابة آمنة اجتذبت كثيرًا من الناس للسكن فيها.

لقد أعجز، جمالُ الناحية العليا من المدينة بمبانيها، كثيرًا من الناس عن وصفها والحديث عنها. وبنت علىٰ قمّة الجبال سورًا عظيمًا يحيط بالمباني الملكية، ليسترها عن الأنظار ويحميها من الفضوليين والطامعين. نحن لم نسمع من أحدٍ شيئًا عن طبيعة البناء، ولا نريد أن ننسج من خيالنا شيئًا لا نعرفه. كلّ ما نستطيع قوله هو أنّ ما فعلته كان الأعظم والأبهىٰ من كلّ ما عُرف من الأعمال الملكية.

هناك، وفي القسم الصخري المتوجّه نحو الشمس الذي لا تستطيع أقوىٰ أنواع الحديد أن تُحدِث خدشًا في صخوره، عملت المعجزة، وتوصّلت إلىٰ نَقْر غرفٍ مختلفة في الصخر، منها للنوم ومنها للخزائن، وسراديب طويلة لم يَعرف أحد الغرض منها، جهّزتها تجهيزًا يصلح للإقامة فيها زمنًا طويلًا، دون أن يعلم أحدٌ بها أو الهدف من بنائها، كما نقشت علىٰ الصخر نقوشًا تحسبها وكأنها تُخَطّ علىٰ شمع العسل بريشة طائر، مع تماثيلَ ونقوشٍ تتحدّث عن أمجادها بالأحرف المسمارية أذهلت الناظرين. وأخيرًا ثبّتت حدودها بنقوشٍ تشبه النقوش الأولىٰ.

وهٰكذا نكون قد بيّنا الإنجازات التي نفّذتها سميراميس في أرمينية.

١٧

لماذا قتلت سميراميس أولادها ؟
ولماذا هربت من وجه الكاهن زرادشت ؟
ولماذا قُتلت بيد ولدها نينواس ؟

اعتادت سميراميس، كلّما أرادت المجيء إلىٰ أرمينية لقضاء فصل الصيف مقيمةً في المدينة التي بنتها، أن تُنيب عنها، لإدارة الأمور في آشور ونينوىٰ، الكاهن الماريّ زرادشت، تأتمنه علىٰ مملكتها وخزائنها. ولقد دام ذلك زمنًا طويلا.

لكنّ أولادها اعترضوا عليها، لقسوتها في الحكم ولسوء سلوكها، لأنها كانت تسخّر نفوذها الملكيّ لمصلحة خلّانها وعشاقها، ناسيةً أولادها وزوجها نينوس الذي ادعت أنه مات، وهو لم يمت بل هجر البلاد هربًا من شرّها وشبقها إلىٰ كريدي. فلما كبروا ونضجوا اشمأزّوا من أفعالها، وطالبوها بالكفّ عن أعمال البطش والقسوة، وأن تُوَلّيهم علىٰ إماراتٍ يُديرونها بمعرفتهم. ولكنها بدلًا من أن تستجيب لمطاليبهم أمرت بقتلهم جميعًا. لكنّ ابنها الأصغر نينواس تمكّن من الهرب والنجاة بنفسه.

وحين اعترض الكاهن زرادشت علىٰ أعمالها هٰذه، دبّ بينهما خلافٌ أدّىٰ إلى أن يضع الكاهن الماريّ يده علىٰ كلّ شيء بالقوة، وجرّدها من كلّ شيء. فأعلنت عليه حربًا لم تكن في صالحها، فهربت من وجهه ولجأت إلىٰ قصرها في أرمينية. هناك تربّص بها ابنُها نينواس، وتحيّن الفرصة المناسبة، وقتل أمه، ونصّب نفسه ملكًا علىٰ الآشوريين ونينوىٰ.

ها قد حكينا لك عن سميراميس وموتها: كيف حصل، ومتىٰ؟

١٨

التاكيد على ان محاربة سميراميس قد تمت في الهند وان مقتلها قد تم في ارمينية

يتعيّن عليّ هنا أن أستعرض وجهة نظر جيفاليون في ما رواه، حتىٰ لا أتجنّىٰ عليه وأترك مجالًا لسخرية الآخرين منّا، لأنه قد تحدّث ـ كما يبدو ـ كثيرًا عنها منذ ولادتها حتىٰ يصل إلىٰ خلافها مع زرادشت وانتصارها عليه، ثمّ يميل لكي يجعل حياتها تنتهي في حربها مع الهند. لكننا نرىٰ أنّ البحث، الذي أجراه مار عباس كادينا في الدواوين الكلدانية، أقربُ إلىٰ الواقع. لأنّ ما حكاه عن اشتعال الحرب وأسبابها كان في محلّه وله مبرّراته، هٰذا إضافةً إلىٰ أساطيرنا الشعبية، التي تؤيّد ما ذهب إليه الآشوريّ المطّلع، لأنها تقول بأنّ سميراميس هربت ماشيةً علىٰ قدميها، إلىٰ أن داهمها العطش وحرقها الظمأ، فشربت من ماء النهر، وأنّ تماثيل عشاقها قد أُلقيت في البحر، وتُوصِلها أساطيرُنا إلىٰ سيوف الجلّادين فتقول: «*تماثيل سميراميس في البحر، وعنقها للجلاد*».

أظنّك لا تريد أن تسمع قول الأسطورة الذي يجعل سميراميس تسبق نيوبة* في تحوّلها إلىٰ حجر!

يكفينا هٰذا القدر الآن، ولننتقل إلىٰ شخوصٍ أخرىٰ.

* نيوبة: هي ابنة فاندالوس من سلالة الآلهة وزوجة ملك طيبة. خلّفت سبعة من البنين والبنات، وصارت تفخر بهم وتتباهىٰ علىٰ لادونا، التي لم تخلّف غير ابن وبنت هما آبولون وديانا. قتل هٰذان كلّ أبناء وبنات نيوبة، انتقامًا لكرامة أمهما، فحزنت عليهم كثيرًا حتىٰ تحوّلت إلىٰ حجر. تخمّن المصادر التاريخية أنّ القصة قد تكرّرت في أرمينية، وتحوّلت سميراميس إلىٰ حجر.

١٩

ماذا حصل بعد موت سميراميس ؟

بعد التنسيق بين كلّ الروايات، أبدأ في هٰذا الكتاب ببيان أصل الشخوص الأوائل في أمتنا. ثم بيان أسماء سلفنا مع ما قيل عن كلّ واحدٍ منهم من أعمالٍ وسيرة، من دون أن أدسّ فيه افتراضاتٍ شخصيةً أو أقوالًا غير موثّقة. بل ألتزم بما جاء في الكتب والدواوين، وبما رواه العلماء المطّلعون وبالمخطوطات القديمة، تَوَخّيًا للأمانة. هٰذا ونؤكّد علىٰ أننا كنّا عادلين في ملاحظاتنا وصواب تفكيرنا في الكتاب.

يعلم الله أننا قرأنا من المصادر عددًا كبيرًا، ولكن ليس من شأننا أن نحدّد مدىٰ صدقها أو كذبها، ومدىٰ قبولها عند الناس أو رفضها، لأننا بعيدون عن عصرهم ونُعتبر غرباء عنهم. علىٰ أنّ تَوافُق الروايات مع تواريخ فروع الأنسال، تُبيِّن صدق دراستنا. لذا فإنّ التصنيف بهذا الشكل إمّا أن يكون قابلًا للتصديق أو أن يكون بعيدًا إلىٰ حدٍّ ما عن الحقيقة.

ولأبدأ، الآن، بذكر الوقائع بحسب ما رواه بيدو هوسمان.

(مقارنة فروع امتنا بين تصنيف العبرانيين والكلدان

حتى "سارداراباناوس" الذي يلقّب بـ"طونوس كانكوليروس")

عبرانيون	كلدان	أرمن
إسحق	*آريوس*	*آريون**

* هو آرا، الذي أحبّته سميراميس، ومنه نسل الآريّون.

عبرانيون	كلدان	أرمن
يعقوب	سراليون (أو آموديوس)	آنوشافان
ليفي	كسيركسيس (أو باليوس)	باريد
كحات	آرماك	آرماميتريوس
عمرام	زافان	بيلوكوس
موسىٰ	بارناك	باليوس
هيسو*	آلدانوس	سور**
كوتونثيل	هافاناك	ماميتوس
آفوفت	فاشداك	ماسكاليوس
باراك	سبيروس	هايكاك***
كيتيون	ماميكوس	آمباك
آبيمالك	سباريتوس	آرناك
بوفدا	آسكاداليس	شافارش
هاير	آميندييس	نوراير
يبتائي	بيلوكوس	فسدام
يسيريوفن	بالودوريوس	كار

* كان الأقدم قبله هو السائد، لأنّ الكلّ من إبراهيم. فلما أنتصر علىٰ الكنعانيين هربوا من ترسيس إلىٰ أكراس، ونُقشت علىٰ أصنام الأفارقة كتاباتٌ تذكارية باقية حتىٰ الآن، تقول: *نحن جدود كنعان هربنا من هيسو اللص وأتينا لنقيم هنا*. ومنهم جاء كاميتاسنا المقدّس إلىٰ أرمينية. ولقد علمنا، بعد التحقّق، أنّ قوم كنتون منهم أيضًا، لأنّ آثارهم تدلّ علىٰ الكنعانيين.

** في عهده عاش هيسو نافيان، أي المراكبي.

*** يقولون إنه عاش في زمن بلوقوس، وأنه دخل في عراكٍ غبيّ غير متكافئ، فمات.

عبرانيون	كلدان	أرمن
يدوفن	فامباريديس	كوراك
لبطون	سوساريس	هرانت
سامبسون	لامباريس	آنتساك
هيفي	بانتياس	كفاك
صاموئيل	سوسارموس	هورو
شاوول	ميتريوس	زارماير*
داوود وخلفه	ديداموس	
	ديديوس	ببرج
	تينيفس	آريون
	تركيلوس	بازوك
	يغيار موس	هوى
	لافوستينوس	هوساك
	بيريدياديس	كايباك
	فوبراديوس	
	سكافورتي	
	برادينيس	
	آكرارانيس	
	ساردارابالوس	

* أُرسل مع جيشه لمساعدة ليبرياموس الأثيوبي، ومات بيد اليونان.

٢٠

عن آرا بن آرا بن سوسانفير آنوشافان

في أيام سميراميس وُلِد لآرا من زوجته الحبيبة نفارت، ولدٌ كان في الثانية عشرة من عمره عندما قُتل أبوه آرا. ومن شدّة حبّها لأبيه سمّته ''آرا'' بآسم أبيه، ونصّبته نائبًا لها في بلادنا بعدما وثقت من إخلاصه. يقولون إنه مات معها في الحرب.

لكنّ مار عباس تابع الرواية على الشكل التالي: مات آرا بن آرا مع سميراميس في الحرب، مخلّفًا ولدًا ذكرًا قويًّا في العمل، جريئًا في الكلام، سمّاه ''آنوشافان سوسانفير''، لأنه وهب نفسه لأشجار الحَوْر* في مدينة آرمافير، لأنّ الأرمن في أرمينية كانوا يتفاءلون بحركة أوراقها، خفيفةً كانت أو شديدة تبعًا لحركة الريح، ودامت العادة هٰذه زمنًا طويلا.

عاش آنوشافان في عذابٍ عند الباب الملكيّ، بسبب آستهتار زانيسيس به زمنًا طويلا، إلى أن تمكّن، بمساعدة بعض الأصدقاء، من وضع اليد على جزءٍ من أرضنا، يرعاها ويدفع خراجها، حتى واتته الفرصة وآستولى على البلاد كلّها.

لكن إذا ما تحدّثنا كثيرًا عن الأشخاص المذكورين آنفًا وكتبنا عن أعمالهم وسيرتهم بقدر ما يستحقّون، نكون في حال مضيعةٍ للوقت بلا سبب.

* كلمة سوس تعني شجرة الحَوْر، ونفير، تعني الهبة والنَّذْر.

٢١

باروير ابن العمالقة
يصير اول ملك على ارمينية
بعدما ساهم في مساعدة فارياك الماري
على انتزاع الملك من ساردانابللا

بعدما تجاوزنا غيرَ المهمّ من الأحداث، أصبح من واجبنا الكلامُ عن المهمّ منها، خصوصًا عن التابعين من الناس الذين عاشوا في مملكة آشور، بعد سميراميس ونينوس. في هٰذا الوقت برز باروير في الصورة في زمن ساردانابللا بعد المساهمة التي قدّمها لفارياك الماريّ لانتزاع الملك من ساردانابللا.

أشعر الآن بالفرح يغمرني، لأنني وصلت إلىٰ ذاك الزمن الذي وصل فيه أسلافنا الأولون إلىٰ مرتبة الملكية. وهٰذا يدفعنا إلىٰ القيام بعملٍ جبّار لكتابة مقالاتٍ تاريخية كثيرة، بعدما حالَفَنا الحظّ في العثور علىٰ المصادر الكثيرة، التي وجدناها في الروايات الشعرية الأربع الغنية التي نظمها أحكم الحكماء*.

كان فارياك ميتانيًّا بالأصل من مستوطني النواحي المجهولة من طرف الدنيا الأكثرِ مَنَعَةً، داهيةً في سلوكه في الحياة، محنّكًا في الحرب علىٰ عكس طونوس كونكوليوس الجبّار المستهتر الكسول جدًّا، لذلك سعىٰ إلىٰ التعامل الودّيّ مع الناس، مشفوعًا بكرمٍ شديد يسّر له اجتذاب الأصدقاء من الرجال الشجعان المهرة الذين تمكّن، بالاعتماد عليهم، من حكم آشور التي كانت تسيطر علىٰ العالم في ذلك الزمن. كذلك اجتذب، بصفاته الكريمة تلك، قلب

* هو دافيد آنهاغت، الملك الفيلسوف الحكيم من القرن الخامس، وهو ابن أخت خوريناتسي، ولم يذكر اسمه صراحةً تأدّبًا.

جدّنا باروير، ووعده أنه إذا ما ساعده علىٰ آسترداد مُلكه يُنعِم عليه بالملكية والجاه. وهٰكذا شكّل جيشًا كبيرًا من المحاربين من أمهر رماة الرمح وآستعمال القوس والسيف، وآنتزع الملك من ساردانابللا، وآعتلىٰ عرش آشور ونينوىٰ، لكنه ترك نوّابًا عليها، ونقل عاصمة ملكه إلىٰ أرض ماري.

أريدك أن لا تتعجّب إذا ما سمعت هٰذه الحكاية يرويها الغير بشكلٍ آخر، لأنّ العتب علىٰ أسلافنا الأقدمين الذين ذَكَرنا، في الفقرات السابقة، أنهمَ أهملوا بحقّ أنفسهم ولم يعتنوا بتدوين ذكرياتهم وأعمالهم، في حين دوّن الكُتّاب عند نبوخذ نصر وأبيه كلَّ أمجادهما، إضافةً إلىٰ أخبار الأمم الأخرىٰ. فإن سألتني عن مصدر هٰذه المعلومات، أجبتُك بأنني حصلت عليها من الدواوين الملكية عند الكلدان والآشوريين والفرس واليونان، التي كتبها عمّالهم ونوّابهم المعيّنون علىٰ حكم بلادنا.

٢٢

تصنيف ملوكنا
وتعدادهم من الآباء إلى الأبناء

أُستطيع الآن أن أنتقل إلىٰ ذكر أسلافنا، خصوصًا الملوك منهم حتىٰ عهد البارتيفيين، لأنّ هؤلاء هم الأحبُّ عندي من بين ملوكنا، أُمّةً وصِلَةَ دم وأشقاءً حقيقيين. كنت أتمنّىٰ لو أن مُخلِّصنا جاء في ذلك الزمان وآشتراني، كما كنت أتمنّىٰ لو أنني جئت إلىٰ الدنيا في عهدهم، لأنعم بالعزّة في ظلّ حكمهم وأنجو من مخاطر الزمن الحاضر. لكن للأسف فاتتْنا تلك النعمة وفاتنا خيرها. ومع ذلك فإنّ واجبي يحتّم عليّ ـ وإنّ كنت أعيش في زمن ملوكٍ أغراب ـ أن أُدرجهم في لائحة ملوكنا. لأنّ المتوّجين الأصليين في بلادنا هم أولئك الرجال الذين أضع علامةً بحذاء أسمائهم.

لا شكّ أنّ بلادنا كانت تتمتّع بالحكم الملكيّ في ذلك العصر، يشهد عليها

أرميا النبيّ في نبوءته، حين يقول داعيًا إلىٰ الحرب ضدَّ بابل: *نادوا عليها ممالكَ اراراطَ ومِنّي واشكَناز*. هٰذا يُثبت أننا كانت لنا مملكةٌ في ذلك الزمان.

ولسوف نذكر فيما يلي أسماء ملوكنا الأصليين إلىٰ جانب أسماء ملوك ماري.

الماريّون الأول:

فارباكيس

موتاكيس

آرديكيس

تيوفكيس

بارافورديس

كفاكس

آجتاهاك

أمّا جدّنا، الذي رسمه فارياك، فهو:

باروير آبن العمالقة.

*هراجيا**

* سُمّي هراجيا، علىٰ الأغلب، بهٰذا الآسم لجمال وجهه وبريق عينيه. وقد عاش، كما يقولون، في زمن نَبُوخَذْنَصَّر ملك البابليين الذي شرّد اليهود وأسرهم. ويقولون أيضًا أنه توسّط عنده للعفو عن أحد كبار اليهود المدعو "شامباط"، وخلّصه من الأسر، وجاء به إلىٰ بلادنا وأسكنه فيها معزّزًا مكرّمًا. ويزعم المؤرّخ أنّ أسرة باكرادوني إنما جاءت منه، وهٰذا أكيد علىٰ ما يبدو. ولكن لماذا بذل ملوكنا جهودهم لإجبارهم علىٰ عبادة الأوثان؟ وكم ذا بذلوا؟ ومَن منهم قضىٰ نحبه في سبيل الله؟ هذا ما سنحكيه لاحقًا. أمّا كلام الناس غير الموثّق عن أسرة باكرادوني، علىٰ أنهم أسرة هايك وذريته، فهو محض رأي ومن دون آستناد إلىٰ حقيقة ثابتة، فأنا لا أصدّقه، وما هو إلّا كلامٌ غبيّ لعدم وجود إثبات أو دليل يؤيّده. لأنّ كثيرًا من الناس يلوكون سيرة هايك من دون إثبات. لكن آعلم أنّ آسم "سمباط"، الذي يطلقه الباكرادونيون علىٰ أبنائهم، إنما هو "شامباط" بلسانهم العبراني القديم.

[ملاحظة من ناشر الطبعة العربية: *أدرج مترجم الكتاب من الأرمنية القديمة إلىٰ الأرمنية الحديثة هٰذا النص في الهامش، وحقيقٌ به أن يُدرج في المتن، فالسياق يدل علىٰ أنه من كلام المؤرخ خوريناتسي!*]

بارنواس

باجويج

كورناك

بافوس

ميفس هايكاك

يرفانت ساكافاكياتس

ديكران

أرى أنه من المعقول جدًّا، حسب تخمين هوسي، أن يكون يرفانت وديكران التاليين قد سُميّا بأسم ذينك السابقين، إذ بإمكان المرء أن يتذكّرهما نظرًا لقرب المدة الزمنية بينهم.

٢٣

ابناء سينيكريم
وان الأردزرونيين والكنونيين واوائل الآغتسيانيين هم من نسله
وان بيت آنكيغ هم من الباسكام

لكن قبل الدخول في التدقيق في الروايات، التي نُسجت حول ديكران الكبير المشهور المغوار المنتصر على كبار ملوك العالم، التاسع في عداد ملوكنا، علينا أن نتكلّم عن الأهمّ لكي نحافظ على الترتيب في تاريخنا. كما أنني أظنّ أننا تأخّرنا في الكلام عن سينيكريم. لأنه كان ملكًا على الآشوريين قبل ثمانين عامًا ـ أكثر أو أقل ـ من تملُّك نَبُوخَذْ نَصَّر، وهو الذي حاصر أورشليم في عهد حزقيا كبير اليهود، وبعدما قتله ولداه آتراملك وساناسار هربا لاجئَيْن إلى بلادنا.

فأسكن جدُّنا البطل أحدَهما، المسمّىٰ ساناسار، قرب حدود آشور في الجنوب الغربيّ من البلاد، فتكاثرت ذريّته وملأت الجبل المسمّىٰ "سيم". ولمّا أثبت كبارهم ووجهاؤهم الوفاء لملوكنا، اَستحقّوا منهم نعمةً منحهم ألقابًا ملكية، وأطلقوا أيديهم في بقاع صغيرة تملّكوها، بينما سكن آركاموزان ـ الذي هو آتراملك نفسه ـ في الجنوبِ الغربيّ من الحدود عينها، وبذلك اَنصهروا في أمتنا، وصاروا حماةً لحدود تلك المناطق. فيقول المؤرخ أنّ الأردزرونيين والكنونيين هم من ذرّيتهم، وهٰذا هو السبب الذي حَدَانا إلىٰ رواية حكاية سينيكريم.

أمّا عن بيت آنكيغ، فيقول المؤرّخ إنهم من نسل مَن يُدعىٰ باسكام حفيد هايك.

٢٤

ديكران الكبير وكلّ شيء عنه

لننتقل، الآن، إلىٰ الكتابة عن ديكران الكبير وأعماله، لأنه كان الأقوىٰ والأدهىٰ والأشجع من بين كلّ ملوكنا. كان حليفًا لكوروس في إسقاط حكم الماريّين. ثمّ اَجتاح بلاد اليونان بعد زمنٍ قصير وأخضعهم لحكمه، وراح يتوسّع بالاَستيطان حتىٰ وصل بحدودنا القديمة إلىٰ أقصى حدود المعمورة، وصار يحسده علىٰ مكانته كلّ مَن جاء بعده.

هل هناك بين الناس، الذين يمتلكون الرجولة والحكمة، من لا يبتهج لذكره ويتمنّىٰ أن يتشبّه به، بعدما رفع شأن الرجال بشجاعته ورفع مكانة أمتنا بين الأمم، بينما كنّا نرزح تحت نِير الغير. لقد أخضع كثيرًا من البشر وجعلهم يحملون نيره، وفرض عليهم خراج خضوعهم، يُدفع من الموادّ الخامّ ومن الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والألبسة من مختلف الألوان والأشكال

للرجال وللنساء، بمقادير كبيرة تجعل القبيح يبدو جميلًا أمام الناس، أمّا الجميل في عرف ذاك الزمان فيبدو كالآلهة. وصار المحاربون المشاة فرسانًا، وحمل من كانوا يحاربون بالمقلاع والقوس والدبوس، سيوفًا ورماحًا مسنّنة، وتَدَرَّع العُزَّل بالتُّروس والدروع الحديدية، حتىٰ صار مظهرهم الخارجيّ، ببريق دروعهم وأسلحتهم إذا ما ظهروا في مكانٍ ما، يبعث علىٰ الخوف والرعب في صفوف عدوّهم فيهربون طلبًا للنجاة. فأشاع بذلك الأمن وشجّع العمران فصار الناس مثل السمن والعسل.

هٰذا جانبٌ من كثير ممّا فعله ديكران يرفانتيان في بلادنا. إنه ذلك الرجل الوسيم، أجعدُ الشعر، بهيّ الطلعة حلوها، قويّ الساقين، جميل القدمين، ممشوق القدّ، سويّ الظهر، كريم الخصال، السخيّ في الطعام والشراب، السّموح في الأفراح موضوع أغاني أوائلنا. يقولون: إنه كان معتدلًا في رغباته البدنية، حكيمًا، حسن البيان، يتمتّع بكلّ الخصال الحسنة التي يجب أن يتحلّىٰ بها المرء. كم كنت أتمنّىٰ الاَسترسال والإطالة في مدحه في هٰذا الكتاب، وهو العادل في كلّ أموره، يزن بالتساوي ويكيل بالعدل، لا يَحْسُد المجيدين، ولا يستهين بالضعفاء، بل يعمل علىٰ أن يبسط رداء رعايته علىٰ الجميع بالتساوي.

كان ديكران حليفًا لآجتاهاك ملك ماري، وقد اَستجاب لطلبه بأن زوّجه بأخته ديكرانوهي بعد إلحاحٍ شديد. وكان آجتاهاك يهدف من وراء هٰذه المصاهرة إلىٰ توطيد مودّةٍ بينَهما، تكون وسيلةً سهلة لكي يدبّر لقتله غدرًا، لأنه كان يخشاه ويشكّ في صدق ما يُضمره نحوه خصوصًا بعد حلمٍ رآه، يكشف عمّا يُخبّئه له المستقبل.

٢٥

حول خوف آجتاهاك وقلقه
من تقارب كوروس وديكران ومن اتحادهما

ولقد نتج قلقُه هٰذا عن التحالف الوديّ الذي ٱقترحه كوروس علىٰ ديكران، ذلك التحالف الذي أقضّ مضجعه وجعل النوم يفرّ من عينيه، وظلّ يطرح هٰذا السؤال علىٰ مشاوَريه: «*ما هو السبيل إلىٰ إيقاع الفتنة بين الفارسيّ والأرمني قائد عشرات الآلاف من المحاربين؟*».

وفي تلاطم هٰذه الأفكار المحيّرة، كانت أحداث المستقبل تُراوده في أحلامه بالشكل المنغّص الذي يرويه لنا الراوي.

٢٦

كيف رأى آجتاهاك في منامه وهو في دوامة شكوكه
ما سوف يقع له من الأمور مستقبلًا ؟

يقول الراوي: في تلك الأيام، لم يكن آجتاهاك الماريّ يتوقّع أيّ خطر، ولو قليل، من ٱتّحاد كوروس وديكران. ومع ذلك فإنّ قلقه من هٰذا الاتّحاد، كان يُصوِّر له مشاهدَ فظيعةً في أحلامه، لم يشاهد مثلها في يقظته ولم يسمع بها بأذنه، يتخيّلها ويهبّ من نومه مذعورًا، فيلازمه الأرق حتىٰ موعد ٱجتماع مشاوَريه العادي. وقد يدعو هؤلاء المستشارين إلىٰ ٱجتماعٍ طارئ حتىٰ في جنح الليل، فينظر إلىٰ الأرض ويزفر زفرةً تنبُع من أعماق صدره، ثم

يسأل المستشارين بعد ساعات من التردّد والتفكير، عن تفسيرِ سرٍّ ما يتراءىٰ له في أحلامه الرهيبة الناتجة عن قلقه فيقول:

يا أعزائي! حَلَمْتُ أنني في بلدٍ غير معروف، قربَ جبلٍ آنتصب عاليًا فوق الأرض، تُغطّي ذِروته طبقةٌ كثيفة من الجليد الرهيب. فتخيّلت أنني في ديار هايكاز. وفيما أنا أتطلّع إلىٰ الجبل، رأيتُ فجأة آمرأةً في ثيابٍ مشمشية اللون، تتوشّح بوشاحٍ سماويّ اللون، جالسةً فوق قمة الجبل، تنظر إليّ بعينينِ واسعتين. كانت طويلةَ القامة، ذات خدّين أحمرين، تُعاني من ألم المخاض. وبينما أنا مندهشٌ من هٰذه الظاهرة العجيبة، وَلَدت المرأة فجأةً ثلاثة أولاد بطبيعةِ آلهةٍ وطولهم الكامل، يمتطي الأول سبعًا يجري به نحو الغرب، ويمتطي الثاني ظهري أنا ويجري بي نحو الشمال، بينما يمتطي الثالث تنّينًا يجري به ويهجم علىٰ ديارنا.

وفي أثناء هٰذا الحلم المزعج، حَلَمْتُ بأنني أقف فوق سطح القصر الملكيّ المزدان بالشآبيب، أنظر إلىٰ الآلهة وهم يباركوننا في مشهدٍ بديع، بذبائحها وبخورها. ولما رفعتُ رأسي إلىٰ أعلىٰ رأيت ذلك الرجل الذي يمتطي التنّين، وكأنه يسبح في الفضاء علىٰ أجنحة نسر، وينقضّ علينا يريد أن يقضي علىٰ آلهتنا. فواجهتُه بنفسي أنا آجتاهاك، وتلقّيت الهجوم، وآشتبكت مع هٰذا الإلٰه الجميل في عراك، بدأناه بالتقاتل بالرماح فأثْخَنّا جسدَينا بالجراح التي سالت دماؤنا منها أنهارًا، وآصطبغ وجه القصر بالدم القاني كلون الشمس. ثمّ تابعنا القتال بأسلحةٍ أخرىٰ ساعاتٍ طويلة.

لن أطيل عليكم الكلام، لأنني ضعت في نهاية الأمر، وآستيقظت مرعوبًا، وطار النوم من عينيّ، ووجدت نفسي مبلّلًا بالعرق الغزير، ولا أصدّق أنني ما زلت حيًّا. برأيي أنّ الحلم بمثل هٰذه الظواهر، لا يعني إلّا أن ديكران الهايكازيّ يُخطّط للهجوم علينا. فمَن ــ بعد عونِ الآلهة ــ يفكّر في مساعدتنا بالقول والفعل،

دون أن يحسب نفسه معادلًا لنا في الملك؟

بعد الاستماع إلىٰ آراء المشاوَرين المفيدة جدًّا، كرّمهم وشكرهم وصرفهم.

٢٧

آراء المشاورين
والحل الذي فكر فيه والبدء بتنفيذه

قال آجتاهاك:

أعزائي، بعدما آستمعت إلىٰ آرائكم الجريئة الحكيمة جدًّا، أقول إنني فكّرت ــ بعون الآلهة ــ بطريقةٍ قد تكون مفيدة. فالحذر من الأعداء ومعرفة ما يبيّتونه وحدها، لا تكفي ولا تأتي بفائدة كبيرة، مثلما تأتي الفائدة من المبادرة إلىٰ البطش بالخداع وآدّعاء الودّ. وبما أننا لا نملك الوسيلة لتفادي الخطر، لا بالقول المعسول ولا بالكنوز، لذا لا سبيل لنا إلّا آتّباع الخطّة التي أفكّر فيها. والطريقة المثلىٰ لتنفيذ خطّتي، هي نصب فخٍّ له عن طريق أخته ديكرانوهي أجمل النساء وأعقلهنّ، فالقرابة بالمصاهرة تسهل لنا عملية الذهاب والإياب بحريةٍ وأمان فيتّسع لنا المجال لنصب الفخّ بالسرّ، أو برشوة المقربين منه بالمال والتشويق بالجاه، لقتله غيلة، إمّا بواسطة السّمّ، أو بجعل المقربين منه ييسّرون لنا الوصول إليه، ليقع في أيدينا مثل ولدٍ لا سند له.

آعتبر المجتمعون هٰذا الرأي صائبًا، وبدؤوا بالعمل علىٰ تنفيذه. وهٰكذا حمل أحد مشاوَريه، كثيرًا من الكنوز وأرسله إليه بالمضمون التالي:

٢٨

رسالة آجتاهاك، وموافقة ديكران وإرسال ديكرانوهي إلى بلاد ماري

لا يخفىٰ علىٰ أخوّتكم الغالية، أنّ الآلهة في هٰذه الدنيا لم تمنحنا شيئًا أجدىٰ مِن لَمِّ شمل الأحبّة من أحكم الناس وأقواهم، فيقف ذلك سدًّا في وجه المنغّصات التي تأتي من الخارج فتقضي عليها قبل أن تنفذ إلىٰ الداخل، ويقف في وجه المعكّرات في الداخل فيقضي عليها في مهدها قبل أن تستفحل، وبذلك تكون وحدة الحبّ حافظًا لنا من كلّ الشرور التي تحاول غَزْوَنا.

لذا، وإضافةً إلىٰ الصداقة التي تربط بيننا، رغبت في أن تزداد هٰذه الصداقة رسوخًا بمحبةٍ عميقة فيما بيننا، حين تصير آنسة الأرمن العظيمة عندي ملكة الملكات، وتبارك أنت زواجي من أختك الكريمة ديكرانوهي، فنملك نحن الاثنين زمام الأمور، ونحمي ديارنا معًا من عبث الأعداء.

طال عمرك أيها الزميل الملك والأخ العزيز.

أقول من دون إطالة في الكلام، إنّ الرسول عاد، وقد أنجز مهمّته بنجاحٍ وعلىٰ أكمل وجه، بعدما وافق ديكران علىٰ إعطاء أخته ديكرانوهي للزواجِ بآجتاهاك، دون أن يدري بالمكيدة المبيّتة له، وأرسلها في موكب يليق بالملوك. فجعلها آجتاهاك هٰذا الأولىٰ بين زوجاته، لجمالها أولًا، ثم لتأهيلها بنيّةٍ خبيثة لصبّ حقده الذي يُخفيه في صدره.

٢٩

كيف انكشفت المكيدة
وبدأت الحرب التي مات آجتاهاك في أثنائها

يقول الراوي بعد ذلك، إنّ آجتاهاك، بعدما تثبّت ديكرانوهي في عصمته الزوجية، جعلها المشيرة الوحيدة له، فلا يقوم بعملٍ في المملكة إلّا بموافقتها، وبما تشير به عليه، وذلك رغبةً منه في إشباع غرورها واجتذابها لتنفيذ مكيدته. فلما حان الوقت الذي خمّنه مناسبًا بدأ ينفث فيها سمّه، وقال لها:

لعلّك لا تعرفين أن أخاك ديكران يغار منك لأنك صرت زوجة رجل آريّ[*]*، وبات يستمع إلىٰ وسوسة زوجته زاروهي التي تدبّر مكيدةً لموتي لكي تصبح بدلاً منك ملكةً علىٰ الآريين وتحل محل آلهتهم. لذا أترك لك الخيار بين أمرين، إمّا أن تنحازي إلىٰ أخيك لتتسبّبي في ضياع الآريين، وإمّا أن تفكّري بعقلك الكبير في إيجاد حلٍّ مفيد لتلافي الأحداث القادمة.*

كان أسلوب الماريِّ الفارسيّ الماكر، يحمل في طيّاته تهديدًا لديكرانوهي بالموت إذا هي لم تنفّذ ما يرمي إليه، وأدركت الحسناء الذكيّة مكيدته، وسايرته. وفي الوقت نفسه أرسلت إلىٰ أخيها، سرًّا، واحدًا تثق به يحمل له تحذيرها من غدره.

بدأ آجتاهاك بالتخطيط لتنفيذ مكيدته، فأرسل رُسُلًا إلىٰ ديكران يدعوه

* الآريون: مجموعة أقوام غزت الهند والفرس، وحملت هذا الآسم الذي شمل كلّ شعوب الهند والفرس والقفقاس والأكراد وغيرهم. ويقابلهم الساميون.

إلىٰ آجتماع عند نقطة حدوديّة للتشاور في أمورٍ آدّعىٰ أنها أخويّةٌ صادقة، تهمّ المملكتين، لا يمكن شرحها بالرسائل أو عن طريق الوفود، ولا بدّ من بحثها وجهًا لوجه. عندئذ تأكّد ديكران، من أسلوب الدعوة ومن كثرة تردُّد الوفود إليه، من صحة تحذير أخته، ومن خبث نيّة آجتاهاك، ومن المكيدة التي يريد أن يوقعه فيها، وآنكشف له الشرّ الذي لم تتمكّن الكلمات المعسولة من إخفائه، وبدا له كلّ شيء واضحا.

وجمع ملك الأرمن في كاباتوفكيا عند الحدود، رجالًا من نخبة الأغوانيين الفرس ومن خيرة رجال أرمينية الكبرىٰ والصغرىٰ، وحاصر بهم كلّ جهات الميتانيين، ووضعوا آجتاهاك أمام حربٍ مدمّرة لا يمكن لجيشٍ صغير أن يخوضها، فتح هو الباب لها. لكنّ ديكران العاقل المفكّر، آستبعد الهجوم السريع، وأجّله خمسة أشهر ريثما يتمكّن من إنقاذ أخته ديكرانوهي من بين يدي الغدّار. ولمّا تيسّر له ذلك دقّ ناقوس الحرب.

وبرز المحارب الرمّاح الشجاع الذي أمدحه، متناسقَ الأعضاء يكمل واحدها الآخر، بقامته المشوقة البديعة التي يتميّز بها رجلٌ لا يجاريه بالقوة أحد، وتحدّىٰ آجتاهاك، وآشتبك معه في مبارزةٍ، غرز خلالها رمحه الطويل في درع آجتاهاك الحديديّ وكأنه يغرزه في ماء، ثمّ آستلّه منه وقد علقت به نصف رئته. وآنتهت الحرب بعد ساعات فقط، كان الرجال فيها من الجانبين يحاربون بكلّ قوتهم دون أن يُدير جانبٌ ظهره للآخر. وزاد هٰذا النصر مجدًا علىٰ مجد ديكران وسمعته.

٣٠

حول إرسال أخته ديكرانوهي إلى ديكراناكيرد وإقامة زوجة آجتاهاك الأولى آنوش وغيرها من الأسرى

ويقول الراوي، إن ديكران أرسل أخته ديكرانوهي، بعدما أنتهت العملية، في موكبٍ عظيم يليق بالملوك، إلىٰ مدينة ديكراناكيرد التي بناها ديكران وسمّاها بأسمه في تلك المنطقة التي خضعت لحكمه*. ويقال إن طبقة النبلاء الذين سكنوا الضواحي، التي عُرفت بأسم فوستان**، هم من ذرّيته ومن سُلالته الملكية.

أمّا زوجة آجتاهاك الأولىٰ ومعها بناتٌ كثيرات وفتيان من ذرّيته، مع عددٍ كبير من الأسرىٰ يزيد علىٰ عشرة آلاف أسير، فقد أسكنهم في الجهة الشرقية من الجبل علىٰ حدود الكوغت التي تشمل: دامباد وفوسكيوغا وتاجكونيك، وغيرها من المناطق الواقعة علىٰ ضفة النهر، إضافةً إلىٰ فرانجونيك التي تواجه حصن ناخيجيفان. ثم زاد وترك لهم ثلاث ضواحٍ أخرىٰ هي: خرام وجوغا وخورشاكونيك علىٰ الضفة الثانية من النهر، مع السّهل الواسع الذي يبدأ من آجتاناك وينتهي بدوره عند حصن ناخيجيفان. علىٰ أنه حرصًا منه علىٰ راحة آنوش، الزوجة المذكورة أعلاه، أسكنها مع أولادها في الغور عند نهاية الجبل الكبير. (يقال إنّ هٰذا الغور قد حصل قديمًا بعد زلزال عنيف. يؤكد

* مدينة ديكراناكيرد، بناها ديكران الكبير وليس ديكران يرفانتيان كما تهيّأ لخوريناتسي. وهٰذا خطأ شاع مع أمورٍ كثيرة نُسبت إلىٰ ديكران يرفانتيان.

** كلمة فوستان تحمل معانيَ كثيرة، يهمّنا منها معنىٰ المساكن الملكية.

هٰذا القول أولئك العلماء الذين خرجوا بأمر من بطليموس*، وقطعوا مسافات طويلة، حتىٰ وصلوا إلىٰ البحر والربوع غير المأهولة الواقعة بين الحزام البحريّ وبين القطب المتجمّد كيموروون**، بحثًا عن مواطن إقامة البشر بغية إحصائهم). وألحق بخدمتها أناسًا من الذين سكنوا سفح الجبل.

تؤكّد هٰذه الحقيقة أغاني تفيليا، التي حافظ عليها ـ كما سمعتُ ـ أهل منطقة كوغت بحرصٍ شديد، والتي وردت فيها حكايات عن آرداشيس وأبنائه وآجتاهاك وذرّيّته الذين أطلقوا عليهم لقب أبناء التنّين. لأنّ كلمة آجتاهاك بلساننا تعني التنّين.

تقول هٰذه الأغاني:

أَوْلَمَ آركافان وليمةَ لآرداشيس
كانت فخًّا صَلّاه له في قاعة التنانين.

ويقولون:

لم يجد آردافازت
ابن البطل آرداشيس،
مكانًا صغيرًا في آرداشاد
ليبني عليه قصرًا
فمضىٰ إلىٰ بلاد ماري
وشيد فيها ماراكيرد.

* هو بطلميوس كلافديوس: فلكيّ ورياضيّ وجغرافيّ يونانيّ مشهور، عاش في القرن الثاني الميلادي في الإسكندرية، ووضع أول خارطة لقسمٍ من الكرة الأرضية يقع بين خطّي العرض ٢٠ ـ ٦٥ وأطلق عليه اسم الأرض المجهولة.

** كيموروون: كلمة يونانية تعني الأرض المتجمّدة.

وهي المدينة المقامة علىٰ السهل المسمّى بٱسم شارورا.

يقولون أيضًا:

رغبت السيدة ساتينيك
في أن تدس الرَّيْحان والعطريّة
تحت وسادة حبيبها آركافان.

تُرىٰ، هل يعجبك ما أوضحناه لك من الغامض من الحكايات الصحيحة، التي تتحدّث عن أبناء التنّين والذين ما زالوا يقطنون قمة آزاد التي ترتفع فوق ماسيس*؟

٣١

عن ذرية ديكران والأقوام التي تفرعت منه

مثلما أُحبّ ـ أنا الراوي ـ أن أروي لك كلّ شيء عن الحقائق الواردة في الحكايا التي تتحدّث عن ديكران الأول وأعماله وعن الأقوال التي تشير إلىٰ ديكران يرفانتيان، كذلك أتمنّىٰ أن أراك مهتمًّا بقراءة أحوال ذلك الرجل وأعماله وما نسج من حكايات حوله. وهٰذا يدعوني إلىٰ أن أُسمي هايك وآرام وديكران بالشجعان، لأنّ الشجعان يخلّفون شجعانًا مهما تعدّدت أسماؤهم، وليُسَمِّهم غيري بما يشاء، فالأمر واحد. فكما أنه لا يوجد إلّا آرامازد واحدٌ معروفٌ في علم الأجناس، قد أُطلق علىٰ عدة أشخاص، لا نُقِرّ إلّا بديكران

* آزاد و ماسيس، قِمّتان تعلوان جبل آراراد.

وحيد بين الهايكازيين، هو الذي قتل آجتاهاك، وأخذ آل بيته ـ مع زوجته آنوش الملقّبة بأم التنانين ـ أسرىٰ إلىٰ كوروس. ولقد تبعته آنوش راضيةً وبملء إرادتها وآختيارها، بل ساعدته في الآستيلاء علىٰ مملكتي ماري وفارس.

أبناء آنوش هم: باب وديران وفاهاكن، وهو الأخير، الذي تتحدّث عنه أساطيرنا بما يلي:

مخاض في السماء ومخاض علىٰ الأرض،
مخاض في البحر المشمشيّ،
لقد هاج المخاض في البحر
وهاج في القصب الأحمر.
من أنبوبة القصب يخرج دخان،
من أنبوبة القصب يصعد لهب،
ومن الأنبوبة يخرج فتىٰ
راكضًا.
فتى جميلٌ يركض
له شعرٌ ناريّ
له لحيةٌ نارية
وعينان تحسبهما تشعّان.

وهٰذه الأساطير سمعناها تُنشَد بمصاحبة القيثارات. وسمعناهم يقولون في هٰذه الأغنيات إنه [أي ديكران] تقاتل مع التنانين وغلبهم. وسمعناهم يتغنّون ببطولاتٍ شبيهة ببطولات هرقل ينسبونها إليه فيقولون إنه جعل نفسه إلهاً، ورفع علىٰ أرض الجورجيين صنمًا أمرهم بأن يعبدوه ويقدّموا له الذبائح والقرابين.

من ذريّته: الفاهونيون. ومن آبنه الأصغر جاء الآرافينيانيون، نسبةً إلىٰ

ٱسمه آرافان. وله ٱبنٌ يُدعىٰ نرسيه، وٱبن يدعىٰ زارح جاءت منه الأقوام التي تُعرف بٱسم الزاريحين. أول أبنائه آرموك، وٱبن هٰذا باكام، وٱبن باكام واهان، وٱبن واهان واهي. ولقد مات هٰذا الأخير في أثناء حربه مع الإسكندر المقدوني قتله بيده.

هٰذا، ولا أملك شيئًا أكيدًا أحكيه لك، منذ ذلك الحين حتىٰ قيام مملكة فاغارشاك علىٰ أرمينية، نظرًا لوجود ٱختلافات وٱشتباهات. لأنّ كثيرًا منهم كانوا يتهافتون الواحد بعد الآخر، علىٰ حكم بلادنا. وهٰذا ما سهّل علىٰ آرشاك الكبير دخول أرمينية وتنصيب أخيه فاغارشاك ملكًا علىٰ بلاد الأرمن.

٣٢

عن أن الحرب اليغياوية قد حصلت في زمن ديفداموس وان زارماير كان مع عدد جد قليل من جنود يتوفيا وانه مات هناك

لقد سبّب لنا، ما فرضتَهُ علينا من الاَختصار والسرعة، حرجًا شديدًا وضيقًا، في توخّي الدقّة والوضوح، بعيدًا عن الخيال قريبًا ممّا يتنافىٰ مع الكذب، علىٰ غرار أقوال أفلاطون، لنحكي لك التاريخ بدءًا من الآدميّ الأول وصولًا إليك. لكن هٰذا لا يمكن أن يتمّ في لحظة، لأنّ الذي خَلَق الكون والقادر علىٰ أن يقول لكلّ شيء: كُنْ، فيكون في لمح البصر، لم يفعل ذلك، بل خصّص أيامًا للتنسيق بين المخلوقات. فخلق بعضها في اليوم الأول، وبعضها في اليوم الثاني، وبعضها في اليوم الثالث وما بعدها. وبالروح القُدُس أوحىٰ إلينا عن كيفية المحافظة علىٰ صورة التنسيق هٰذه.

أمّا أمرك بأن نكتب لك كلّ شيء دفعةً واحدة، فيعني تجاوز القدرة

الإلٰهية، وهٰذا لا يجوز ولا يتّسر لنا التحرّي عن الحقيقة، بل يدفعنا إلىٰ الخطأ ونسج الخيال بصورٍ متناقضة لا فائدة منها سوىٰ إرضاء فضولك، ثم إنّ الاَختصار المكثّف يجعلنا نهمل قصة المقدوني وحرب اليغياويين التي سنضطر إلىٰ حشرها هنا حشرًا، يضعنا في مأزقٍ حرج يجعلنا لا نفرّق بين النسيج الحكيم وبين التخبُّط خبطَ عشواء، ولا نعرف إن كنّا نسير في الطريق الصحيح أو الخاطئ. لذا، رأينا أن نتوخّىٰ كتابة المهمّ من تاريخنا، مأخوذًا من المصادر التي يمكن الاَعتماد عليها.

اَنطلاقًا من هنا، لا نرىٰ روايةً تستحقّ أن تتصدّر الحديث غير رواية هوميروس عن الحرب اليغياوية، في زمن ديفداموس ملك آشور وزارماير الذي كان تابعًا للآشوريين، وخرج مع نفرٍ قليل من الجند اليتوفياويين لمحاربة اليونان، فجرح بيد أبطالهم ومات. وكم كنت أتمنّىٰ أن يكون قد قُتل بيد آكيلا لا بيد غيره من الأبطال.

انتهى الكتاب الأول

عن تاريخ السلف الأول

٣٣

روايات من الأساطير الفارسية
عن بوراسبي آجتاهاك

لكن، ما الذي ترمي إليه من وراء الآستماع إلىٰ أسطورة بوراسبي آجتاهاك الحقيرة الفاجرة؟ ولماذا تُجهِدنا في سرد أقوال الفرس، التي تفتقر إلىٰ المنطق والأسلوب الحسن، البعيدة عن الصدق والحقّ، وتدّعي فعل الخير في أمرٍ لا خير فيه، يخدمه الجنّ، والخطأ والكذب ديدنه، يفرض تقبيل الكتف آحترامًا رخيصًا ويصدّق ولادة التنانين. حتىٰ إذا آنتشر الشرّ بين الناس، وصاروا يتقاتلون في سبيل بطونهم، أوصلنا إلىٰ أسطورة مَن يُدعىٰ ''هاروت'' بحبالٍ من النحاس، وآقتياده إلىٰ جبل يدعىٰ تمبافنت. في الطريق نام هاروت، فجّره بوراسبي جرًّا، إلىٰ القمّة، وأيقظه هناك، وقيّده في مكانٍ خلاء. ووقف أمامه كتمثال، آرتعدت له فرائصه وصار طيّعًا للسلاسل، وبقي هناك حيث حُرِم من القدرة علىٰ أذيّة الناس.

ما هٰذه الهواية عندك التي تدعوك إلىٰ الآستماع إلىٰ هٰذه الأساطير السخيفة؟ وما حاجتك إلىٰ الأقوال الغبية غير المفيدة؟ ألا تكفيك الأساطير اليونانية الشائقة الجميلة التي تُضمر تحتها حقائق ملموسة؟ أنتَ، بأمرك هٰذا، تفرض علينا أن نُعطي معنىً لما لا معنىً له، وأن نُزيِّن ما لا زينة له. وهٰذا يجعلني أكرّر سؤالي عن غرضك من وراء هٰذا كله؟ ما هي المتعة التي تجنيها من وراء إجهادنا في تزويق القبيح غير المزوّق؟ ومع ذلك، وتقديرًا لعمرك الغضّ غير الناضج، سأُلبّي طلبك وأحقّق رغبتك.

٣٤

إلقاء الضوء
علىٰ مقدار الصدق في قصة بوراسبي

يقول أفلاطون: «*يتخلّىٰ المحبّ عن أنانيّته في سبيل من يحبّ*». وها نحن أولاء، بحبّنا لك، نتخلّىٰ عن أنانيّتنا، ونعمل علىٰ تنفيذ رغبتك هٰذه مع كلّ رغباتك السابقة، وسوف ننمّق الأقوال والأحاديث التي نكرهها ونشمئزّ من ذكرها، فأكتبُها اليوم بيدي واضعًا عقلًا لغبائها، مصوّرًا الأُسطوريين القدامىٰ من الناس لعلّي أُدخِل إلىٰ نفسك السرور والانشراح. ومن يدري، فقد أجد فيها فائدة. لكن اعلم بأنّ كرهي لها يجعلني أُحجم عن تخصيص مكانٍ لها في الكتاب الأول وفي الكتاب الأخير، لأنها لا تستحقّ مثل هٰذا المكان، وسأكتفي بسردها وحدها فيما يلي:

> *لم تنتشر اللغات في العالم اعتباطًا من دون توجيه، بل توزّعت بترتيبٍ إلٰهي علىٰ الأقوام الرئيسية في العالم التي ورثت حدودًا رسمتْها بالحسنىٰ أو بالقوة.*
>
> *لقد جئتُ بهٰذه المقدمة لأبيّن أنّ بوراسبي آجتاهاك إنما هو ''كيدوروس بوريتا''، جدّ الفرس الذي عاصر نمرود، والذي سُرّتْ علىٰ اسمه مسجّلًا في سجلٍّ كلدانيّ. لقد حكم قومه بالحنكة والمسايرة لا بالقوة، وكان خاضعًا لنمرود. من مبادئه أن يعيش الناس عيشةً راضية، مشتركةً لا يملك أحدٌ في الدنيا شيئًا يختصّ به، وكان في أفكاره هٰذه واضحًا جليًّا لا غموض فيه. ما في قلبه يسيل علىٰ لسانه. حتى إنه سمح لمن يشاء من أصدقائه بالدخول عليه متىٰ شاؤوا، في الليل أو في النهار، وهٰذا ما أسميه بالخير غير الخيِّر.*

كان عالمًا في التنجيم، وهٰذا العلم جرّه إلىٰ تعلُّم أساليب الشرّ كلّها. لكنّ ذلك لم يكن متيسّرًا له، لأنه ـ كما بينّا آنفًا ـ لم يكن يفعل شيئًا في الخفاء، ولقد ضيّعت عليه هٰذه العادة كثيرًا من أساليب الشرّ، لذلك عمد إلىٰ وسيلةٍ رهيبة، إذ آدّعىٰ بمرض شديد في بطنه لا يُداويه إلّا شخصٌ واحد سمّاه، فظيعٌ، ما سمع به أحدٌ إلّا أصابه منه أذى. وكان هٰذا الشخص يحمل روحًا خبيثة تحضّ علىٰ الشرّ، تأتيه في السرّ والعلانية، تهمس في أذنه في البيت وفي المحافل من دون أن تُرى، تَبُثّ في رأس بوراسبي كلّ أساليب الشرّ حتىٰ تعلّمها. يقولون عنه في الأسطورة إنّ الشيطان كان في خدمته منذ طفولته ينفذ له كلّ رغباته، لذلك طلب منه تقبيل كتفه ليستمدّ منه هٰذه القوة.

أمّا ما يحكونه عنه، من آستنبات التنانين أو من تحوّل بوراسبي إلىٰ تنّين، فيقولون: إنه كان يُضحّي بالناس بكثرةٍ للجنّ، ممّا أثار الناس فقرّروا القضاء عليه، ففرّ إلىٰ الجبل المذكور خوفًا من النقمة التي آشتدّت عليه، خصوصًا بعدما انفضّ عنه أصدقاؤه الذين كانوا في خدمته. ولما تأكّد الناقمون عليه من خلاصهم منه آرتاحوا في ذلك المكان عدّة أيام. لكن بوراسبي الشرير تمكّن من آجتذاب أعوانه من جديد وآنقضّ علىٰ أعدائه وأوقع فيهم أضرارًا بالغة. لكنهم لم يتخاذلوا بل كرّوا عليه بقوة أجبرته علىٰ الفرار مرّةً أخرىٰ. لكنهم لم يتركوه، بل طاردوه حتىٰ لحقوا به، وقتلوه قرب الجبل، وألقوا بجثّته في هاويةٍ سحيقة تصدر رائحةً نتنة*.

* المذكور هو: جبل تيمافند من سلسلة جبال البورسي شمال بلاد فارس، آرتفاعه ٥٥٠٠ متر، في قِمّته فوهةٌ بركانية تنشر روائح نتنة. فيه مياه معدنية كبريتية.

الكتاب الثاني

تاريخ السلف الأوسط

[من عهد الإسكندر المقدوني ٣٣٦ ق.م.
حتى عهد القديس الملك درتاد ٣٣٠ م.]

١

[تملُّك المقدونيين بلاد الشرق]

أبدأُ كتابي الثاني، بالكتابة عن الأعمال والأحداث التي جرت في بلادنا وحدها، أسردها لك بالترتيب منذ عهد الإسكندر حتىٰ عهد الرجل البطل والقديس الملك درتاد. فأروي لك ما جرىٰ من أعمالٍ بطولية ورجولة وحكمة وعدالة، اعتبارًا من آرشاك الفارسيّ وأخيه فاغارشاك، الذي نصّبه أخوه ملكًا علىٰ بلادنا، فسُمّيت الأسرة من الملوك الذين جاؤوا بعده من ذرّيته وتوارثوا المُلك عنه أبًا عن جدّ، بـ"الأسرة الآرشاكونية" نسبةً إلىٰ آرشاك. تكاثروا وتفرّعوا، وفي النهاية شكّلوا عشيرةً كبيرة. لكنني لن أدخل في التفاصيل هنا، بل سأختصر الحديث وأقفله عند ما قد يفيدنا في التعرُّف علىٰ الأمم الأخرىٰ.

بعدما فتح الإسكندر المقدوني الشرق كلّه، وقبل موته، أوصىٰ بأن توزّع كلّ البلاد المفتوحة علىٰ رجاله الكُثْر من بعده تحت اسم "المقدونيين". وهٰكذا صارت بابل من نصيب سلوقس، الذي لم يكتفِ بها بل استولىٰ علىٰ ممالك أخرىٰ بعد حروبٍ مدّمرة، وأخضع مملكة بارتيف لسلطته، لُقّب علىٰ أثر ذلك بلقب "تيكاتوف"، أي المنتصر. وبعد حكم دام إحدىٰ وثلاثين سنة، تنازل عن المُلك لابنه آنديوك الذي كان يُعرف باسم سودر، وحكم هٰذا تسعة عشر عامًا، خَلَفَه من بعده ابنه آنديوكوس الذي لُقّب بـ"تيفوس"، وحكم عشر سنوات. في السنة الحادية عشرة ثار البارتيفيون، وطردوا المقدونيين وتخلّصوا من التبعية المقدونية، وتولّىٰ حكم بلادهم الملك آرشاك البطل، الذي كان من ذرية إبراهيم

من زوجته قطورة*، المؤكّد بكلام الربّ إلىٰ إبراهيم: «*ملوك منك يخرجون*» و «*ملوك شعوب منها يكونون*»**.

٢

تملُّك آرشاك وأولاده
والحرب ضدّ المقدونيين والرومانيين

ذكرنا آنفًا، أنّ آرشاك البطل، تولّىٰ حكم البارتيفيين بعد ستين سنةً من موت الإسكندر، وآستقرّ في مدينة تُدعىٰ بعل آرافود في بلاد الكوشان. وبعد حروبٍ عنيفة تمكّن من الآستيلاء علىٰ الشرق كلّه، وحرّر بابل من حكم المقدونيين. ولما سمع أنّ الرومان قد قَوِيت شوكتهم، وسيطروا علىٰ كلّ الغرب والبحر، وآغتصبوا مناجم الذهب والفضة من الإسبان، وكان مشغولًا في حربٍ مع الكالاديين ومملكة الآسيويين، والتي آنتهت بنصره عليهم وإخضاعهم لدفع الخراج، لم يشأ أن يستثير الرومان وحاول تحاشي الآصطدام بهم، فأرسل إليهم وفودًا لعقد معاهدةِ عدم آعتداء معهم، وتعهّد لهم بإعفائهم من الخراج والآكتفاء بهديةٍ سنوية يرسلونها إليه مقدارُها مائة قطعةٍ ذهبية.

بعد إحدىٰ وثلاثين سنة من الحكم، خَلَفَه آبنه آرداشيس الذي حكم ستًّا وعشرين سنةً، تلاه آبنه آرشاك الملقّب بالكبير، لأنه تصدّىٰ لديمتري وآبنه آنديوكوس حين داهماه بجيشٍ من المقدونيّين في بابل، فصدّهما، وأَسر ديمتري

* قطورة: زوجة النبي إبراهيم الشرعية. أمّا أبناء الجواري، فإنّ إبراهيم أعطاهم عطايا وصرفهم وأبعدهم عن إسحق إلىٰ الشرق وهو حيّ. راجع سفر التكوين ٢٥: ١ـ٧ من الكتاب المقدّس.

** «*ملوك منك يخرجون*»: تكوين ١٧، ٧. «*ملوكُ شعوب منها تكونون*»: تكوين ١٧، ١٦.

وكبّله بالسلاسل، وأرسله إلىٰ بلاد بارتيف، وبسبب ذلك لُقِّب بالرجل الحديديّ. وعندما علم سيتياس شقيق آنديوكوس بأسر أخيه، اْغتنم فرصة غياب آرشاك واْستولىٰ علىٰ بلاد آشور. لكنّ آرشاك كرّ عليه بجيشٍ يتألّف من اْثنتي عشرة عشرة آلاف في فصل الشتاء، الذي لم يحتمله آنديوكوس، واْضطرّ إلىٰ الاْنسحاب إلىٰ الأماكن الوعرة، التي صارت سببًا في ضياعه وضياع جيشه. وبذلك سيطر آرشاك علىٰ الجزء الثالث من العالم، الذي يصفه هيرودوتس في الكتاب الثالث من تاريخه، فيقول: إنّ الدنيا مقسّمةٌ ثلاثةَ أقسام: يسمّىٰ الأول منها أوروبا، والثاني ليبيا، والثالث آسيا وهو الذي سيطر آرشاك عليه.

٣

تنصيب فاغارشاك ملكا على بلاد الأرمن

بعد ذلك، نصّب [آرشاك] أخاه فاغارشاك ملكًا علىٰ بلاد الأرمن، فثبّت هٰذا حدوده في الشمال والغرب. ولمّا كان رجلًا شجاعًا ومحنّكًا ـ كما بيّنّا آنفًا في كتابنا الأول ـ فقد حكم مملكته باْستقلاليةٍ تامّة، وأَدخل عليها إصلاحاتٍ حيوية، وشكّل وزاراتٍ عيّن عليها وزراء من عِلْية الناس، كلُّهم من ذُريّة جَدّنا الأكبر هايك، وقليلٌ من سُلالاتٍ أخرىٰ.

بعدما كَبح جماح المقدونيين، وتوقّفت الحرب، اْلتفت بطل بارتيف إلىٰ الإصلاح الداخلي، فأنعم علىٰ سمباد باكاراد، اليهوديّ، برتبة إمارة علىٰ الأرشاكونيين تكون وراثيةً لأولاده من بعده، تعويضًا له عما لحقه من ضررٍ بسببه. وهكذا سُمِّي القوم الذين نسلوا منه باكارادونيين باْسمه، وهم الآن عشيرةٌ كبيرة في بلدنا. لأنّ باكاراد الأول هٰذا قد وهب نفسه طوعيًّا لفاغارشاك

قبل اندلاع الحرب مع المقدونيين، عندما كان حاجبًا على باب المملكة. أمّا في جهة الغرب من بلادنا، حيث ينتهي اللسان الأرمني، فقد عيّنه حاكمًا عليها نائبًا عنه على رأس آلاف الآلاف.

لنعد الآن ومن جديد، إلى حرب فاغارشاك مع البونديين والبروسيين والانتصار عليهم.

٤

كيف حوّل فاغارشاك ابطال الأرمن إلى جنود وهاجم المقدونيين وحلفاءهم

بعدما انتصر فاغارشاك على المقدونيين في الحرب، واستولى على بابل والجهات الشرقية والغربية من البلاد المفتوحة من أرض آشور، شكّل جيشًا عظيمًا، من رجالٍ أشدّاء مشهورين من أزربايجان وأرمينية، ومن رجال باكاراد المذكور آنفًا الذين يعملون تحت إمرته، ومن شبّانِ ساحل البحر* من ذُرّية كيغام والكنعانيين ومن ذرّية شار وكوشار وأقربائهم السيساكيين والقاتميين مع المقرّبين إليهم، بمعدل نصف سكان العالم. فاخترق بلادنا، ووصل إلى نبع مور الأعلى، وعَسْكَرَ عند ضفّة نهر يراسخ الكبير فوق تلّ آرمافير، واستغرق ذلك منه أيامًا عدّة، لأنهم غير مؤهّلين بالخبرة العسكرية المنظّمة.

بعدما استراح مع هذا الحشد الكبير المتجمّع من كلّ الجهات، سار به من المعسكر حتى وصل إلى حدود خاغديا، لإخضاع أهل غازيكا وبندوس وبروكيا وماجاك، الذين لم يسمعوا بعد بحروب آرشاك واستمرّوا على ولائهم

* يقصد شبان محيط سيفان في أرمينية.

بكلّ إخلاص للمقدونيين*. وبدأ مَن يُدعىٰ موربوفيكس يجمع جيشًا من هٰذه الأمم بعد توحيدها لمحاربة آرشاك. واَقترب الجمعان من تلٍّ صخريّ مرتفع، وعسكرا عدّة أيّام استعدادًا للمعركة.

٥

حرب موربوفيكس
ومقتله بطعنة رمح

بعد أيام من الاَستعداد وتحصين المواقع، بدأت الحرب بهجومٍ مفاجئ من طلائع جيش موربوفيكس الاَستكشافية يقودها بنفسه، لأنه كانَ شجاعًا وذا أطرافٍ طويلة تناسب قوةَ جسمه الخارقة، شنّه وهو مُدرَّعٌ بالنحاس والحديد ومحاطٌ بأشجع محاربيه، وشقّ طريقه يُجندل الشجعان من جيش فاغارشاك، يريد الوصول إلىٰ ملك الأرمن الذي كان له بالمرصاد مع فرقةٍ كبيرة مسلّحة من جُنده. فلمّا اَقترب منه رماه برمحه من بعيد بما عُرِف عنه من دقةٍ في إصابة الهدف، لكنّه لم يُوَفّق وأخطأه في هٰذه المرّة، فاَنهالت عليه الرماح من أبطال ذرية هايك وسينكريم الآشوري، وأُصيب بنبلةٍ طعنته وقتلته. وهجم جيش الأرمن علىٰ الأعداء، الذين لاذوا بالفرار، والأرمن من ورائهم يُعمِلون فيهم السيف، فتسيل دماؤهم مثل نهرٍ بلّل الأرض كلّها وصبغها باللون الأحمر.

* أسماء المدن: خاغديا أو خالديا: تقع جنوب طرابزون ويسكنها شعب الخلط، وتسمّى بونتس أيضًا. غازيكا، أو لزيكا: موطن شعب اللاز عند شاطئ الجنوب الشرقيّ من البحر الأسود، يقع قسمٌ منه الآن في تركيا ويتبع القسم الآخر لباطومي. ماجاك: هي مدينة قيصرية في مقاطعة كاباتوفكا ـ بروكيا، تقع في الغرب منها.

وبعدما تمّ الاَستيلاء علىٰ تلك البلاد بقيادة فاغارشاك، ساد السلام المنطقة، وتخلّصت نهائيًا من المقدونيين.

٦

فاغارشاك يُجري إصلاحات في جيش الشمال وجيش الغرب في بلادنا

بعدما خرج فاغارشاك من الحرب منتصرًا، بادر إلىٰ إصلاح البلاد، مبتدئًا من نواحي ماجاك التي يقطنها البونديون واليكيريون أي الجركس، ثم توجّه إلىٰ الشمال عبر شعاب جبال بارخار من خلال دايك، إلىٰ أمكنةٍ كثيفة الغابات، كثيفة الضباب، كثيرة الرطوبة، غنيةٍ بأشجار الحور. فأصلحها بتنسيقٍ بديع يجمع بين مناخ المناطق الجبلية ومناخ المناطق الحارّة، وشيّد فيها مساكن له ولحاشيته عند اَنتقاله إليها لقضاء فصل الصيف. واَستفاد من مُنبسَطٍ من الأرض بين غابتين، حوّله إلىٰ مكانٍ مأهول بالسكان، ورتّب الغابتين المجاورتين لتصبحا صالحتين لرياضة الصيد. وأمر بغرس الكروم لتخفيف حرارة المكان، وأكثر من إنشاء البساتين. أنا لا أريد الإسهاب في كتابة كلّ شيء عن هٰذا الرجل العظيم، الذي أُكنّ له كلّ الحبّ والاَحترام، لأنني ركّزت علىٰ ذكر الأماكن صحيحةً دون الاَهتمام بالأسلوب، حفاظًا علىٰ آصرة الحبّ التي لا أريدها أن تنفصم.

بعدما تمّ له ذلك، نقل قومًا غوغائيين وافدين، كانوا يعيشون في الشمال عند سفوح جبال القفقاس، إلىٰ تلك الأغوار والأودية التي اَتّخذت شكلًا متطاولًا ينحدر من الجهة الجنوبية ليصل إلىٰ فم السهل الكبير، وأَسكَنهم فيها، وأمرهم بالتخلّي عن اللصوصية وإرهاب الناس، وحثّهم علىٰ الاَنصياع للأوامر

الملكية وقوانينها، حتىٰ إذا ما وجد عندهم المبادرة الحسنة والطاعة، عيّن منهم قادةً وأمراء في مراتب عالية، وتركهم بعدما وظّف عليهم رجالًا حكماء لتأهيلهم وتوجيههم، وسرّح الجيش العظيم الذي جمعه من الغرب، ونزل هو مع أهله إلىٰ الأماكن الخصبة علىٰ حدود شار وأقام فيها، فسُمّيت بآسم إخوته وذرّيتهم، وما زالت تُعرف بهٰذا الآسم حتىٰ الآن.

عندما حلّ البرد في الشمال وبدأ الصقيع يتشكّل، آنتقل إلىٰ السهل الكبير بعدما ترك جيشًا عند منبع مور الذي ينطلق ليُشكّل نهر ميدزامور الكبير، جيشًا يسهر علىٰ الأمن، وعيّن ولاةً علىٰ المناطق يديرون شؤون البلاد، وآستقرّ هو مع الأعيان من أتباعه في ميدزبين.

٧

كيف شكّل الوزارات ونظّم العيش بعد تاسيس الملكية

يتضمّن هٰذا الفصل الطويل حكاياتٍ صحيحةً تستحقّ أن تُروىٰ مرارًا وتكرارا بالتفصيل، نظرًا لما فيها من معلوماتٍ كثيرة عن البيوتات والأمم والمدائن والقرى والمزارع، وما يتعلّق منها بتنظيم المملكة، خصوصًا ما يرتبط منها بالجيوش والقادة وولاة المناطق، إلىٰ غير ذلك من الأمور.

أول ما بدأ به هو تنظيم نفسه وبيته، ولا عَجب في ذلك، لأنه رأىٰ أنّ رأسه وتاجه يستحقّان التنظيم. ثمّ آلتفت إلىٰ من عاونوه، فأَنعم علىٰ من يُدعىٰ باكاراد ذي الأصل اليهودي، لقاءَ تفانيه منذ البداية في خدمته وشجاعته ووفائه، بأن منحه السلطة الإدارية علىٰ أسرة باكارادوني وعلىٰ المكان الذي

تقيم فيه، ومنحه شرف وضع التاج على رأس الملك ولقّبه بلقب "واضع التاج"، وسمح له بوضع ثلاثة أدوار من الجواهر على رأسه لربط شعره، على أن لا يكون ذلك من الذهب أو من الأحجار الكريمة. كما شرّفه بحمل لقب فارس، ولا يحمل هٰذه الزينة إلّا عندما يكون في قصر الملك.

وعَيّن من يُدعىٰ تسيريسين من الكنعانيين وصيفًا له لتلبيسه ثيابه، وأَطلق عليه ٱسم كنطوني، ولا أعرف لماذا. كما عَيّن علىٰ حراسته شبّانًا من هايكازخور من أمهر الرماة والسيّافين، ووضع علىٰ رئاستهم رجلًا كريمًا جريئًا يُدعىٰ ماغ خاغ، وترك لهم ٱسمهم النبيل السابق، بينما عيّن طادي، من أبناء كارنيك ومن ذرية كيغام، علىٰ رياضة الصيد الملكية. ولما رُزق بولد وسمّاه فارج، قَرن ٱسمه باسم تلك العشيرة النبيلة. وكان ذلك في عهد الملك آرداشيس. كذلك عيّن مَن يُدعىٰ كاراغ لسياسة قطعان الخيول، وعيّن آبيل مشرفًا علىٰ طعام النبلاء والقادة والمقرّبين. وأَنعم عليهم كلّهم بضياعٍ سُمّيت بأسمائهم، وأَطلق ٱسمَي قابيل وهابيل علىٰ عشيرتين نبيلتين.

ليس ٱسم آردزروني صحيحًا، بل هو آردزيفوني، (لأنّ آردزيف يعني النَّسر)، وهمْ كانوا يعتنون بالنسور الملكية المروّضة للصيد، علىٰ غرار الكينونيين نسبةً إلىٰ كيني (أي الخمر)، وكانوا يُحضّرون الخمر للملك ويُقدّمونه له. ويُذكر أن هاتين الأسرتين هما من ذرية سينيكريم. هناك أسطورةٌ تُروىٰ في هاتاماكيرد تقول بأنّ المطر والشمس يَحْرِمان الطفل من النوم، وأنّ العصفور هو الذي يرعىٰ الطفل إذا ما أُغمي عليه. وبما أنني لم أقتنع بصحّة هٰذه الأسطورة، لذا فإني لن أخوض في الحديث عنها.

ولا أظنّ الأمر يختلف في تسمية السبانتيين حَمَلة السلاح، ومع الهافيين مربّي صقور الصيد وصائديها الذين يعيشون في الغابات، كذلك التسونيين الذين ٱنتسب ٱسمهم إلىٰ كلمة تسون (أي الثلج)، وكانوا يتولّون شؤون

المصائف وتدبير الثلج، ولقد أُدرج ٱسمهم مع النبلاء لأنهم كانوا في الأصل من أُسَرٍ نبيلة.

وعَيّن علىٰ أبواب المملكة الأربعة، أربع فرق من الجيش للحراسة تتألّف كلّ فرقةٍ من عشرة آلاف رجلٍ مسلّحٍ من سُلالة الملوك الأقدمين الأصليين، من ذُرية هايك الأول، الذين يُسمَّوْن بٱسم المنطقة التي ينتمون إليها، لهم الحقّ في أن يَرِثوا من الأرمن. لكنني سمعت بأنّ هٰذه الفرق قد تغيّرت في أيّام ملوك الفرس المتأخّرين، وشُكّلت فرق أخرىٰ بدلًا منها من أمةٍ أخرىٰ حملت الٱسم النبيل فوسدان. ولم أعلم لماذا جرىٰ هٰذا التغيير، هل بسبب ٱندثار الشعب الأول، أو لسببٍ معيّن أدّىٰ إلىٰ إبعاد ذلك الشعب وإحلال شعبٍ آخر بدلًا منه، يتميّز بنسبٍ رفيع من سُلالة الملوك، كما هي الحال الآن في بلاد الكُرْج، حيث يُطلق علىٰ هٰذه الفئة من الناس ٱسم ميبيدزول، أي أبناء الملوك. أخيرًا أَمَّر فاغارشاك عددًا من الخصيان من أولئك القوم، وعيّن عليهم رئيسًا لُقِّب بلقب هاير*، الذي ٱمتدّ سلطانه شيئًا فشيئًا حتىٰ شمل أزربايجان وجواش وناخيجيفان. لكن لم يَعرف أحدٌ مطلقًا أين وكيف بدأت حركته؟

* هاير: كلمة بمعنىٰ أب، وهي لقبٌ يطلق علىٰ رئيس الخصيان، الذين تنحصر مهمّتهم في خدمة الحريم وإدارة أمور المزارع وغيرها من الأملاك.

٨

تعيين نائب للملك
من أبناء آجتاهاك الماريّ

بعد تنظيم بيت الملك، أَحدث فاغارشاك مرتبةَ نائبٍ للملك عيّن عليها واحدًا من ذُرية آجتاهاك ملك ماري، الذين يحملون الآن لقب موراتسيانيين ـ نسبةً إلىٰ جدّهم المُلقب بربّ موراتسيان، وليس ربّ ماريّ ـ وولّاه علىٰ كلّ المناطق والأرجاء التي كان يسكنها الأسرىٰ الماريّون. كذلك عيّن، علىٰ أقصىٰ الحدود الناطقة باللغة الأرمنية، فرقتين تتألّف كلٌ منهما من عشرة آلاف مقاتلٍ من نسل العشائر الأولىٰ، من السياكيين والكاتموسيين الذين ذكرناهم في أحد الفصول السابقة.

بعد ذلك عَيّن، علىٰ الحدود الشمالية الشرقية، ''آران''، الرجل الحكيم المحنّك المبرّز في الأعمال الفكرية والأمور الهامّة، ورئيس عشرات الآلاف من الناس المعروفين بشهرتهم وشجاعتهم، وولّاه علىٰ السهل الكبير الذي يجري فيه نهر كور الكبير. لكن اَعلم بأننا نسينا أن نذكر في كتابنا الأول اَسم عشيرةٍ كبيرة تنتمي إلىٰ سيساك، ورثت سهل آغوان والمنطقة الجبلية التي تُكمل هٰذا السهل مع نهر يراتسخ حتىٰ الحصن المسمّىٰ هناراكيرد. ولقد سُمّيت بلاد آغوان بالبلاد الحلوة بسبب طبيعتها. هٰذا، ولقد عيّن آران قائد حرس من نسل سيساك يتألّف من عشرات الآلاف، كلّهم كانوا ـ علىٰ ما يُقال ـ جدود القوم الذين يُسمَّون بقوم أوديا وقارتمانا ودزافيتا وقارقرا.

ومنح كوجار من أبناء شار جبل ''ميتين'' (أي نصف كانتارك وجافاخك وكوغك ودزور وتسور إلىٰ حصن هناراكيرد) ميراثًا. أمّا إمارة آشوتسا وإمارة

داشيرك، فعيّن عليهما هايكازون من أبناء كوجار. وترك عند الشمال المواجه لجبل القفقاس حاميةً من عشيرةٍ قوية، كثيرة العدد، مشهورةٍ، من قوم كوكار من نسل تارح* ملك مهرتاد الذي كان الآسكندر قد عيّنه حاكمًا علىٰ العبيد من عشيرة ايفيريا الذين آستعبدهم بالأسر نَبُوخَذْنَصّر، كما يروي آبوتينوس** فيقول: «*كان نَبُوخَذْنَصّر صاحب جيشٍ جرّار أقوىٰ من هرقل، وصل بجيشه الجرّار إلىٰ ليبيا وايفيريا، وأخضعهما لسيادته، وقاد عددًا كبيرًا من سكانها، وأسكنهم في الجهة اليمنىٰ من بحر بندوس*». هٰذا، ولقد أسّس في الغور المسمّىٰ باسين ولاية بآسم فورتوني من نسل هايك.

أمّا الرجل القبيح العملاق الضخم، أفطس الأنف، ذو المظهر المزري آبن باسكام من أحفاد هايك المدعو دورك، والملقّب بسبب قبحه آنكيغا، فقد عيّنه علىٰ الغرب نظرًا لقوته وطول قامته، وأطلق لقبه علىٰ عشيرته فسمّيت ببيت آنكيغ. هناك أكاذيبُ وحكاياتٌ أسطوريةٌ عنه، فإذا أنت أردت أستطيع أن أنسج لك من خيالي علىٰ منوالها، مثلما يَختلِقُ الفرس رواياتٍ عن رستم ساكجيك، فيدّعون بأنه يملك قوة مائةٍ وعشرين فيلًا. ونَظَموا الأشعار عن قوته الخارقة هٰذه، ونسبوا إليه أعمالًا غير معقولة وغير منطقية دَرَجَتْ علىٰ شكل أناشيد وحكايات تجاوزت أساطير شمشون وهرقل وساكجيك***.

* تارح: آخر ملك من أسرة آكيمين، تغلّب عليه أحد خلفاء الإسكندر المقدوني، وآحتلّ كلّ بلاد فارس عام ٣٣٣ قبل الميلاد.

** يدّعي آبوتينوس أنّ إيفيريا تقع بين جبل طارق وجبال البيرنيه [**ناشر الطبعة العربية**: ما يُعرف اليوم بشبه جزيرة إيبريا، التي تضمّ: إسبانيا والبرتغال]، وأنّ نَبُوخَذْنَصّر أخذ أسرىٰ من أهلها، وأسكنهم في شرق البحر الأسود، وأطلق علىٰ مكانهم آسم ايفيريا، وهي جزء من بلاد الكُرْج (جورجيا).

*** رستم ساكجيك: سُمّي بهذا الآسم نسبةً إلىٰ مقاطعة سجستان الواقعة في أقصىٰ شرقيّ بلاد فارس.

تقول [إحدىٰ هٰذه الحكايات] أنه ـ أي "دورك" القبيح ـ كان يضرب الصخر الجلمود مهما كبر حجمه، بيده فيفلقه. ويحفر الخشب بأظافره فينقش عليه رسومًا مختلفة للطيور والحيوانات.

وتقول بأن سفنًا مُعادية اقتربت من شواطئ بحر بندوس، فهجم عليها وأبعدها مسافة ثماني عقدٍ داخل البحر، ولمّا لم يعد يتمكّن من الوصول إليها بدأ يقتلع صخورًا مكوّرةً من البحر ويقذفها بها، حتىٰ هاج البحر وأغرق معظم السفن المُغِيرة ولاذ الباقي بالفرار.

لا شكّ في أنّ هٰذه الأساطير مبالغٌ فيها، ومع ذلك فإنّ قوة الرجل أخصبت خيال الناس فضخّموها. ماذا نفعل؟

بعد ذلك، أنشأ إقطاعية دزوبا في الهايك الرابع كما تدّعي الأساطير، وأنشأ إقطاعية مانافاز ويزنون من ذرية هايك أيضًا. واختار الأبرز والأوجه من الناس، ومنحهم مزارع وقرىٰ سمّاها بأسمهم.

بقي الرجل الرهيب، المدعو سلاك، الذي لا أملك قولَ شيءٍ مؤكّد عنه، ولا أجزم فيما إذا كان من ذرية هايك أو أنه من القبائل القديمة التي سبقت وقطنت بلادنا، وحكت عنهم الروايات. مهما يكن أصله، فهو لا ينفي أنه كان رجلًا شجاعًا، لذلك عيّنه مع قليلٍ من الناس المقيمين في الجبل للحراسة وصيد الوعول، وعُرفوا بأسم السالكونيين. وعلىٰ هٰذا المنوال، ولمثل هٰذه الأعمال، عيّن ميانتاك الخالد الذي ينتمي إليه المانتاكيون.

وتقدّم إليه أناسٌ من أبناء فاهاكن، وتوسّلوا إليه أن يقبلهم متطوّعين لخدمة المعابد، فاحترم رغبتهم وأوكل إليهم أمر إقامة الشعائر الدينية وخدمة المعابد وصنّفهم ضمن إقطاعيّي المرتبة الأولىٰ وسمّاهم الفاهونيين. كذلك فعل مع الآرافينيان والزاربهانيين، وأسكنهم في مناطق سُمّيت بأسمائهم.

وعيّن فاغارشاك المدعو شاناشان من بيت ساناسار نائبًا مساعدًا له في الجنوب الغربي قرب حدود آشور علىٰ ضفة نهر دجلة، ومنحه أرض آرتسن وما يحيط بها، مع سفوح جبلَي طوروس وسيم وٱمتداده حتىٰ كليصور*. وأجبر المدعو موكاتسي، ومن معه من قطّاع الطّرق، علىٰ الإقامة في المنطقة المُسمّاة بٱسمهم والٱمتناع عن الإضرار بالناس. وفعل الأمر نفسه مع الكورتفاتسيين والٱنتسيفاتسيين والأكياتسيين وثبّتهم في مناطقهم المسمّاة بأسمائهم. ولا ننسَ الرشدونيين والكوغتيين الذين تدّعي الروايات أنهم فخذٌ من بيت سيساك. علىٰ أنني لا أعرف إن كانت المناطق قد سُمّيت باسم قاطنيها، أو أنّ القاطنين قد سُمُّوا بٱسم مناطقهم.

بعد كلّ هٰذا، أنشأ في آرمافير معبدًا وأقام فيه أصنامًا تُمثّل الشمس والقمر وتماثيلَ لأجداده. وٱقترح فاغارشاك علىٰ باكاراد، ٱبن اليهودي شامباط حامل التاج وقائد الجيش، باللين تارةً وبالشدّة أحيانًا، أن يتخلّىٰ عن اليهودية ويعود إلىٰ عبادة الأصنام. ولمّا لم يرضَ، تركه علىٰ حريته بعدما رآه من تمسُّكه بدينه.

هٰذا، وأَمر بترميم مدينة سميراميس، وبناء مدنٍ وقرىٰ في المناطق الآهلة بالسكان.

ثم وضعَ أنظمةً للقصر، وعيّن ساعاتٍ للدخول إليه والخروج منه، ولأوقات الطعام والراحة. وصنّف العسكريين في مراتبَ أولىٰ وثانية وثالثة وأدنىٰ من ذلك. وعيّن كاتبين مستشارين، يُشير أحدهما إلىٰ الخير ويُذَكّر الثاني بالٱنتقام، وأوعز إلىٰ مشير الخير بأن لا يتوانىٰ عن تذكير الملك بالعدل،

* كليصور: منطقة تقع بين جبال لبنان الشرقية وجباله الغربية.

وبالحِلْم عند الغضب، وردّه عن الأمر غير العادل. وعيّن في دار الملك قضاة، وفي المَناطق المختلفة مثلهم، وميّز أهل المدن علىٰ أهل القرىٰ، ففرض علىٰ القرويين أن يقدّموا الطاعة والاَحترام لأهل المدن، وبالمقابل أوعز إلىٰ الحكّام بمنع أهل المدن من التسلّط علىٰ أهل القرىٰ والشطط في معاملتهم، التي يجب أن تتحلّىٰ بالرفق والأُخوّة، من أجل حياةٍ لا يسود فيها الظلم والحسد، ففي هٰذا عَمارٌ وأساس للحياة المنتظمة المطمئنّة، وغيرها من النظم الإصلاحيّة الكثيرة الأخرىٰ.

وبسبب كَثرة عِيالِه، رأىٰ من الأَنسب أن لا يعيش الجميع معه في ميدزبين، لذا أرسل قسمًا منهم ليعيشوا في هاشدين والسهول المحيطة بها خارج دارون، وترك لهم كلّ ما يملكه فيها من قرىٰ، إضافةً إلىٰ أموالٍ خصّصها لهم من المملكة لتُنفَق علىٰ الطعام وغيره. علىٰ أنه اَستبقىٰ ولده البكر آرشاك إلىٰ جانبه ليكون وليّ العهد من بعده، كما اَستبقىٰ اَبنه المحبوب آرداشيس، نظرًا لِما يتمتع به من ذكاءٍ وفطنة وقوة بدنية، فيتوقّع له من يَراه مستقبلًا زاهرًا حافلًا بالبطولة والمجد. واَستمرّ علىٰ هٰذا المنوال حتىٰ صار ما أنجزه نظامًا ملكيًّا رائعًا اَتّبعه خلفاؤه من بعده. كما أصدر أمرًا يقضي بجَعْلِ الملكيّة وراثيّةً يتوارثها الاَبن عن أبيه. أما باقي أفراد الأسرة من الصبيان والبنات فيرحلون إلىٰ هاشدين كبعض أفراد الأمة.

ومات فاغارشاك في ميدزبينَ بعد هٰذه الإصلاحات الناظمة الخارقة، بعد اَثنتين وعشرين سنةً من الحكم الملكيّ.

٩

حول ملكنا آرشاك الأول وأعماله

تَمَلّكَ آرشاك بن فاغارشاك بلاد الأرمن ثلاثَ عشرةَ سنةً، سار خلالها علىٰ سيرة أبيه وتحارب مع البونديين، وترك علامةً عند شاطئ البحر الكبير. يقولون إنه غرس سنّ رمحه الملطّخ بدماء الهاربين، في جُلمود صخرٍ، جعله نُصُبًا له تذكاريًّا عند شاطئ البحر، ظلّ البونديون يتباركون به زمنًا طويلًا، يَحُجّون إليه علىٰ إنه من صنع الله، لكنّ البونديين أَلْقَوا بهذا النُصْب في البحر، بعد اْنتصارهم في الحرب الثانية مع آرداشيس.

في زمنه، حصلت اْضطراباتٌ في حزام جبل القفقاس في أرض البلغار، أجبرت كثيرًا من سكّانها علىٰ الهرب واللجوء إلىٰ بلادنا، والإقامة في كوغ حيث الخيرُ الكثير والخبز الوفير.

فاْمتعض منهم أبناء باكاراد، لأنهم اْمتنعوا عن عبادة الأصنام وأصرّوا علىٰ البقاء علىٰ دينهم، ووقعت صداماتٌ بينهم أدّت إلىٰ مقتل اْثنين من نسل حنانيا وعزريا*، ممّا اْضطرهم إلىٰ قبول شروط الوثنيين، التي تقضي بأن يركبوا في أيّام السبت، ويذهبوا إلىٰ الصيد أو الحرب، وأن يُخفّفوا من عادة خِتان الصبيان. ولمّا لم يكن عند هؤلاء نساء، لذا أوعز آرشاك إلىٰ سكّان المقاطعات المجاورة بعدم إعطائهم نساءً للزواج إذا لم يُقلِعوا تمامًا عن عادة الختان. فقبلوا بهذين الشرطين ولكنّهم رفضوا السجود للأصنام.

هنا تنتهي حكاياتُ العجوز مار عباس كادينا.

* أسماء أخذت من الكتاب المقدّس، دانيال ١، ٦ وقصتهم مع نَبوخَذنَصّر.

١٠

المصادر التي حصل على التاريخ منها
بعد كتاب مارعباس كادينا وحكاياته

تبدأُ المصادر بالتحدّث عن المجلد الخامس من كتاب الزمن لآبريكوس*، الذي أكّده هوفسيبيوس وهوبوكيدا** وغيرهم من المؤرّخين اليونان. لأنّ كاتبه قد نقل كامل الكتابات الموجودة في ديوان أورها، والتي تحكي عن ملوكنا في القيصرية، والتي كانت قد نُقلت من ميدزبين ومن سينوب الواقعة علىٰ شاطئ بحر بندوس***، وفيها رواياتٍ عن المهانيين لا أشكّ في صدقها، لأنني رأيت الديوان بأمّ عيني، وليكن شاهدًا علينا كتاب الكنيسة لـ هوفسيب كيساراتسي الذي أمره بترجمته إلىٰ اللغة الأرمنية معلّمنا السعيد ماشدوتس، ولقد قضىٰ وقتًا في البحث عن هٰذا الكتاب في منطقتي بحيرة سيفان وسوني. وسنجد في الفصل الثالث عشر منه، أي من المجلد الأول، ما يشهد بأنّ كلّ أعمال ملوكنا الأوائل، حتى آبكار بل بعد آبكار، موجودةٌ في ديوان القيصرية. وأظن أنه ما زال محفوظًا في تلك المدينة.

* مؤرّخ يوناني عاش في القرن الثالث الميلادي، من مواليد مدينة ماموس في فلسطين، كان كاهنًا يقيم في الإسكندرية، وهو أول من أدخل تحليل الزمن في التاريخ.

** هوبوكيدا: كاهن عاش في القرن الثالث الميلادي في روما. نُفي إلىٰ سردينيا عام ٢٣٣م وكتب عدة كتب في التاريخ.

*** سينوب مدينة وميناء علىٰ الشاطئ الجنوبيّ للبحر الأسود في ولاية قسطموني التركية.

١١

حول آرداشيس الأول وانتزاع السلطة

حكم آرداشيس، بدلًا من أبيه آرشاك، ملكًا على الأرمن، على مدى أربع وعشرين سنةً شَراكةً مع الملك الفارسيّ آرشاكان. ولمّا كان طموحًا لا يطيق أن يكون في المركز الثاني في المملكة، ويرغب في الحصول على المركز الأول، لذا عرض الأمر على آرشاكان ووافق ذاك وترك له المركز الأول. ولم يكتفِ بذلك، بل جعله ملكًا على بلاد الفرس وجعل ٱبنه ديكران ملكًا على الأرمن. فبنى لنفسه قصرًا في فارس وأمر بسكّ نقودٍ تحمل ٱسمه ورسمه.

وطلب إلى ٱبنه ديكران أن يَكفل فتىً ٱسمه "فاراج بن دد" من أبناء كارنيك من نسل كيغام. ونظرًا لِما يتمتّع به الفتى من مهارةٍ في رمي الرمح، طلب من ديكران أن يزيد في تدريبه وتعيينه ناظرًا على الصيد الملكيّ، ومنحِهِ ضياعًا قرب نهر هرازدان. ففعل وسمّى القوم الذين يعيشون هناك الفاراجيين بٱسمه. وأعطى ٱبنته آرداشاما زوجةً لملكٍ فارسيّ يُدعى مهرتاد* من ذريّة مهرتاد بن تارح، من الأوائل الذين كان الٱسكندر قد عيّنه على الإيفيريين مثلما حكينا من قبل. وأوكل إليه أمرَ حُكم الجبال الشمالية وبحر بندوس.

* هو مهرتاد السادس، ويلقّب بمهرتاد الكبير. ولد عام ١٣٢ قبل الميلاد، وحكم شواطئ بحر الأسود، وٱنتحر عام ٦٢ قبل الميلاد. قضى خمسين عاماً من عمره في الحرب ضدّ المقدونيين مكلّلًا بالنصر عليهم، فلمّا خسر المعركة أخيرًا، ثار عليه جنده، فٱنتحر.

١٢

زحف آرداشيس نحو الغرب
واسر كريسوس
وتحطيم الأصنام وتسليمها إلى الأرمن

في تلك الأثناء، أصدر آرداشيس أمرًا يقضي بتجميع قوةٍ كبيرة من محاربين من الشرق والشمال. ولكي يتمكّن من حصر عددهم، أمر بأن يضع كلّ محاربٍ حجرًا في مكانٍ معيّن على الطريق تُركَم وتتجمّع أكوامًا يَسهُل عدُّها. بعد ذلك أمر بالزحف نحو الغرب لمحاربة اليونان. وحاربهم وأسر ملكهم كريسوس.

وهناك في آسيا وجد تماثيلَ لـ آرديميت وهرقل وآبولون مصنوعةً من الفضة الملبّس بالذهب. فأمر بتحطيم قواعدها، وحملها إلى بلادنا لكي تُنصب في آرمافير. لكنّ الكهنة الفاهوميين لم ينصبوا في آرمافير سوى تمثالي آبولون وآرديميت، وحملوا تمثال هرقل لينصبوه في قريتهم آشديشاد في دارون مستغلّين انشغال الناس بموت آرداشيس لأنهم اعتبروه في مقام فاهاكن القديم. هذا وكان التمثال من صنع سكوليس والكريتيّ تيبينوس*.

بعدما سيطر آرداشيس على البرّ الواقع بين البحرين، ملأ المحيط بالسفن طامعًا في إخضاع كلّ الغرب لسلطته، يَحْفِزه إلى ذلك انشغال حكّام روما بالقلاقل الكبيرة التي حصلت فيها، فلم يُعيروا لتقدّمه اهتماما. لكنني لا

* سكوليس و تيبينوس: نحّاتان يونانيّان من القرن السادس قبل الميلاد في قبرص، لهما تلاميذ. وقد تركا عددًا كبيرًا من التماثيل.

أستطيع أن أُبيِّن سبب حدوث تلك الاَضطرابات وسبب الحرب الأهلية في المملكة العظيمة. كلّ ما أستطيع قوله هو أن آرداشيس قد عاد من حملته هاربًا، ومات بعد خمسةٍ وعشرين عامًا من الحكم الملكيّ.

ومن بلاد اللاتا* أيضًا، غَنِمَ آرداشيس تماثيل كثيرةً لـ ديوس وآرديميت وآثيناس وهيبيسدوس وأفروديت، وأرسلها إلىٰ أرمينية، لكنّ الذين حملوها طمعوا، وأرادوا أخذها إلىٰ حصن آني، بعدما سمعوا بموته، فتبعهم الكهنة وعادوا بها إلىٰ البلاد.

١٣

شواهد أخرى على استيلاء آرداشيس على العالم وعلى أسر كريسوس

لقد ذَكَر هٰذه الواقعة كثيرٌ من المؤرخين، ولم يقتصر الأمر علىٰ واحدٍ أو آثنين، لذلك، ولحسم الشكّ في نفسي، قمنا ببحثٍ طويل عن الأمر. فسمعنا عدّة رواياتٍ تقول بأن كوروس قتل كريسوس وآستولىٰ علىٰ عرش لاتا. ويحكون عن خلافٍ وقع بين كريسوس ونكتانيروس.

ويزعم مانينوس أنّ نكتانيروس هٰذا هو آخرُ ملكٍ يونانيّ علىٰ المصريين وأنه أبو الإسكندر الكبير. بعد البحث وجدنا أنّ كريسوس قد عاش قبل نكتانيروس بمائتي عام، وأنّ نكتانيروس عاش قبل وجود ملك الأرمن آرداشيس الأول.

* اللاتا، والمقصود بها بلاد اليونان باللغة الرومية.

لكننا اَقتنعنا بوجهة النظر هٰذه مجبرين، لأن كثيرًا من المؤرّخين أكّدوا حصولها، ولأنّ أحدهم ـ ويُدعىٰ بوليكراديس ـ أفاد قائلاً:

لقد رأيت بعيني كيف أنّ آرداشيس كان أقوىٰ من الإسكندر المقدوني، لأنّه سيطر، إبّان وجوده في الدنيا، علىٰ تيبي وعلىٰ بابل. وما كاد يجتاز نهر اللوس حتىٰ بطش بجيش اللاتا وأسر كريسوس، إلا أنه مات قبل أن يصل عند عودته إلىٰ آسيا في قلعة يديكي. يا لسوء حظه! ماذا لو أنه مات علىٰ عرش مُلكِه، لا في طريق هربه وعودته؟

مِثله يقول يفاكاروس:

تبدو حروب الإسكندر وتارح تافهةً بالنسبة لحروب آرداشيس، لأنّ نور النهار كان يحتجب في زمن الإسكندر نتيجةً لكثافة الغُبار المتصاعد فتنعدم الرؤية، أمّا في زمن آرداشيس فإنّ الرؤية كانت تنعدم وتحتجب الشمس وراء السهام المنطلقة التي كانت تجعل من الظهيرة ليلًا مظلمًا. إنه لم يترك فرصةً لهارب يوصل الخبر إلىٰ اللاتيّين، إلىٰ أن بسط سلطته، وأسر ملكهم كريسوس، وأجبره علىٰ الركوع أمامه. ثمّ إنّ مياه النهر الغزيرة لم تمنعه من اَجتيازه، لأنّ أفواه الجنود العطاش قد أنزلت منسوبَهُ الشتويّ من المياه فاَجتازه بسهولة. وهٰذا يعني أنّ الأرقام وقفت عاجزةً عن إحصاء عدد جنده. لأنهم كانوا أكثر عددًا من أرقام الحساب. علىٰ أنه لم يستمتع بذلك المجد، بل بكىٰ عليه قائلاً: "يا حسرتي علىٰ المجد الضائع!".*

ويكتب سكامادروس ما يلي:

لقد أضاع كريسوس مُلْكَهُ حين أخطأ في تفسير قول

* [أي: اليونانيين]

العرّافات: "تضيع دولٌ إذا اجتاز كريسوس نهر اللوس". ظنّ كريسوس، حين استطلَعَهنّ، أنّ المقصود هو غيره، ولم يخطر بباله أنّ آرداشيس البارتيفي سيأسره ويُجبره علىٰ النوم علىٰ سطح من حديد. عندها تذكّر كريسوس أقوال الحكيم الأثيني سولون فناجاه: "يا سولون! يا سولون! لقد صَدَقْتَ في حَكمتك بأنّ الحظّ لا يواكب المرء إلىٰ آخر العمر!".

فنقل من سمع قوله إلىٰ آرداشيس، وهم يظنّون أنه يُناجي إلهاً جديدا. فأشفق عليه وأمر بإحضاره إليه. ولمّا سأله وعرف منه الحقيقة عفا عنه، وأمر بعدم إيذائه.

كذلك كتب بليكونيوس:

كان آرداشيس البارتيفي أقوىٰ من كلّ الملوك. لأنه لم يكتفِ بإخضاع اللاتيّين وأسر كريسوس، بل بدّل المعالم الطبيعية لبحر اليونان وتراقيا. إذ شقّ في البرّ طريقًا بحريةً، واجتاز البحر ماشيًا كأنّه علىٰ البرّ، وراح يُهدّد التيداليين، فبهر بذلك اليونان. قضىٰ علىٰ اللاكيتيمونيين، وهزم البوكيين، واستسلم له اللوف والبوديون، أي دانت له اليونان كلّها بعدما ذاقوا منه الويل. لكنّ سيّئاته تجاوزت كلّ الحدود. إذ لم يُلاقِ كوروس في حربه مع السكوتيين كلّ هٰذا العناء وما عانىٰ تارح وهو يهرب أمام السكوتيين، ولا كامبوسيس في بلاد الحبشة، ولا يعتبر هجوم كسيريس علىٰ اليونان بجيشه العظيم نصرًا، ولمّا خسر، ترك أمواله ومعابده، وهرب ناجيًا بجلده. لٰكنه مُنِيَ هو أيضًا بالهزيمة بعد هٰذه الانتصارات والأمجاد.

أرىٰ أنّ هٰذه الحكايات جديرةٌ بالتصديق، وإن كانت تجعل كريسوس المذكور في عمر كوروس أو نكتانورس، لأنّ ذٰلك يعود إلىٰ الراوي، فإمّا أنْ يكون كاذبًا، وإمّا أنْ يكون هناك شخصٌ آخر يحمل الاسم نفسه كما جرت العادة عند الملوك قديمًا.

١٤

حول تملك ديكران الأوسط
وحربه مع اليونان
ورفع المعابد ورحلته إلى فلسطين

في السنة التاسعة عشرة من حُكْم الملك الفارسيّ آرشاكان، تولّىٰ ديكران المُلك بعد أبيه آرداشيس، وبادر من فوره إلىٰ جمع القوّات الأرمنية، وسار بها لمواجهة القوّات اليونانية، التي كانت تطارد فلول آرداشيس المنهزمة في طريقها إلىٰ بلادنا، فتصدّىٰ لهم ديكران، وأوقف تقدّمهم وردّهم علىٰ أعقابهم، ثمّ أوكل إلىٰ زوج أخته مهرتاد إدارة نواحي ماجاك ومناطق العالم الأوسط، وترك قوةً عظيمة تحت تصرّفه، وعاد إلىٰ أرضنا.

بعد عودته أراد أن يستفتح أعماله ببناء المعابد، علىٰ أن تُرفع التماثيل التي أُحضرت من اليونان في أعماق أرمينية، مُعتمدًا علىٰ نبوءةٍ تَدّعي بأنها ـ أي التماثيل ـ أرادت ذلك، فرفع تمثال ديوس الأولمبي في آني، وآثيناسين في تيل، والتمثال الثاني لآرديميت في يريزا، وهبيسديس في باكاباياريج. وبما أنّ آفروديت كانت محبوبةَ هرقل، لذا أمر برفع تمثالها بجانب تمثال هرقل، الذي أنتزعه من القوم الفاهونيين، الذين سرقوه ونَصَبوه في ممتلكاتهم خلافًا لما أئتمنهم عليه أبوه. وكان عِقابه لهم أن جرّدهم من حقّ الكهنوتية، وصادر القرية التي نَصَبوا التمثال فيها.

بعدما تأكّد من بناء المعابد والمذابح أمامها، أمر ولاة الأقاليم بالسجود وتقديم القرابين لها. ولمّا رفضت عشيرة البكارادونيين، قطع لسان زعيمهم المدعوّ آسوت، وعفا عن الباقين الذين وافقوا علىٰ أكل لحوم الذبائح الملكية

حتّىٰ الخنازير منها مضطرين، علىٰ أن لا يقدّموا هم الذبائح، أو يسجدوا للأصنام. متنازلين عن إمارة الجيش، مُكتفين بشرفِ حمل التاج. بعد ذلك زحف إلىٰ بلاد الرافدين، حتىٰ وَجد تمثالًا لبارتامينا مصنوعًا من العاج المطعّم بالياقوت والفضة، وأمر بنقله إلىٰ نواحي طورطان ونصبه فيها.

من هناك توجّه إلىٰ فلسطين، لينتقم من كليوباترا البطلمية، علىٰ ما فعله آبنها ديونيس من ذنبٍ تجاه أبيه. فأسر كثيرًا من اليهود وحاصر مدينة البطالسة*.

لٰكنّ ملكة اليهود ألكساندريا، أو مسالينا زوجة آسكندر بن يوحنّا آبن أخ يهودا ماكابي شمعون، تصدّت له وأرغمته علىٰ الرجوع من حيث جاء، وعاد بعدما علم أنّ رجلًا آسمه فايكون قد آجتاح أرمينية مستوليًا علىٰ جبالها المنيعة، التي بقيت حتّىٰ الآن تُسمّىٰ بآسم ذٰلك الشقيّ فايكونيك، ولم ينفع ديران المالُ الكثير الذي غَنِمه من هٰذه الرحلة.

١٥

هجوم قائد الرومان علينا واستيلاؤه على ماجاك بعد موت مهرتاد

حتّىٰ ذلك الوقت، كان القائد الرومانيّ بومبيوس قد جَهّز جيشًا، زحف به إلىٰ نواحي المتوسّط، مُكلّفًا رئيس أركانه سكافروس بالتوجّه إلىٰ آشور ومحاربة ديكران، لكنّ هٰذا لم يُصادِف ديكران، الذي كان قد عاد إلىٰ بلاده بسبب الآضطرابات التي أثارها ذلك الشقيّ فايكون. بعد ذلك زحف بآتّجاه دمشق،

* يُعتقد أنها المدينة التي تسمىٰ "عكا" حاليًا.

فوجد فيها ميديغ وغوغ يعيثان فسادًا، فبطش بهما وتابع زحفه نحو بلاد اليهود، وفتح آريستابوغ بمساعدة أخيه الأكبر رئيس الكهنة هوركانوس آبن الإسكندر.

أمّا بومبيوس، فقد تحارب مع مهرتاد، ولاقىٰ مواجهةً عنيفة وقتالًا مريرًا ومُنِي بخسائر فادحة. لكنّ الكَثْرة غلبت مهرتاد، فلاذَ بالفرار إلىٰ نواحي بندوس. فلمّا رأىٰ بومبيوس أنه تخلّص بصورةٍ غير متوقعةٍ من مهرتاد، تركه، وأسر آبنه، وآستولىٰ علىٰ ماجاك، وترك فيها حاميةً، وسارع إلىٰ بلاد اليهود عبر آشور. وبمكيدةٍ ـ رَسَم خُطّتها أبوه بيلادوس البندوسي ـ دسّ لمهرتاد السُّم في الطعام وقتله. يشهد علىٰ ذلك هوسيبيوس في الفصل المتعلّق ببالاسان من كتابه، فيقول: «*عند آقترابه من يريكوفي وصلتْ إلىٰ بومبيوس بشارةُ موت مهرتاد*».

١٦

هجوم ديكران على الجيوش الرومانيّة وانتصاره على كابيانوس وتحرير مهرتاد الابن

بعدما أَسكن ديكران أسرىٰ اليهود في آرمافير، وضواحي فارتكيس علىٰ ضفاف نهر كاساخ، قضىٰ علىٰ أشقياء الجبال، وأَعلن الجِداد علىٰ مهرتاد، ثمّ تحرّك بجيشه بآتّجاه آشور للانتقام من جيوش الرومان، فخرج كابيانوس ـ قائدُ الحامية الرومانية الذي تركه بومبيوس هناك عند عودته إلىٰ روما ـ لمواجهته، لكنه خاف من قوة ديكران، فأخلىٰ له الساحة قرب الفرات، وآنسحب إلىٰ مصر بعدما عقد صُلحًا سرِّيًّا مع ديكران، وألقىٰ باللوم لهذه الهزيمة علىٰ

بطلميوس، كما أُطلق سراح مهرتاد الآبن، الذي كان قد أسره بومبيوس في ماجاك، مدّعيًا أنه هرب من الأسْر سِرّا.

١٧

حرب كريسوس
ومقتله على يد ديكران

راود الشكّ زعماء الرومان، فعزلوا كابيانوس وعيّنوا كريسوس بدلًا منه.

عندما وصل [كريسوس] آستولىٰ علىٰ كثيرٍ من الكنوز الموجودة في هيكل الربّ في أورشليم، ثمّ زحف نحو ديكران. ووقعت المعركة بينه وبين ديكران وراء الفرات، قُتل فيها معظم أفراد جنده، وقُتل هو أيضًا بيد ديكران. فحمل ديكران الكنز المسروق، وعاد به إلىٰ أرمينية.

١٨

كيف واجه كاسيوس ديكران
وعصيان مهرتاد الصغير
وبناء قيصرية

غضب الروم، وأرسلوا كاسيوس علىٰ رأس عددٍ لا يُحصىٰ من الجند، ولكنّ جيش الأرمن تصدّىٰ لهم في الطريق، ولم يَسمح لهم بآجتياز الفرات ودخول آشور.

في هٰذا الوقت ساور الشكُّ قلب ديكران في مدىٰ صحّة قَرابة آبن خاله

مهرتاد الصغير، فلم يُولّه علىٰ أيّة ولايةٍ حتىٰ في بلاده، بلاد الكُرج. فحقد مهرتاد الصغير علىٰ خاله ديكران، وشقّ عصا الطاعة له، وٱلتجأ إلىٰ قيصر الروم، ونال منه الولاية علىٰ بيركا. وبأمرٍ من القيصر ساعد آنتيبادروس والدَ هيروفتيس، في بناء مدينة ماجاك، وزاد عليها مبانيَ كثيرةً ومنشآتٍ جميلةً، وأطلق عليها ٱسم "قيصريّة"، تخليدًا لٱسم قيصر.

وٱنحسر منذ ذلك الحين حُكمُ الأرمن عن هٰذه المدينة.

١٩

اتحاد ديكران وآرداشير وارسال جيش لمهاجمة فلسطين وأسر هوركانوس رئيس الكهنة مع كثير من اليهود

عند هٰذا الحد كان ديكران قد هدّه المرض، فعرض علىٰ آرداشير ـ ملك الفرس ـ إعادة الودّ الذي ٱنقطع بينهما عندما ٱنتزع ديكران الرئاسة من أبيه ملك الفرس، وعرض عليه أن يكتفي هو بحمل التاج الثاني، ويترك له الرئاسة حسب النظام المتّبع عندهم. قَبِلَ آرداشير العرض، ووافق علىٰ طلب ديكران برفده بجيشٍ للمساعدة. في الحال عيّن ديكران بارزابران قائدًا عامًّا لجيش الأرمن والفرس معًا، وهو كبير أسرة رشدوني. حين أمره بالزحف لمحاربة الروم، أمره بأن يَعقد صُلحًا مع الآشوريين والفلسطينيين ويُبرم معهم معاهدة سلام. في الطريق جاء إلىٰ بارزابران ـ كبيرِ الرشدونيين وقائد جيش الأرمن والفرس ـ رجلٌ يُدعىٰ باكاروس ٱبن ملك الآشوريين السابق، وصهر آنديوكوس من عشيرة آرسدابوغ، ووعده بأن يُقدِّم له خمسمائة فتاةٍ جميلة، وألف قطعةٍ ذهبية، إن هو ساعده علىٰ ٱنتزاع السلطة من يد اليهودي هوركانوس، وإعطائها لآنديوكوس صاحب الحقّ في المُلك.

عندما رأىٰ هوركانوس ملك اليهود ورئيسُ كهنتهم، ووزيره باسائيل أخو هيروفتيس، أنّ بارزابران قد هزم جيوش الروم، وألقىٰ بعضهم في البحر، وشتّت الآخرين في البلاد المختلفة، ووصل إليه، وعرض عليه الدخول في مفاوضاتِ سلام حملها إليه كينيل من عشيرة كنون آبن خازن مملكة الأرمن الأسبق، أدرك أنه يَعرض عليه السلام ظاهرًا ويبغي مساعدة آنديوكوس ضمنًا، لذا آثر قبول العرض، مشترِطًا عليه أن لا يدخل معه المدينةَ أكثرُ من خمسمائة فارسٍ. فنصح له المُوفد أن يذهب إلىٰ بارزابران شخصيًّا لمفاوضته وعرض شروطه. قَبِل هٰذا، ولكنه طلب أن يَحلِف له بارزابران، بأن لا يغدر به. فحلف له بارزابران أيمانًا بالشمس والقمر، وبكلّ ما يَعبدونه في السماء وعلىٰ الأرض وبشمس آرداشير وديكران. بعدما آطمأنّ هوركانوس إلىٰ يمين بارزابران وإلىٰ وعد كينيل بأن يدعمه ويكون إلىٰ جانبه، ترك هيروفتيس علىٰ أورشليم، وآصطحب معه أخاه الأصغر باسائيل، وجاء إلىٰ بارزابران عند شاطئ البحر في قرية يكديبون.

آستقبلهم بارزابران بآحترام ودهاء، ثم أَوعز إلىٰ جُنده بالقبض عليهم وتسليمهم إلىٰ آنديوكوس، فدفع الحقد آنديوكوس إلىٰ الآنقضاض علىٰ هوركانوس وقطع أذنيه بأسنانه، ليحول بينه وبين العودة إلىٰ رئاسة الكهنة فيما لو تغيّرت الظروف، لأنّ قانونهم ينصّ علىٰ أن يكون الكهنة سَليمي الأعضاء. حيالَ هٰذا المنظر أرادَ باسائيل أخو هيروفتيس الآنتحار فضرب رأسه بحجر وشجّه. فأَرسل إليه آنديوكوس طبيبًا لإسعافه، لكنه أَوعز أيضًا بذَرِّ السمّ علىٰ جرحهِ فقتله.

في الوقت نفسه، أمرَ بارزابران عامله كينيل بالقبض علىٰ هيروفتيس، فحاول كينيل آستدراجه إلىٰ خارج الأسوار، ولكنّ هيروفتيس كان واعيًا فلم يستجب له، ولم يأمن علىٰ نفسه من رجال آنديوكوس الذين دبَّ الخلاف

بينهم، فهرب سرًّا، تحت جنح الظلام مع أسرته، إلىٰ اليتوميّين من عشيرة آدوم، وترك أهله عندهم في حصن ماساتان، وغادر مسرعًا يبغي الوصول إلىٰ روما. بعد رحيله، دخل جيش الأرمن أورشليم بمساعدة آنديوكوس، دون أن يتعرّضوا لأحدٍ بأذىٰ، وآكتفوا بالآستيلاء علىٰ خزينة هوركانوس التي يبلغ ما فيها أكثر من ثلاثمائة قطعةٍ ذهبية. بعد ذلك هجموا علىٰ معاقلِ أتباع هوركانوس وهدموها، وآستولوا علىٰ مدينة ماريسا، ونَصّبوا آنديوكوس ملكًا عليها، ثم قادوا هوركانوس مقيّدًا مع باقي الأسرىٰ إلىٰ ديكران، الذي أمر بارزابران بأن يسكن اليهود القادمين من ماريسا في مدينة سميراميس.

ولم يعشْ ديكران بعد ذلك أكثر من ثلاثِ سنوات، ومات بعد حكم دام ثلاثًا وثلاثين سنة.

٢٠

حرب اخرى مع الروم
وانكسار سيلون وبنتيديوس

حين هرب هيروفتيس إلىٰ روما، ومَثَل أمام أنطونيوس قيصر ومجلس الشيوخ، وقدَّم ولاءه للرومان، نصّبه أنطونيوس ملكًا علىٰ بلاد اليهود، يساعده القائد بنتيديوس مع عددٍ كبير من جنود الرومان ليحارب الأرمن ويزيح آنديوكوس.

عندما وصلت الحملة إلىٰ أرض الآشوريين ٱلتقىٰ الجيوش الأرمنية وهزمها، وكلّف سيلون مطاردةَ الأرمن عند الفرات. وقتل باكاروس، ثمّ توجّه إلىٰ أورشليم لمواجهة آنديوكوس. لكنّ الأرمن تلقّوا نجدةً جديدةً من الفرس، وكرّوا علىٰ سيلون وهزموه، ولاحقوه حتى بنتيديوس، وهدروا دماءً لا حدَّ لها.

٢١

عن كيفية هجوم آنطونيوس شخصيًا على الأرمن
واستيلائه على مدينة شامشاد

غضب آنطونيوس، وجاء بجيشه الرومانيّ كلّه يقوده بنفسه. ولمّا وصل إلىٰ مدينة شامشاد سمع بموت ديكران فشجّعه هٰذا الخبر، وكلّف مُساعده سوفيوس التوجُّهَ إلىٰ أورشليم لنُصرة هيروفتيس، ومحاربة أتباع آنديوكوس.

أمّا هو فذهب إلىٰ المشتىٰ في مصر، يحثّ السير للوصول إليه، يدفعه الشوق إلىٰ رؤية كليوباترا ملكة المصريين. وكليوباترا هٰذه هي ٱبنة بطلميوس ديونيس، حفيدة كليوباترا البطلموسية وحبيبة هيروفتيس، وهٰذا ما جعله يرسل سوفسيوس لنجدة هيروفتيس. فحارب ببسالة، وٱستولىٰ علىٰ أورشليم، وقتل آنديوكوس، ونصّب هيروفتيس ملكًا علىٰ كلّ اليهودية وفلسطين.

٢٢

حول تملّك آردافازت
والحرب مع الرومان

اعتلىٰ آردافازت بن ديكران سُدّة المُلْكِ علىٰ الأرمن، وأسكن إخوته وأخواته في منطقتَي آغيوفد وآربيران، وترك لهم الضياع المَلكية في تلك البقاع ميراثًا بكلّ ما فيها من دخلٍ وغذاء، وفعل الأمر نفسه مع أقربائه في منطقة هاشد، وأَوصىٰ بأن تصان لَهم كرامة الأسرة الملكيّة وٱحترامها بحيث يَعْلُون

علىٰ الآرشاكونيين، لكنه أوصاهم في الوقت نفسه بأن لا يسكنوا في آيراراد المخصّصة للأسرة الملكيّة حصرًا.

هو لم يقم بأيّ عملٍ صالح، بل آستسلم للطعام والشراب واللهو قرب المستنقعات، ومزارع القصب والشُطآن الوعرة، هائمًا في صيد الحُمُر الوحشية والخنازير، غافلًا عن كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلىٰ العلم، والإعمار، والسيرة الحسنة. ولم يفعل، بعدما صار عبدًا لبطنه، سوىٰ أن وسَّع أماكن النفايات. وسار الجند علىٰ منواله، فبَطِروا وآستسلموا للكسل، ممّا سهّل لأنطونيوس أن يحتلّ بلاد الرافدين. عندئذ فقط تحرّك آردافازت بعدما تملّكه الغضب، وجمع جنودًا من أزربايجان وفارس بعشرات الآلاف ومن سكّان جبال القفقاس والأغوان، وسار بهم إلىٰ بلاد الرافدين، وقضىٰ علىٰ الجيوش الرومانية.

٢٣

آنطونيوس يأسر آردافازت

تحت تأثير كليوباترا، التي كانت تحقد علىٰ الأرمن، بسبب ما عاناه جدّها علىٰ يد ديكران، والتي لم يقتصر حقدها علىٰ الأرمن وحدهم، بل تعدّاهم إلىٰ كلّ الملوك طمعًا في الآستيلاء علىٰ ممالكهم، آلتهب آنطونيوس غيظًا ولم يتأخّر عن تنفيذ رغباتها، فقتل كثيرًا من الملوك، وقدّم لها ممالكهم هديّةَ حبّ، إضافةً إلىٰ كوروس وصيدون والنهر الحرّ مع سكّانها المقيمين فيها، وجمع منها جيشًا عظيمًا، وآنطلق لمحاربة آردافازت، فآجتاح بلاد الرافدين، وسار حتىٰ آلتقىٰ الجيوش الأرمنية، فشتّتها، وأَسر ملكهم آردافازت بن ديكران وساقه مقيّدًا إلىٰ مصر وقدّمه ـ مع غيره من الأشياء الثمينة ـ غنائمَ حربٍ هديةً إلىٰ كليوباترا.

٢٤

تملّك آرشام وتحوّل الأرمن لأول مرة إلى دافعي خراج للرومان
والإفراج عن هوركانوس
والضرر الذي لحق بأسرة باكارادوني بسببه

في اليوم الأخير من العشرين سنة التي قضاها آرشيز في الحكم، جمع جُنده وعيّن آرشام بن آرداشيس، شقيق ديكران ووالد آبكار، قائدًا عليهم، ولقّبه "مانوفا"، جريًا على عادة النبلاء في أن يحمل النبيل آسمين مثل: هيروفتيس آكريبياس وديدوس أنطونيوس وديدوس هوسدوس وغيرهم.

وفي العام نفسه مات آرشيز تاركًا العرش لآبنه الطفل، الذي لا حولَ له ولا قوة يعتمد عليها آرشام في حكم البلاد ومواجهة الروم، ولم يبقَ له إلّا أن يعقد معاهدة صلح وسلام مع الروم، كلّفته الإلتزام بدفع خراجٍ عن مناطق قيصرية وما بين النّهرين لهيروفتيس. وكانت تلك المعاهدة بداية تحوّل الأرمن إلى دافعي خراجٍ للروم.

وفيما كان آرشام مشغولًا بالصلح، أفرج ينانوس، ضابط الآتصال مع العرش، عن هوركانوس الذي كان قد أسره بارزابران في عهد ديكران، مدّعيًا أنّ هوركانوس وعد بدفع فديةٍ مقدارها مائة قطعةٍ ذهبية، يسلّمها بعد آستيفائها إلى الملك. فأسرع آرشام وأرسل مبعوثًا وراء هوركانوس لآستلام الفدية، ولكنّ المبعوث وصل متأخّرًا، لأن هيروفتيس كان قد قتل هوركانوس خوفًا من إثارة الفتنة عليه، وآنتزاع الحكم منه. فلمّا رأى آرشام أنّ هوركانوس قد ضاع وضاعت الفدية معه، غضب على ينانوس، وجرّده من حصانته وألقاه في السجن.

في ذلك الوقت جاء زوران رئيس عشيرة كنتون، وأفضى إلى الملك آرشام بسرٍّ يقول:

اعلمْ يا ملك الزمان، انّ ينانوس كان يخطّط للآنقلاب عليك، وشاورني في ذلك بعدما اخذ عهدًا من الملك هيروفتيس بأن يُعتّقنا ويعطينا ميراث ارضنا التي تعذبنا ولاقينا الأمرّين من اجلها، فلم اوافقه واعلمته باننا نخدع انفسنا بآنسياقنا وراء اقاويل فارغة، واساطير بائدة باننا فلسطينيون. ولمّا يئس منّي أرسل هوركانوس إلى هيروفتيس لهذا الغرض. وها قد خاب أمله بعد مقتل هوركانوس. لكنه لم يتخلَّ عن فكرته. لذا انصح لك، ايها الملك، أن تأخذ الحذر منه.

صدّق آرشام الوشاية، وأمر بإنزال أقسى أنواع التعذيب بينانوس. ورغبةً منه في أعطائه فرصةً أخيرة، خيَّره بين أن يترك الديانة اليهودية، وأن يسجد للشمس والأصنام الملكية، فيُعيد إليه حصانته وسلطاته القديمة، وبين أن يَصلبه على خشبة ويُبيد عشيرته. وكعيّنة من تهديده قتل أحدَ أقاربه ويُدعى ساريا، وآستحضر ولديه سباتيا وعازاريا ليلقيا المصير نفسه في المكان نفسه أمام عينيه. حيالَ رهبة الموت وعويل النسوة، لم يجد ينانوس مناصًا من الإذعان لأمر الملك أمام كلّ عشيرته. وأعاد له الملكُ حصانته، لكنه لم يُولِه كلّ ثقته، وآكتفى بتكليفه إدارةَ أمورِ أرمينية بعيدًا عن أرض الرافدين.

٢٥

الخلاف بين آرشام وهيروفتيس ورضوخه له

بعد ذلك دبَّ خلافٌ بين الملك هيروفتيس والملك آرشام على بلاد اليهود، إذ بعدما ثبت هيروفتيس سيطرته على حكم البلاد آلتفت إلى

الإصلاحات الداخلية، وراح يُشيّد المباني والمرافق العامّة في مختلف المدن، ٱبتداءً بروما وٱنتهاءً بدمشق، وفي سبيل ذلك طلب من آرشام، عددًا كبيراً من العمّال لتنظيف ساحات مدينة إنطاكية الآشورية من الطَّمْي والأوساخ التي سدّت المنافذ، وجعلت المرور فيها عسيرا. ولكنّ آرشام بادر، قبل أن يلجأ إلىٰ مواجهةٍ عسكرية مع هيروفتيس، إلىٰ إرسال وفدٍ إلىٰ روما يطلب من قيصر أن يرفع سلطة هيروفتيس عنه. لم يقبل قيصر، وبدلًا من الموافقة علىٰ طلبه، أَطلق يد هيروفتيس في كلّ البلاد الآشورية.

علىٰ الأثر، جمع هيروفتيس عشر فرقٍ من الكلدانيين ومن البونديين، وسيَّرهم إلىٰ بلاد الرافدين، وعيّن عليهم صهره الإسكندر بن ديمون ملكًا، وكان من سُلالة ملوك ماري من ناحية أمّه من ذُريّة تارح الفشداسبي. عندئذٍ لم يبقَ أمام آرشام ما يفعله سوىٰ الٱنصياع للأمر ومسايرة هيروفتيس في كلّ شيء، وأرسل إليه العمالَ المطلوبين، الذين قاموا تحت إشراف هيروفتيس برصف ساحات المدينة كلّها بالمرمر الأبيض علىٰ مساحةِ عشرين فداناً من الأرض، لكي تنزلق عليها مياه السيول والفيضان فلا تَضرّ بالمدينة.

ومات آرشام بعد عشرين عامًا من الحكم.

٢٦

تملّك آبكار
وتحول كلّ الأرمن إلى دافعي خراج للروم
محاربة جيش هيروفتيس ومقتل ابن عمّه جوزيف

تولّى آبكار بن آرشام المُلك، بعد عشرين سنةً من حكم آرشافير ملك الفرس. وكان آبكار هٰذا يُلقّب بـ"الرجل النبيل"، لدماثه خُلقه وحكمته وكبر

سنّه. فآختصر اليونان والآشوريون تلك الصفات بكلمةٍ واحدة هي "آبكار"، صارت ـ من بَعْد ـ آسمه.

في ذلك الوقت، كانت كلّ المناطق الأرمنية تدفع الأتاوة آستنادًا إلىٰ ما ورد في إنجيل لوقا: *«في تلك الأيام صدر أمرٌ من آغسطس قيصر بأن يكتتب كلّ المسكونة»*. بموجب هٰذا الأمر، توجّه الكتبة الروم إلىٰ أرمينية، وهم يحملون صورًا لقيصر علّقوها في كلّ المعابد. في هٰذا الوقت وُلِد مخلّصنا يسوع المسيح آبن الربّ.

أثار هٰذا التصرف ثائرة آبكار، ودبّ خلافٌ جديد بينه وبين هيروفتيس، خصوصًا بعدما أوعز الأخير بأن توضع صورته أيضًا في المعابد إلىٰ جانب صور القيصر. فكان ردّ فعل هيروفتيس أن بدأ يكيد له في كلّ مكان. إضافةً إلىٰ جيشٍ شكّله من التراقيين والألمان لغزو بلاد الفرس عن طريق بلاد آبكار. فآستنكر آبكار ذلك بقوله: *إنّ أمر قيصر يقضي بأن تزحف الجيوش إلىٰ فارس عبر الصحراء، لا عبر أرمينية*. فغضب هيروفتيس، لكنه لم يتمكّن من تأديب آبكار بنفسه، لعلّةٍ أصابته، جعلت الدود ينهش لحمه بلعنة من المسيح. لذا كلّف آبنَ أخيه جوزيف ـ الذي تزوّج بآبنته، وكانت من قبل زوجةً لأخيه بيرور ـ بقيادة الجيش الذي وصل إلىٰ أرض الرافدين، حيث كانت جيوش آبكار ترابط في حصن بوكنان، ودارت المعركة، وآنتهت بمقتل جوزيف وتشتّت جيشه.

ثمّ مات هيروفتيس، وعيّن القيصر علىٰ اليهودية آبنه آركيزابوس بدلًا منه.

٢٧

بناء مدينة يتيسيا
وتذكرة موجزة عن قوم لوسافوريج

بعد أيّام قليلةٍ مات أغسطس، وخَلَفَه ديبير على عرش الرومان بٱسم كيرمانيكوس قيصر، الذي أهان موفد آرشافير وآبكار لمناقشة الحرب التي قُتل فيها ٱبنُ شقيق هيروفتيس، ممّا أغضب آبكار وجعله يفكّر في الٱنتقام ويستعدّ للحرب. وبدأ يُحوّل المكان، الذي كانت تتحصّن فيه الجيوش الأرمنية المتمركزة عند ضفاف نهر الفرات، لمواجهة كاسيوس، إلى مدينة سمّاها يتيسيا، ونقل إليها من ميدزبين، قصره الملكيّ وكلّ تماثيله، نابوك، بيل، باتنيكاغ وطباطا، مع مكتبة مدرسة الكهنوت وديوان المملكة.

في هٰذه الأثناء مات آرشافير، وخَلَفَه على عرش الفرس ٱبنُه آرداشيس.

على الرغم من أنّ ما خطّطنا لروايته لا يتلاءم مع الزمن ولا مع سياق التاريخ، لكننا ٱضطررنا إلى ذلك، لأنّ ذريّة آرشافير كانوا سببًا في إيمان الأمة الأرمنية، إلى جانب صلة الدم والقرابة التي تربطنا بٱبنه آرداشيس. لذا سنبدأ بهم من قِبل البِر بعد ذكر آرداشيس، ليعلم القرّاء أنّ هٰذا البطل إنما هو من تلك العشيرة، ومن ثَمَّ نبيّن زمن قدوم آبائهم من الكارينيين والسورينيين إلى أرمينية، وأنهم أصول الأمة التي جاء منها القديس كريكور، جدُّ الكامساريين الذين سنتحدث عنهم حين يأتي الدور إلى الملك الذي ٱستقبلهم.

على أنّ خطة آبكار لم تنجح، بسبب ٱضطرابات داخليّة حصلت بين أفراد الأسرة المالكة، ممّا ٱضطرّه إلى تسخير الجيش، لإخماد الفتنة في مواقعهم وإرساء السلام بينهم.

٢٨

ذهاب آبكار إلى الشرق
وتثبيت آرداشيس ملكًا على الفرس
وإقناع اخوة آرداشيس الذين يتفرع منهم لوسافوريج واقرباؤه

ذهب آبكار إلىٰ الشرق، فوجد ٱبن آرداشيس وإخوته قد ثاروا عليه لأنه أراد أن يجعل الملكيّة وراثيةً في أبنائه دون غيرهم، فحاصرهم آرداشيس، وهدّدهم بالموت إن لم يقبلوا بما عزم عليه، فأحدث هٰذا ٱضطرابًا بين أفراد الأسرة المالكة، من أبناء آرشافير الذكور الثلاثة، آرداشيس الملك، وكارين، وسورين، والبنت كوشم زوجة القائد الآري الذي عيّنه أبوهم.

بعد المفاوضات أقنعهم آبكار بأن يحلّوا المسألة سلميًّا حسب الترتيب التالي: تبقىٰ الملكيّة وراثيّة في أسرة آرداشيس حسبما نوىٰ، علىٰ أن يُلقّب الآخرون بالبهلويين نسبةً إلىٰ المدينة التي يسكنونها في المنطقة الخصبة من البلاد، وأن يتمتّعوا بالعزّة والأولويّة وبكامل الحقوق الملكيّة، وأخذ آبكار عليهم عهدًا بذلك بقسم غليظ. بذا برزت إلىٰ الميدان عشيرتا كارين بهلوي وسورين بهلوي، وبقيت الأخت تحمل ٱسم زوجها ربّ بيتها البهلويّ أيضًا.

يقولون إنّ القديس كريكور هو من نسل سورين بهلوي، وإنّ الكامساريين هم من نسل كارين بهلوي. أمّا ما يتعلّق بموضوع مجيئهم إلىٰ بلادنا، فسنحكيه في حينه. وما ذكرناهم هنا بجانب آرداشيس، إلّا لنعرف فقط أنّ هٰذه العشيرة الكبيرة إنّما هي من دم فاغارشاك عن حقٍّ ويقين، وأنهم من نسل آرشاك الكبير شقيق فاغارشاك.

٢٩

عودة آبكار من الشرق
ونجدة آريد في حربه مع هيروفتيس الرابع

عندما عاد آبكار من الشرق، سمع أنّ الرومان يظنّون أنه ذهب إلىٰ الشرق بطلب نجدةٍ من قوةٍ كبيرة لمحاربتهم، لذا سارع إلىٰ الكتابة إلىٰ عمّال الرومان، يشرح لهم سبب ذهابه إلىٰ فارس، وأرسل مع الرسالة وثيقة العهد الموقّعة بين آرداشيس وإخوته.

ومع ذلك لم يصدّقوه لأنّ خصومه، بيلاطوس وهيروفتيس الرابع ولوسانيان وفيليبوس نَمُّوا عليه عندهم. عندئذٍ بادر، فور وصوله إلىٰ يتيسيا، إلىٰ الاتصال بآريد ملك البدريين، وأرسل إليه جيشًا داعمًا، بقيادة مَن يدعىٰ خوسران آردزروني لمحاربة هيروفتيس، الذي كان قد تزوّج بآبنة آريد ثمّ أهانها، فخطفها هوانيس مكرديج وأخرجها من عند هيروفتيس سالمةً، فَقتل هيروفتيس هوانيس مكرديج. لم يَهُنْ ذلك علىٰ آريد، فأعلن عليه الحرب، وتمكّن بجيشه وجيش الأبطال الأرمن، من تحطيم جيش هيروفتيس، وبذلك آنتقمت الإرادة الإلٰهية من قاتل هوانيس مكرديج.

٣٠

وفد أمراء آبكار إلى مارينوس
حيث شاهدوا مخلّصنا المسيح
فكانوا سببًا في إيمان آبكار

في هٰذا الوقت بالذات، عيّن قيصر قائدَ الألف مارينوس بن سدروكي حاكمًا علىٰ الفينيقيين والفلسطينيين والآشوريين وبلاد الرافدين. فٱستغلّ آبكار الفرصة وأرسل إليه في مدينة كورة وفدًا يتألّف من ٱثنين من كبار رجاله، وهم مار إيهاب حاكم آغتسينيك، وشامشاكرا رئيس عشرة آباهوني، وصديقه الحميم آنان، ليشرحوا له سبب ذهابه إلىٰ الشرق، وليُطلعوه علىٰ وثيقة العهد التي أبرمها في فارس، وليطلبوا منه العون والدعم. ولمّا وصل الوفد إلىٰ منطقة حكمه، وجدوه في مدينة يليفتروبوليس في فلسطين، فٱستقبلهم بمودّةٍ وٱحترام، وطمأن آبكار وطلب إليه أن لا يشكّ في نيّة قيصر بسبب ذهابه إلىٰ الشرق، علىٰ أن لا يُقصّر في دفع الخراج الكامل.

عند عودة الوفد مرّوا بأورشليم لرؤية المسيح المخلّص، بعدما سمعوا عن معجزاته ورأوه بأعينهم. ولمّا دخلوا علىٰ أبكار حكوا له ما رأوه، فتعجّب، وآمن به علىٰ أنه الربّ عن يقينٍ، وقال: «*ليست تلك من قدرات بشرٍ، وإنما هي من قدرات إلٰه*». وبما أنّه كان يُعاني من آلام مبرّحة في جسمه، كانت قد ٱنتابته منذ سبع سنواتٍ حين كان في بلاد الفرس ولم يتوصّل أحدٌ من البشر إلى شفائه، لذا بعث برسالةٍ إليه يتوسّل فيها أن يأتيه ليشفي آلامه، هٰذا نصّها:

٣١

ورقة آبكار إلى المخلص يسوع المسيح

من آبكار آرشام حاكم البلاد، إلىٰ يسوع المخلّص والمنعم الذي ظهر في أورشليم، تباركت:

لقد سمعتُ عنك، وعن معجزاتك في شفاء الأمراض بمسحةٍ من يديك من دون أدوية أو عقاقير، وسمعتُ أنك جعلت العميان يبصرون، والعرجان يمشون، والمجذومين يتطهّرون، وطردت العفاريت والشياطين من نفوس المجانين، وشفيت المصابين بأمراضٍ مستعصية وأحييت الموتىٰ.

بنتيجة ما سمعتُ، راودتني فكرتان: إمّا أن تكون إلهاً نزلتَ من السماء لتخلّص البشر، وإمّا أن تكون ابنًا لله، تفعل ما يريد.

لهذا أكتب إليك، متوسّلًا أن تتحمّل المشقّة، وتأتي إليّ لتعالج مرضي، وتبقىٰ عندي في أمانٍ، لأنّ اليهود ـ كما علمتُ ـ يكيدون لك، وتستطيع مدينتي ـ علىٰ صغرها ـ أن تحتوينا نحن الاثنين.

وذهب حاملو الورقة وقابلوا المسيح، الواقعةُ التي يؤكّدها كلام الإنجيل:

وكان أناس يونانيون من الذين صَعِدوا ليسجدوا في العيد، فتقدّم هؤلاء إلىٰ فيليبس الذي مِن بيت صيدا الجليل، وسألوه قائلين: "يا سيد، نريد أن نرىٰ يسوع". فأتىٰ فيليبس وقال لأندراوس، ثمّ قال أندراوس وفيليبس، للمسيح يسوع.

لكنّ مخلّصنا لم يقبل بالمجيء بنفسه آنئذ تلبيةً لدعوة آبكار، بل شرّفه برسالة جاء فيها:

٣٢

جواب ورقة آبكار
الذي كتبه توماس الرسول
بأمرٍ من المخلّص

طوبى لمن يؤمن بي وهو لا يراني. فلقد كُتب عني أنّ الذين يرونني لا يؤمنون بي بل يؤمن بي الذين لا يرونني فيجدون الحياة.

امّا انت، وقد كتبت لي أن آتي إليك، فأنا مشغولٌ في هذا المكان بتأدية كلّ ما أُرسلت من أجله، وعندما انتهي من كلّ شيء اصعد إلى الذي ارسلني. أُرسل إليك واحدًا من تلاميذي ليُواسي ألمك ويهبَ لك ولمن بَعدك الحياة.

بهذا الجواب عاد الموفد آنان إلىٰ آبكار، وهو يحمل صورةً مرسومة للمخلّص، هي الموجودة حتّىٰ اليوم في مدينة قيصرية.

٣٣

كرزُ تدّوس الرسول في قيصريّة
ونسخ الأوراق الخمس

بعد صعود مخلّصنا، أرسل توماس الرسول واحدًا من الآثني عشر، هو تدّوس الرسول إلىٰ مدينة قيصريّة لكي يُداوي آبكار، ويكرّز ببشارة الإنجيل ـ حسب قول الربّ ـ إلىٰ السبعين الذي هو منهم. فجاء ونزل في بيت الأمير اليهودي دريا، الذي يقولون عنه إنه من نسل البكارادونيين، هرب من آرشام

وآعتنق اليهودية مع عشيرته، وبقي على دينه هٰذا إلىٰ أن آمن بالمسيح. ولمّا ذاع آسمه في كلّ المدينة، سمع به آبكار، وعلم أنه هو الذي نبّأ به المسيح، آستبشر، وآستدعاه.

فلمّا دخل تدّوس علىٰ آبكار آستبشر بمنظره البهيّ، وقام من عرشه، وآنكبّ علىٰ وجهه ساجدًا أمامه، تحت نظر وعجب رجال الحاشية المحيطين به، دون أن يدركوا الأمر. وسأله آبكار: «*هل أنت تلميذ المسيح المبارك الذي وَعد بإرساله إلىٰ هنا؟ وهل أنت قادرٌ علىٰ شفاء آلامي؟*».

أجاب تدّوس: «*إذا أنت آمنّت بيسوع المسيح تبلغ ما يَرومه فؤادك*».

فقال له آبكار: «*لقد آمنت به وبأبيه، لذلك كنت أرغب في قيادة جيوشي لأحطّم اليهود الذين صلبوه. لكنّ المملكة الرومانية منعتني*».

عندئذ بدأ تدّوس يكرّز له ولكلّ مدينته ببشارة الإنجيل، وشفاه بلمسةٍ من يده. وفعل الأمر نفسه مع حاكم المدينة المصاب بداء النِّقْرس، وكان ذا قدرٍ كبير في قصر الملك. كذلك شفي كلّ المرضىٰ والموبوئين في المدينة بلا آستثناء. فآمن به الناس وتعمّدوا، وأولهم آبكار. وأغلقوا أبواب المعابد الوثنية، وطمسوا كلّ الرسوم التي كانت مرسومةً علىٰ المذبح والعمود. لكنهم لم يُجبروا أحدًا علىٰ تغيير دينه وعقيدته وإنما ازداد عدد المؤمنين طواعيةً.

وعَمّد تدّوس الرسولُ رجلًا يُدعىٰ "آتي" كان يصنع الحرير، وكلّفه العملَ في مكانه في قيصريّة، وتركه تحت تصرّف الملك. وحصل علىٰ أمر من آبكار يسمح له بالكَرْز ببشارة الإنجيل للجميع، بآستثناء آبن خاله ساناذروك المُعيّن علىٰ قيادة جيش البلاد، لأنه فضّل أن يكتب أولًا إلىٰ قيصر، القيصر ديبيريوس، رسالةً جاء فيها:

رسالة آبكار إلى ديبيريوس :

من آبكار ملك الأرمن إلىٰ سيدي قيصر الرومان ديبيريوس، سلام.

مع علمي بأنّ لا شيء يخفىٰ علىٰ جلالتكم، أريد أن أنقل إليكم الخبر الأكثر أهمية. لقد صَلَبَ اليهود، المقيمون في ديار فلسطين، المسيحَ من غير ذنبٍ، بدلاً من الاعتراف بفضله عليهم حين كان بينهم، فلقد فعل من المعجزات ما لا يخطر علىٰ بال، لقد أحيا عدداً من الموتىٰ، وهٰذا العمل لا يمكن أن يكون من قدرات البشر، بل هو من قدرات الله. ثمّ إنّ الشمس قد كُسِفت حين كانوا يصلبونه، والأرض زلزلت وٱهتزّت. وبعد ثلاثة أيام قام من قبره وظهر للكثيرين، قبل أن يصعد إلىٰ السماء. والآن يصنع تلاميذه بٱسمه أعمالاً عظيمة مفيدة، ولمست ذلك بنفسي.

لذا أترك لجلالتكم أمر فرض الإيمان علىٰ الشعب اليهودي، بأنّ المسيح هو إلهٌ حقيقيٌ.

دُمتَ سالماً.

جواب رسالة آبكار من ديبيريوس :

من ديبيريوس قيصر الرومان إلىٰ آبكار ملك الأرمن، سلام.

لقد قرؤوا لي رسالتك الصادقة التي نشكرك عليها. لقد سمعتُ بما ذكرتَهُ لي من كثيرين قبلك، وأكّد لي بيلاطس أنّ عدداً كبيراً من الناس آمنوا به علىٰ أنه إلٰه، خصوصاً بعدما قام من قبره، ففكّرتُ أنا أيضاً بما فكرتَ به أنت.

ولكنك تعرف أننا نحن الرومان قد ٱعتدنا أن لا نؤمن بإلٰهٍ جديد إلّا بعد موافقة مجلس الشيخ حين يُعرض الأمر عليه. ولقد عَرضت الموضوع فعلاً علىٰ مجلس الشيخ، لكنه رفض لعدم ٱقتناعه.

ومع ذلك، أصدرت أمرًا بالسماح لمن يشاء بالإيمان بالمسيح علىٰ أنه من صنف الآلهة، وأنذرنا بالموت كلّ من يعترض أو يؤذي المسيحيين. امّا ما يتعلّق باليهود الذين صلبوه، وهو لا يستحقّ الصلب بل يستحق الإجلال والاحترام، فأمرّ سأدرسه، وأُنزِل العقاب بالفاعلين، بعدما أنتهي من الحرب مع الإسبان الذين تمرّدوا عليّ.

ابكار يُرسل ورقة اخرى الى ديبيريوس :

من آبكار ملك الأرمن إلىٰ سيدي ديبيريوس قيصر الروم، سلام.

قرأتُ ورقتك التي تليق بجلالتك، وفرحت للأمر الذي فكّرت فيه. لكن أعذرني إذا قلت لك إنّ مجلس الشيوخ مخطئٌ في قراره. لأنّ الألوهية عندكم تُمنح لشخوص من البشر بعد التدقيق، ولا يُعتبر إلٰهًا من لا يحظىٰ برضىٰ مجلس الشيوخ، لكنّ هٰذا الأمر لا ينطبق علىٰ المسيح.

علىٰ كل حالٍ أرىٰ، يا سيدي، أن تَعزل بيلاطس من أورشليم، وتعيّن بديلًا منه، لأنه نفّذ إرادة اليهود، وساهم في صلب المسيح من غير ذنبٍ ومن دون إذن منك وأنت الذي عيّنته. ودمت سالمًا.

وآحتفظ عنده بنسخةٍ منها، شأنها شأن غيرها من الرسائل، في ديوانه الخاصّ. ولم يكتفِ بذلك، بل كتب رسالةً إلىٰ نرسيه الطفل ملك الآشوريين في بابل.

رسالة ابكار الى نرسيه :

من آبكار ملك الأرمن إلىٰ ولدي نرسيه سلام.

رأيت خطّك الكريم، فأطلقت سبيل فيروز وعفوت عنه، ولا بأس عندي في أن تعيّنه علىٰ نينوىٰ إذا شئت أنت ذلك. أمّا ما ذكرتَه عن ذلك الطبيب الذي يصنع المعجزات، ويدعو إلىٰ إلٰه آخر أسمىٰ من النار والماء، فأرجو أن تبعث به إليّ، لكي أراه وأسمعه، إذ لا أظنّه طبيبًا بمعنىٰ المهنة البشريّة، بل هو تلميذٌ لآبن الله خالق النار والماء، وهو رسولٌ قُدِّر له المجيء إلىٰ مناطق أرمينية لهدايتها، وله زميلٌ من أصحابه وآسمه سمعان، هو المكلّف بالتوجّه إلىٰ بلاد فارس. فآبحث عنه إلىٰ أن تجده، وآسمع منه أنت وأبوك آرداشيس، لأنه يشفي الأمراض كلّها وينير سبيلك في الحياة.

وكتب رسالةً إلىٰ آرداشيس ملك الفرس هٰذا نصّها:

رسالة ابكار إلى ارداشيس :

من آبكار ملك الأرمن إلىٰ أخي آرداشيس ملك الفرس، سلام.

أنا واثقٌ من أنك سمعتَ بالمسيح يسوع آبن الله الذي صلبه اليهود، والذي قام من قبره بعد موته، وصعد إلىٰ السماء بعدما كلّف تلاميذه أن ينتشروا في كلّ مكانٍ في الدنيا لهداية الناس وتعليمهم، ومنهم الرسول سمعان، الموجود في مملكتك الآن. فآبحثْ عنه وجِدْهُ، لكي يعمل عندك علىٰ شفاء المرضىٰ والموبوئين، ويرشد الناس إلىٰ سبيل الخلاص. آمنْ بأقواله أنت وإخوتك، وجميع من يلوذون بك ويطيعونك بإرادتهم، وسوف يسرّني ذلك. لأنكم أقربائي وأشقائي الأعزاء.

لكنّ آبكار مات قبل أن يستلم ردود رسائله، بعد مُلكٍ دام ثماني وثلاثين سنة.

٣٤

حول استشهاد رُسُلنا

بعد موت آبكار، آنقسمت المملكة الأرمنية إلىٰ قسمين. قسمٌ آنتزعه آبنه آنانون وتوّج نفسه ملكًا علىٰ يتيسيا، وآنتزع القسم الثاني سانادروك آبن خاله وتوّج نفسه ملكًا علىٰ أرمينية. وفي زمانهما جرت أحداثٌ مثيرة تستحقّ الذِّكر.

ففي زمانهما كان مجيء الرسول تدّوس إلىٰ أرمينية، وآمن به سانادروك، وآمن بالمسيح وبدينه، لكنه آرتدّ تحت ضغط وزرائه، وأخذ يُنكّل بتدّوس ومن معه من تلاميذه، في مقاطعة شافارشان التي تُعرف الآن بآسم آرداز. فنزل عليه غضب الله وآنهدم السدّ فأغرقتهم مياهه. فأعاده هٰذا الآنهدام إلىٰ صوابه، فسلّم جسده إلىٰ تلاميذه الذين دفنوه في الحقول. كذلك آستُشهِدت سانتوخد آبنة الملك وهي في الطريق. ولمّا ظهر جسدها نقلوه إلىٰ المناطق الصخرية وبنوا لها هيكلًا. ولمّا كانت هٰذه الأحداث قد تسرّبت إلينا عن طريق الغير، لذا لم نرَ مبرّرًا لإعادة سردها بالتفصيل.

كما تسرّب إلينا عن طريق الغير، نبأ آبن آبكار في يتيسيا، وما فعله بآتي تلميذ الرسول تدّوس، لأنّ هٰذا لم يتّبع خُطىٰ أبيه بعدما صار ملكًا، بل أعاد فتح أبواب المعابد الوثنية، وعاد إلىٰ عبادة الأوثان. وأرسل إلىٰ آتي المؤمن رجلًا يطلب إليه أن يصنع له وشاحًا من القماش الناعم المطعّم بخيوط الذهب كالذي كان يصنعه لأبيه من قبل. لكنّ آتي أجاب: *«انا لا اصنع وشاحًا لراس لا يستحقّه، ولا يسجد للمسيح الإله الحيّ»*. فما كان من الملك إلّا أن أمر أحد رجاله بعَقْره. فذهب هٰذا ووجده جالسًا علىٰ كرسيّه يَعِظ الناس، فقطع ساقيه

وألقاهما بعيدًا، وتركه ليلقىٰ حتفه. لقد استقينا هٰذه المعلومات عن طريق الغير، لذلك ٱكتفينا بسردّها بٱختصار.

لكنّ الله قَيّض الرسولَ بارتلميوس لهداية الأرمن، إلّا أنه ٱستُشهِد في مدينة آريبانوس. هٰذا، ولا أستطيع أن أقول شيئًا عن القديس سمعان الذي أُرسل إلىٰ الفرس، لأنني لم أتمكّن من معرفة ما فعل ولا كيف ٱستُشهد وأين. فبعضهم يقولون بأنّ شخصًا يُدعىٰ سمعان الرسول قد ٱستُشهد في فوريوسبور، ولا أعرف إن كان هو المقصود أم أنه غيره، وما هو سبب مجيئه إلىٰ هناك. ولم أُشر إليه هنا إلّا لتعلم أنني لا أَدَعُ خبرًا علمتُه إلّا حكيتُه لك.

٣٥

تملّك سانادروك ومقتل ابناء آبكار ومصير زوجته هيلانة

بعدما تملّك سانادروك، جمع مع إخوته في الرُّضاع جيشًا تطوّع فيه أبطالٌ من البكارادونيين والأردزرونيين، وقادهم لمحاربة أبناء آبكار والاستيلاء علىٰ أرضهم. لكنه قبل أن يُتِمّ تعبئة الجيش، جاءه خبر مقتل ٱبن آبكار الذي قَتل المؤمن آتي. يُقال بأنّ ٱبن آبكار هٰذا كان يُقيم ـ في بيته في يتيسيا ـ عمودًا، فشاء الله أن ينتقم لذلك المؤمن، فأفلت العمود من أيدي العمال، فسقط عليه، وكسر رجليه وقتله.

عندئذٍ أرسل سكّان المدينة وفدًا إلىٰ سانادروك، يرجونه أن يعاهدهم عهدًا مقدّسًا علىٰ أن لا يمسّ معتقداتهم المسيحيّة، لقاء تسليمه المدينة مع

كلّ الكنوز الملكيّة. قَبِل سانادروك العرض، ولكنه نكث بعهده وقتل كلّ أبناء آبكار الذكور، وأبقىٰ على الإناث اللواتي أبعدهنّ إلىٰ مدينة هاشديانك، بٱستثناء هيلانة رئيسة نساء آبكار، التي أرسلها لتقيم في مدينة خاران، تاركًا لها أمر إدارة بلاد الرافدين في الشؤون التي تتعلّق بالنساء، مكافأةً لها علىٰ ما قدّمته له من خيرات مَلِكها آبكار.

لكنّ هيلانة، التي كان قلبها مفعمًا بالإيمان مثل زوجها آبكار، لم تُطِق العيش مع عَبَدَة الأصنام، فذهبت إلىٰ أورشليم، في أيّام المجاعة التي تنبّأ بها آكابوس، وصرفت كلّ أموالها لشراء القمح من مصر، وتوزيعه علىٰ المحتاجين. يشهد علىٰ ذلك هوسيبيوس، الذي يقول بأنّ قبرها ما زال موجودًا واضحًا في أورشليم أمام باب المدينة.

٣٦

ترميم مدينة ميدزبين بعد الزلزال الذي هدمها وتسميتها باسم سانادروك، وخبر موته

لم نجد في أعمال سانادروك ما يستحقّ الذكر، غير ترميم مدينة ميدزبين بعدما هدمها الزلزال. فقد فكّكها وأعاد بناءها بشكلٍ بديع، وأحاطها بسور مزدوج وأبراج. ونصب في المدينة تمثالًا له يمسك بيده قطعةً نقدية، إشارة إلىٰ أنه يُنفق كلّ أمواله علىٰ إعمار المدينة. وهٰذا كلّ ما بقي منه من أثر.

لكن، يبقىٰ علينا أن نبيّن سبب تسمية سانادروك بهذا الٱسم. إذ يُحكىٰ أنّ آفتي، أخت آبكار، كانت مسافرةً في طريقها إلىٰ أرمينية مع حاشيتها، حين هبّت عاصفةٌ هوجاء علىٰ جبال كورتفا أدّت إلىٰ تشتيت شمل الجميع حتّىٰ

فقد الصاحب صاحبه. لكنّ المربية سانود، أخت بوراد باكارادوني وزوجة خوسري آردزروني التي كانت معها، وجدت الصبيّ والعاصفة تكاد تحمله، فضمّته إلىٰ صدرها، وٱستلقت علىٰ وجهها علىٰ الأرض حتىٰ غمرها الثلج، وبقيت كذلك ثلاثة أيام بلياليها، فنسجوا عليها أسطورةً تقول بأنّ العناية الإلهية أرسلت حيوانًا أبيض لِيُحافظ علىٰ الصبيّ. والحقيقة هي ما ذكرنا وتوصّلنا إليها بعد بحثٍ طويل. أمّا الحيوان فكان كلبًا أبيض يُرشد الباحثين إلىٰ مكان المفقودين، عثر علىٰ الصبيّ ومربيته تحت الثلج. فأُطلق عليه ٱسم "سانادروك"، أي: "عطيّة سانود".

جرت هٰذه الحادثة في السنة الثانية عشرة من حكم آرداشيس ملك الفرس، الذي مات في الثلاثين من العمر بسهم طائش أصابه في بطنه في أثناء رحلة صيد. ولعلّ ذلك ٱنتقام الربّ لتعذيب ٱبنته القديسة.

كتب لآبرينا، ٱبن الكاتب آبشاتار، ذلك مع كلّ الأحداث التي جرت في أيام آبكار وساناردوك، وحفظها في ديوان يتيسيا.

٣٧

تملّك يرفانت
ومقتل أبناء ساناردوك
وفرار آرداشيس ونجاته

بعد موت الملك ساناردوك، حصلت ٱضطرابات في المملكة، بطلها رجلٌ يُدعىٰ يرفانت ٱبن ٱمرأةٍ من عشيرة الآرشاكيين، ٱستولىٰ علىٰ الملك في السنة الثامنة من حُكم تارح الأخير. تحكي خلاصة الأقاويل أنّ ٱمرأةً عجوزًا قبيحةً شهوانيّة من عشيرة آرشاكوني، لم تجد من يتزوّج بها. لكنها أنجبت ولدين من

علاقةٍ غير شرعيّة، علىٰ غرار ما فعلت باسيبايي* حيث ولدت مينودافروس، وأسمت المرأة الولدين يرفانت ويرفاك. ولمّا كَبرا تعلّما، وصار يرفانت رجلًا قويّ القلب جريئًا، لفت نظر سانادروك، فعيّنه ناظرًا علىٰ عمّاله وموجّهًا لهم، وظلّ يرتقي في مراتبه حتىٰ بلغ مرتبة الوزير الأول، لما يتميّز به من كياسةٍ، وحِلْم، وكرم، اَجتذب إليه القلوب. ولمّا مات سانادروك اَنتخبه الناس بالإجماع ملكًا عليهم غير متوّج، لأنه لم يحظَ بموافقة أسرة باكارادوني.

وبعدما اَستقرّ علىٰ العرش بدأ يشكّ في نوايا أبناء سانادروك فقتلهم كلّهم، وكأنّ القدر ينتقم لأبناء آبكار. إلّا أنّ مربّيتهم تمكّنت من حمل أصغرهم آرداشيس وهربت به إلىٰ مَواطِن الرعي، في ناحية ماغخازان في منطقة هير، وأرسلت خبرًا إلىٰ مربّيه سمباد بن بوراد باكرادوني في قريته سمبادافان في منطقة سبير. فلمّا وصله خبر موت سانادروك ومأساة أبنائه، اَصطحب اَبنتيه سمبادانوش وسمبادوهي وأسكنهما في قلعة بايبيرت، وترك معهما رجالًا أشدّاء لحراستهما، ثمّ أخذ زوجته مع عددٍ قليل من الرجال، وذهب للبحث عن الطفل آرداشيس. لكن، ما كاد الملك يرفانت يسمع بالخبر حتىٰ أرسل رجاله وراءهم، إلّا أنهم لم يعثروا عليهم، لأنّ سمباد أوىٰ ومن معه إلىٰ الجبال والوهاد، يعيشون مع الرعاة في مَواطِن الرعي، إلىٰ أن حانت له الفرصة، ولجأ إلىٰ صديقه القديم تارح ملك الفرس، الذي اَستقبلهم بالترحيب والإكرام، وعيّن سمباد في مركزٍ رفيع في الجيش الفارسيّ. وعاش الصبيّ مع أبناء الملك في مناطق بادوفوروم.

* باسيبايي، حسب أساطير آلهة اليونان، هي زوجة الملك مينوس، أنجبت منه عدّة أولاد، لكنها من شدّة شَبَقها عاشرت ثورًا، وأنجبت منه ولدًا عملاقًا، جسده جسد إنسان ورأسه رأس ثور، أسمته "مينودافروس"، كان يتغذّىٰ علىٰ لحم البشر، قتله دليسيوس.

٣٨

الجهود التي بذلها يرفانت للقبض على آرداشيس وانسحابه من بلاد الرافدين

شكّلت منطقة مارس في بلاد الفرس همًّا ثقيلًا على قلب يرفانت، وسبّبت له القلق في يقظته ومنامه، لأنها كانت مسكن أبناء الملك تارح وآرداشيس، وظلّ يُرسل رسلًا محمّلين بالهدايا إلى ملك الفرس لإقناعه بتسليم الفتى آرداشيس قائلًا:

يا ابنَ عميّ وقريبي، ما بالُك ترعى الماريّ آرداشيس عدوّي وعدوّك، وتصدّق ادّعاء سمباد الخبيث بأنّ المدعوّ آرداشيس هو ابن ساناردوك، وما هو كذلك، بل هو من أبناء الرعاة السفلة، يريد أن يجعله آرشاكونيًّا من عرقك وقرابتك. ثقْ بأنه ليس ابن ساناردوك وإنما هو ولدٌ من الرعاة من أصلٍ ماريّ، فلا تدعه يخدعك.

وأرسل إلى سمباد عدّة مراتٍ محذّرًا: «*لماذا تتحمل كلّ هذا العبء برعاية ولدٍ ماريٍّ خدعتْكَ مربّيته بأقوالها، وتوغر صدره عليّ بلا طائل؟*». ولمّا لم يتلقَّ منهما جوابًا مُرْضيًا، أرسل قوةً قتلت الرجال القائمين على حراسةِ قلعة باي، وأَسَرَ ابنتَي سمباد، وأسكنهنَّ مكرَّماتٍ في حصن آني.

بعد ذلك، تخلّى يرفانت عن بلاد الرافدين للروم، في عهد القيصر فيسباسيوس وابنه القيصر تيدوس*، وحالفهم ليأمن خطرهم. وبذلك انحسر

* فيسباسيوس وتيدوس، قيصران روميان حكما بين عامي ٩٦ ـ ٨٧ و ٧٩ ـ ٨١ ميلادية، اشتهرا بحروبهما مع اليهود، وهدم أورشليم وهيكل سليمان وتشتيت اليهود.

حكم الأرمن عن بلاد الرافدين، وزاد حجم الخراج الذي يجب على يرفانت أن يدفعه عن أرمينية. لذا عمد عمّال الروم إلى إحداث خزائن في كلّ أنحاء يتيسيا، لجمع الخراج من أرمينية وبلاد الرافدين وآشور حفظوا فيها الدواوين أيضًا، وأسّسوا مدرستَين، واحدةً آشورية محلية أصيلة، والثانية يونانية، ونقلوا إليها ديوان الخراج الذي كان في سينوب البوندية.

٣٩

حول بناء مدينة يرفانتاشاد

في عهده، نُقل البلاط الملكيّ إلى تلّ يدعى آرمافير، لأنه كان بعيدًا عن نهر يراسخ الذي تتجمّد مياهه عند هبوب رياح الشتاء الشماليّة، فلا يتيسّر له تأمين الماء لمراكز المملكة، وكان عليه أن يبحث عن مكانٍ أكثر ملاءمةً في النواحي الغربية، واهتدى إلى هذا التلّ الصخريّ الذي يحيط به نهرا يراسخ وآخوريان. فأمر ببناء سور حول التلّ، وتقطيع الصخور وإقامة سدٍّ على النهر يرفع الماء إلى مستوى مناسب، يُوصل الماء للشرب والاستعمال إلى داخل قلعةٍ بناها، تحميها أسوارٌ عالية لها أبوابٌ من النحاس وأبراج من الحديد، يُرقى إليها بدرجاتٍ تتخلّلها فتحاتٌ سريّة تكشف عن العدّو إذا ما أراد الوصول إليها. والدرج هذا متفرّعٌ إلى قسمين، قسمٌ نهاريّ لاستعمال العامّة والخدم، وناحيةٌ ليليّة للخاصّة، تساعد في الوقت نفسه على محاصرة العدوّ الغازي.

٤٠

كيف بنى مدينة الأصنام باكاران

بعدما بنى يرفانت مدينته، نقل إليها كلّ شيء كان في آرمافير، ما عدا التماثيل، خوفًا من أن لا تنضبط حراستها حين يؤمّها الناس لتقديم قرابينهم، لذلك بنىٰ مدينةً صغيرة شبيهة بمدينته علىٰ بعد أربعين شوطًا منها، سمّاها باكاران، نقل إليها كلّ التماثيل التي كانت في آرمافير، وجمع كلّ مذابح المعابد فيها، بزيادة معابد تكفي لكلّ الناس، عيّن قيمًا عليها أخاه يرفاز.

٤١

حول غرس غابةٍ سماها "الميلاد"

كذلك أمر بإنشاء غابةٍ واسعة علىٰ شمال نهر آخوريان حصّنها هي الأخرىٰ بالأسوار، ووضع فيها قطعانًا من الوعول والغزلان والأيائل وحُمُر الوحش والخنازير البرية، فتكاثرت وملأت الغابة، وصار بإمكان الملك أن يستمتع بها في أيام الصيد. وأطلق علىٰ الغابة اسم "غابة الميلاد".

٤٢

يرفانتاكيرد، المكان المستصلح

يحلو لي هنا، أن أحكي عن مدينة يرفانتاكيرد الجميلة، التي أستصلح أرضها وصمّمها بشكلٍ بديع، ونفّذها يرفانت بنفسه، ووطّن فيها سكّانًا في وسط الغور الكبير، بنىٰ لهم فيه مساكن رائعةً برّاقة بدت كأنها بؤبؤ العين، وأنشأ حولها حدائق وبساتين غنّاء صارت كالبياض حول البؤبؤ، وغرس كرومًا مقوّسة، مثل الرموش الجميلة، التي يشبه جانبها الشماليّ المقوّس حواجب العذارىٰ الجميلات. أمّا السهول المنبسطة في الجانب الجنوبيّ فكأنّها الأذقان والخدود الأسيلة البديعة، يبدو النهر بينها بضفّتيه، أشبه ما يكون بفم، فتحسب المكان بمجموعه مُقْلَةَ عينٍ تنظر إلىٰ مقام الملك عالي الجناب. والحقّ يُقال، إنّ المنطقة كانت خصبةً تليق بالملوك.

حملت إصلاحات يرفانت هٰذه، درتاد الكبير علىٰ تكريم عشيرة الكمساريين، وقرّبهم إليه، وآعتبرهم من دم عشيرة آرشاكوني. وهو ما سنذكره في حينه.

يحكون عن يرفانت، علىٰ الرغم من كلّ حسناته، أنّ له عينين حاسدتين ضَيُّوبَتَين، جعلت الخدم ورجال البلاط يحملون تمائم تَزقِيهم من عينيه، إذا حضروا مجلسه أو لاقوه، منذ الفجر إلىٰ آخر اليوم. ويحكون أنّ عينيه كانتا تُفجّران التمائم نفسها أحيانًا. غير أني لا أصدقّ ما يُحكىٰ، ولا أستبعد أن يكون الأمر دعابةً كاذبة صارت أسطورة، أو قد تكون له عيونٌ حاسدة فعلًا يُلحِق بهما الأذىٰ بمن يريد.

٤٣

كيف توصل سمباد
الى إقناع كبار الفرس
بمعاونته على تنصيب آرداشيس ملكا

لنعد إلىٰ آرداشيس الطفل، لكي نرىٰ أنه بعدما تأدّب علىٰ يدي عرّابه سمباد، شبّ يفور رجولةً وشجاعة، ممّا جعل كبار الآريين يرضون عنه ويحدّثون الملك ويتوسّطون له في أن يُنعِم عليه بما يرضيه. فوافق الملك وطلب من هؤلاء: *«أسالوه عمّا يرضيه، وسالبي طلب هٰذا الفتىٰ الشجاع»*. فقالوا: *«أيّها الملك الطيّب المخلّد، يرغب سمباد أن تعيدوا صولجان الملك إلىٰ آبن عرقك ودمك آرداشيس بن ساناردوك الذي آغتُصب منه غدرًا»*. وافق ملك الملوك ووضع تحت تصرّف سمباد قسمًا من جيش الآشوريين وجيش الآزربايجانيين، ليحملوا آرداشيس إلىٰ وطنه وينصّبوه ملكًا عليه، مستعيدًا عرش آبائه.

٤٤

كيف سمع يرفانت بمجيء آرداشيس
فجمع جيشًا استعدادًا للحرب

وصل خبرٌ إلىٰ يرفانت في منطقة أوديانتس، مفاده: *إنّ ملك الفرس قد ارسل جيشًا عظيمًا بقيادة سمباد، لكي يزيحك عن العرش وينصّب آرداشيس الصغير ملكًا بدلاً منك.*

صَعق يرفانت للخبر، وترك بعض وزرائه في المنطقة، وعاد مسرعًا إلىٰ مدينته ليجهّز جيشًا من الأرمن والجورجيين والقيصريين، إلىٰ جانب جنودٍ من بلاد الرافدين مأجورين يدفع لهم أجرهم. وتجمّعت القوات بسرعةٍ بسبب فصل الربيع. وٱنضمّ إليهم أركام رئيس عشيرة موراتسيان من قوم آجتاهاك، مع كلّ قواته من المشاة، إكرامًا ليرفانت، الذي كان قد أنعم عليه بالتاج الثاني الذي كان ديكران قد ٱنتزعه منه وأعطاه لزوج أخته مهرتاد، وبقي المركز شاغرًا بعد موت مهرتاد إلىٰ أن أعاده يرفانت إليه، وأنعم علىٰ كبار رجاله بالعطايا والهدايا وعلىٰ جنده بسخاء.

٤٥

كيف نجحت عملية آرداشيس فور وصوله إلى وطنه

لكنّ سمباد وآرداشيس سبقاه في الوصول إلىٰ أوديانتس، فتصدّىٰ لهما الوزراء الذين تركهم يرفانت هناك بالقوّات المحليّة القليلة، لكنهم خافوا حين رأوا جيش آرداشيس العظيم، وٱضطربوا، وفكّروا في التخلّي عن يرفانت، خصوصًا بعدما رأوا سكوت الرومان عمّا يحدث، متناسين المال الذي كان يغدقه عليهم، لأنهم كانوا يعرفون أنّ ما يدفعه لهم ليس كرمًا، بل رشوةً لهم وخوفًا منهم، وكان كلّما أغدق عليهم المال زاد حقدُهم عليه. وهكذا صار تبديد المال علىٰ هٰذا الشكل وبالًا عليه.

٤٦

حرب يرفانت وآرداشيس وهربه
وسقوط مدينته وموته

لم يُمهل سمباد وآرداشيس الصبيّ، يرفانت الذي كان يجمع جيشه، بل صعدوا إلىٰ شاطئ بحر كيغام خلف جبل آراكادز، ليصلا بسرعةٍ إلىٰ قوات أركام موراتسيان المؤلّفة من حشدٍ من الرماة الأشدّاء، قبل أن يلتئم جيشه بجيش يرفانت، الذي يبعد عنه بأكثر من ثلاثمائة فرسخ في مدينته عند نهر آخوريان في الشمال. سمع يرفانت باقترابهما فخرج بجيشه لمواجهته، وعسكر غير بعيدٍ عنه. هنا أرسل آرداشيس رسولًا إلىٰ أركام يُعلمه، بقَسَم مغلّظ، أنه يُسامحه فيما أخذه من يرفانت، ويَعِده بالأكثر إذا ما ترك يرفانت وانسحب من المعركة.

عندما بدت طلائع جيش آرداشيس أمام جيش يرفانت، انسحب أركام موراتسيان مع مُشاته من المعركة. فأمر سمباد بنفخ النفير، واندفع علىٰ رأس جيشه إلىٰ الأمام وانقضّ مثلما ينقضّ نسرٌ علىٰ سربٍ من القطا، وانضمّ إليه أمراء الأرمن الذين كانوا يُشكّلون الميمنة والميسرة، في جيش يرفانت، كذلك انسحبت فرقة الجورجيّين بقيادة ملكهم بارسمان بعدما تلقّىٰ ضربةً عنيفة، ولم يبقَ في الميدان غير قوات بلاد الرافدين المأجورة، فمُنيت بخسائر بشريةٍ فادحة. وبقي بعضُ الرجال الشجعان من جبال طوروس، ظنّوا أنهم يستطيعون القضاء علىٰ آرداشيس، لكنّ كيساك، ابن مرضعته، تصدّىٰ لهم، وأعمل سيفه فيهم قتلًا وتمزيقًا حتىٰ أبادهم وانتصر عليهم، لكن بعدما أصيب بجرحٍ في وجهه مات علىٰ أثره. ولاذ من تبقّىٰ بالفرار.

وهرب يرفانت علىٰ جوادٍ سريع، راح يبدّله عند كلّ مركز ٱستراحةٍ ٱنتشرت علىٰ الطريق، من ساحة المعركة إلىٰ مدينته. لكنّ سمباد ظلّ يُطارده مع جيش ماري طول الليل، حتىٰ وصل إلىٰ مدينته، وٱحتلّ المدينة، وٱحتلّ معسكر رجال يرفانت، ونصب خيامه فوق جثث القتلىٰ. ولمّا وصل آرداشيس إلىٰ سرادق يرفانت، الذي أقام حوله سورًا من القطيفة والجلد، نام فيه ليلته. وفي الصباح تصرَّف تصرُّف قائدٍ محنّك، حين أمر بدفن جثث القتلىٰ، وسمّىٰ المكان الذي عسكر فيه جيش ماري "مارك ماري"، وسمّىٰ مكان المعركة "يرفانتافان" إشارةً إلىٰ ٱنتصاره علىٰ يرفانت، وما زال المكان يحمل هٰذا الٱسم حتىٰ يومنا هٰذا. بعد ذلك تحرّك بجيشه نحو مدينة يرفانت، ووصل إلىٰ معقله قبل الظهر، أمر الجند بأن يهتفوا بصوتٍ مرتفع: «*مار آمند*» (جاءك الويل!)، ليذكّر يرفانت بالويل الذي كان يهدّد به ملك الفرس وسمباد وآرداشيس. ومنذ ذلك اليوم والمعقل يحمل ٱسم "مار ميد"، نازعًا عنه ٱسم يرفانت إلىٰ الأبد.

كان سمباد قد وزّع عددًا من الحرّاس حول المعقل بٱنتظار وصول آرداشيس. ولمّا وصل بدأت القوات بالهجوم، فٱستسلمت لهم الحامية وفتحت أبواب المدينة، ودخل أحد المقاتلين علىٰ يرفانت وخبطه بفأس علىٰ رأسه، فتناثر مخّه فوق أرضيّة المكان، ومات مقتولًا بعد عشرين سنةً من الحكم. ولمّا علم آرداشيس أنّ يرفانت كان يحمل شيئًا من دم عشيرة آرشاكوني، أمر بدفنه بما يليق به وأقام نُصْبًا تذكاريًّا علىٰ قبره.

٤٧

حكم آرداشيس
والإنعام على ذوي الفضل عليه

بعد موت يرفانت، دخل سمباد القصر، وبحث بين الكنوز الملكيّة، إلىٰ أن وجد تاج سانادروك، فحمله ووضعه علىٰ رأس آرداشيس، وتوّجه ملكًا علىٰ كلّ بلاد الأرمن في العام التاسع والعشرين من حكم تارح ملك الفرس.

وما كاد آرداشيس يتسلّم مقاليد الحُكم، حتىٰ بادر إلىٰ الإنعام علىٰ القوات الماديّة والفارسيّة، وسرّحهم ليعودوا إلىٰ بلادهم. وأنعم علىٰ أركام الشجاع، بتاج المَلِك الثاني الذي وعده به، إضافةً إلىٰ إكليلٍ مزيّن بالجواهر، وأقراطٍ لأذنيه وخلخالٍ لإحدىٰ قدميه، ومنحه حقّ ٱستعمال الملاعق والشوكات الذهبيّة والفضيّة وأكواب الشرب الذهبيّة، كذلك أنعم علىٰ عرّابه بمثل تلك المزايا بزيادة قرطين وحذاءٍ أحمر، وتوليته قيادة الٱرتباط الملكيّ وإمارة القوات الغربية، وأوكل إليه إدارة القوّات الأرمنية وإدارة أعمال البلاد وشؤون البلاط الملكيّ. أمّا نرسيه بن كيساك، ٱبن مربّيته، فولّاه رئاسة عشيرةٍ أطلق عليها ٱسمّ تيماكسيان إحياءً لذكرىٰ أبيه، لأنّ وجهه ـ كما ذكرنا ـ قد شُرِّخ بالسيف في أثناء الحرب لصالح آرداشيس ومات.

وفي الأيام نفسها، منح خمسة عشر يافعًا من نسل دوري إقطاعيّاتٍ فخريّةً، لا لبطولاتٍ قاموا بها، بل إكرامًا لأبيهم، الذي عيّنه سمباد ليكون جاسوسًا لآرداشيس داخل قصر يرفانت لينقل أخباره، ومات مقتولًا بيد يرفانت عندما ٱكتشف أمره.

٤٨

مقتل يرفاز
وبناء مذبح آخر
وعودة آرداشيس لدفع الخراج للروم

بعد ذلك، كلّف آرداشيس سمباد الذهابَ إلىٰ حصن باكاران، علىٰ نهر آخوريان قرب مدينة يرفانت، لقتل يرفازين شقيق يرفانت. ولمّا تمكّن سمباد منه أمر بأن يُربط من عنقه علىٰ حجرٍ كبير، ويُلقىٰ به في إحدىٰ دوّامات النهر، وعيّن مكانه، قيّمًا علىٰ المعابد، واحدًا من تلاميذ كاهنٍ، خبير بتفسير الأحلام مقرّبٍ من آرداشيس. وكانوا من عبدة النار. ثم ٱستولىٰ علىٰ كنوز يرفانت وكنوز المعابد، إضافةً إلىٰ خمسمائة رجلٍ أخذهم عبيدًا لآرداشيس، وحمل إليه كلّ ذلك. فما كان من آرداشيس إلّا أنْ وَهب الخدم والعبيد لسمباد، وأرسل الكنوز إلىٰ الملك تارح بزيادة شيءٍ من عنده، تعبيرًا عن شكره له أبًا ومعينا.

أخذ سمباد الخدم والعبيد الذين أسرهم، وأسكنهم في مقرّه عند سفح جبل ماسيس، وأطلق علىٰ المكان ٱسم باكارا، إشارةً إلىٰ حصن باكاران الذي أسرهم منه. ثمّ حمل هدايا آرداشيس إلىٰ تارح ملك الفرس، مزدريًا بالإدارة الرومانية.

وبعدما ذهب سمباد إلىٰ فارس، جاء جباة الخراج الرومان مع قوات كبيرة، ٱضطرّت آرداشيس إلىٰ دفع الخراج مضاعفًا، لاَسترضائهم ومصالحتهم.

حكىٰ لنا ذلك الكاهن كولومب الذي ٱهتمّ بكتابة تاريخ الجاهليين الأوائل إلىٰ جانب أمورٍ كثيرة أخرىٰ، يفرض علينا الواجب أن نرويها، لأنّ دواوين الفرس وأغنيات المغنّين الأرمن تشهد علىٰ صحّتها وتؤكّدها.

٤٩

حول بناء مدينة آرداشاد

أُشياء كثيرة من أعمال آرداشيس صارت معروفةً عندك، ممّا تأتّىٰ لك أن تسمعه من غناء المغنّين في كوغت من رواياتٍ: عن بناء المدينة، ومصاهرة الالانيين، وما حُكي عن عشق ساتينيك لأبناء التّنّيّين الخرافيّين من نسل أجتاهاك، الذين آحتلّوا كلّ سفوح ماسيس، ثمّ حربه معهم وزعزعة أركان إمارتهم، وقتلهم وتهديم منشآتهم. وتحاسد أبناء آرداشيس وتنازعهم علىٰ آمرأة. وهٰذه أمور أنت تعرفها مما سمعتَه منهم، ومهمّتنا هنا أن نوردها بآختصار لنُبيّن المبالغات فيها.

ذهب آرداشيس إلىٰ ذلك المكان، الذي يلتقي عنده نهر يراسخ بنهر ميدزامور، وآختار رابيةً بنىٰ عليها مدينةً، بآسم آرداشاد، بأخشابٍ آستجلبها محمولةً بسهولةٍ وسرعة علىٰ مياه نهر يراسخ، وشيّد فيها معبدًا نقل إليه تمثالًا لأرديميس كان في باكاران مع غيره من تماثيل الآلهة، بآستثناء تمثال آبولون الذي نَصَبَه علىٰ الطريق عند مدخل المدينة. وأفرج عن اليهود الذين أسرهم يرفانت، وآستقدمهم ليسكنوا في مدينته آرداشاد. ولم ينسَ أن ينقل التحف التي سرقها يرفانت من آرمافير، مع أنصاب تُذكّر بأعماله هو، وأمر بتشييد المزيد من البيوت في المدينة مع بناءٍ ضخم جعله مقرًّا ملكيًّا معتبرا.

٥٠

هجوم الآلانيين علينا وانكسارهم ومصاهرة آرداشيس لهم

في تلك الأوقات تمكّن الآلانيون من توحيد كلمتهم مع القبائل الجبلية، وٱستولَوا علىٰ نصف بلاد الفرس، وجاؤوا بأعدادٍ كبيرة إلىٰ ديارنا، وٱستقرّوا فيها. فحشد لهم آرداشيس بالمقابل جيشًا كبيرًا، ودارت بين الطرفين رحىٰ حربٍ مدمّرة، أجبرت الآلانيين علىٰ الٱنسحاب، فعبروا نهر كورا العظيم وعسكروا عند المنطقة الشمالية من ضفّته المقابلة. فلحق بهم آرداشيس، وعسكر بجيشه في المنطقة الجنوبية، وٱنقسم النهر بين الطائفتين المتحاربتين.

في هٰذه الأثناء تمكّن رجال آرداشيس من أسر ٱبن ملك الآلان، وجاؤوا به إلىٰ آرداشيس. فعرض ملك الآلانيين الصلح متعهّدًا بتقديم كلّ ما يطلبه منه آرداشيس، لقاء توقيع معاهدةٍ بينهما، تشترط علىٰ شبّان الآلانيين، بقَسَمٍ مغلّظ، ألّا تطأ أقدامهم بعد الآن أرض الأرمن. ولمّا لم يوافق آرداشيس علىٰ العرض وعلىٰ الإفراج عن ٱبن ملك الآلانيين، جاءت أخته إلىٰ ضفّة النهر المقابلة وٱعتلت برجًا عاليًا، وخاطبت جيش آرداشيس عن طريق المترجمين قائلةً:

أخاطبُكَ أيّها الرجل البطل آرداشيس
يا مَن ٱنتصرت علىٰ قوم آلان الشجعان،
ٱستمعْ إلىٰ أقوال ٱبنة آلان، ساحرةِ العينين
وسلِّمْنا الفتىٰ أخي.

إذ ليس من العدل أن يكون حقد الشجعان
سببًا لكي نُزهِق أرواح أبناء العمّ الشجعان
أو نبقيهم كالخدم أو كالعبيد،
لتترسّخ عداوةٌ أبديّةٌ بين شعبَين أبيَّيْن.

عندما سمع آرداشيس هٰذه الكلمات الحكيمة، ذهب إلىٰ ضفّة النهر ورأىٰ العذراء الجميلة، وسمع أقوالها ورغب فيها. فٱستدعىٰ عرّابه سمباد، وشرح له رغبته في الزواج بالآنسة الملكيّة، وموافقته علىٰ عقد معاهدةِ صلح، بقسمٍ مع أمّةِ الأبطال هٰذه، وإطلاق سراح الآبن الأسير. أعرب سمباد عنْ رضاهٍ، وأرسل رجالًا إلىٰ ملك الآلانيين ليطلب منه يد الآنسة الملكيّة ساتينيك زوجةً لآرداشيس.

فردّ ملك الآلانيين:

من أين لآرداشيس البطل، أن يُقدِّم
الآلاف المؤلَّفة وعشراتِ الآلاف المعشَّرة
مهرًا للعذراء من نسل الأبطال
الآنسة الملكيّة ٱبنة آلان؟

هنا يُنشد الروّاة المغنّون الأسطورة بقولهم:

ٱمتطىٰ الهُمَام آرداشيس المَلِكُ حصانًا أسود
وأخرج سلسالًا حلقاته ذهبية، مع جلدٍ أحمر
وٱجتاز النهر مثل نسرٍ قويّ الجناح
وألقىٰ الجلد الأحمر إلىٰ آلان
ولفّ السلسال الذهبي علىٰ خصر آنسة آلان
فآلم خصرها البضّ الرقيق،
وحملها آرداشيس إلىٰ معسكره

هٰذا ما حصل بالفعل، لأنّ الجلد الأحمر كان ثمينًا جدًّا عند الآلانيين. لذا دفع آرداشيس كثيرًا من الجلد الأحمر والذهب الوفير، مهرًا للآنسة ساتينيك، وأخذها زوجةً له.

ووصفوا العرس، وجعلوه أسطوريًّا، فقالوا:

كان الذهب يَنثَر غزيرًا
في يوم عرس ساتينيك
وكان الجوهر يَنثَر غزيرًا
في يوم زفاف آرداشيس

لأنّ من عادة ملوكنا الأوائل أن ينثروا المال بلا حسابٍ علىٰ الناس، حتىٰ يصلوا إلىٰ مخدع الزوجيّة، وتَنثر النساء الجواهر علىٰ الناس حتىٰ وصولهنّ إلىٰ مخدع الزوجيّة، علىٰ غرار ما كان يفعله الرومان، وهٰذا هو ما تقصده الأغنية الأسطوريّة.

كانت الأولىٰ بين نساء آرداشيس، أنجبت له آردافازت، وكثيرًا غيره من الأولاد لا مجال لذكرهم هنا، لأنّ ذكرهم سيأتي بعد حين، حين يؤون الأوان.

٥١

مقتل اركام واولاده

عندما شبّ آردافازت بن آرداشيس، لاحت عليه علائم الشجاعة والفخر والإباء. إلا أنه حسد أركام علىٰ ما يَنْعَم فيه، فراح يوغر صدر أبيه عليه، ويتّهمه بأنه يطمع في اَغتصاب الملك. وصدّقه آرداشيس وعزل أركام وعيّن آردافازت علىٰ العرش الثاني مكانه. وفي وليمة دعا إليها تكريمًا لآرداشيس،

ظنّ هٰذا أنه يريد أن يغدر به فأوعز إلىٰ أبنائه بٱفتعال شجارٍ في أثناء الوليمة، شدّوا خلالها شعر أركام الأشيب. ولمّا عاد آرداشيس إلىٰ آرداشاد جهّز لٱبنه ماجان كتيبةً من الجيش وأرسله للقضاء علىٰ كلّ أفراد عشيرة موراتسيان. ففعل، وحرق قصر أركام وأسر خليلته التي تتمتّع بجمالٍ أخّاذ ومِشيةٍ ميساء، وٱسمها مانكو، وأحضرها إلىٰ أبيه لتصير عشيقته. بعد عامين، وإمعانًا في إذلال أركام، أعاد له ٱبنته وٱستبقىٰ عشيقته.

بعدما خلع آردافازت أركام عن العرش الثاني، ٱزداد شططًا وٱستولىٰ علىٰ ناخجيفان وكلّ الضياع التابعة لها، من يراسخ إلىٰ الشمال، مع كلّ ما فيها من قصورٍ وقلاع وضمّها إلىٰ ممتلكاته. فضاق أبناء أركام ذرعًا به، وثاروا عليه، لكنه تغلّب عليهم، وقتلهم وأبادهم عن بكرة أبيهم، مع أبيهم وكلّ كبار عشيرة موراتسيان، وصادر ضياعهم وكلّ ممتلكاتهم. ولم ينجُ من العشيرة إلّا بعض الشبّان المغمورين، الذين هربوا ولجؤوا إلىٰ آرداشيس، وٱحتموا عنده في قصره.

هٰذه هي قصة حرب أركام مع آردافازت، علمًا بأنّ ٱسم أركام في الأسطورة هو "آرقفان".

٥٢

صفات سمباد والعمل الذي نفّذه في بلاد آلان وتأسيس مكان إقامته في آرداز

أنا أحبّ الكلام عن سمباد لأنه ـ حسب الأسطورة التي لا يبعد زمنها عن زمننا كثيرًا ـ يتّصف بقامةٍ وأطرافٍ تتلاءم مع شجاعته وحِلْمه الذي

يجذب إليه الألباب، يزينه شعرٌ شائب جميل، وفي عينيه بقعةُ دم صغيرة تلمع برّاقةً كالذهب والجوهر. وكان خفيف الحركة، روحًا وجسمًا، وذا لهفةٍ وحذر من كلّ شيء. كان محنّكًا في أمور الحرب لا يُشَقّ له غبار.

وٱعتمادًا علىٰ صفاته هٰذه وشجاعته، أمره آرداشيس أن يذهب بجنده إلىٰ بلاد آلان، لنجدةِ شقيق ساتينيك، الذي ٱغتُصب مُلكه بعد موت أبيه، وطُرد من البلاد. فقهر سمباد المغتصِبَ، وطرده، وأعاد إلىٰ شقيق ساتينيك ملكه، ثمّ لاحق المعتدي وهدم بلاده، وقاد كلّ من فيها أسرىٰ إلىٰ آرداشيس. فأمر آرداشيس إسكانهم في جنوب شرق ماسيس، في المنطقة المعروفة بٱسم شافارشاكان، وأطلق عليها ٱسمها الأصليّ، آرداز، وما زالت المنطقة تُعرف بهذا الٱسم، آرداز، حتىٰ الآن.

٥٣

خراب بلاد الخزر
والخلاف بين أبناء آرداشيس وبين سمباد
وتنازعهم فيما بينهم

بعد موت آرشاك الآخر ملك الفرس، تولّىٰ ٱبنه آرداشيس عرش المملكة. ولتشابه الٱسمين، رفض سكانُ المنطقة ـ التي تُعرف بٱسم أرض العقاب ـ وسكانُ الخزر المقيمين عند ساحل البحر وغيرهم من سكّان تلك النواحي، حُكم الأرمن. لذا ٱضطرّ آرداشيس إلىٰ الهجوم عليهم مع سمباد لإخضاعهم. بعد سبعة أيام من السير، توقّف آرداشيس وٱستمرّ سمباد وحده، وأخضع المتمرّدين وخرّب بلاد الخزر، وساق أسراهم إلىٰ أرمينية بعددٍ يفوق عدد أسرىٰ آرداز. وكان بين الأسرىٰ زعيمهم المدعو زارتمانوس.

فأنعم آرداشيس علىٰ سمباد نِعمًا كثيرة لقاءَ خدماته ووفائه، ومنحه الأراضي الملكيّة الموجودة في كوغت مع كلّ ضياعها ومنافعها، إضافةً إلىٰ البلاد المخرّبة، ممّا أثار حقد آردافازت وقرّر قتل سمباد، لكنّ نيّته ٱنكشفت قبل تنفيذها. فغضب عليه أبوه، لكنّ سمباد لم يَعد يأمن علىٰ نفسه، فٱستقال من خدمة القصر، ومن قيادة جيش الأرمن التي يطمع فيها آردافازت، وقرّر الرحيل إلىٰ بلاد آشور. فسمح له آرداشيس بالإقامة في دميريك التي تسمّىٰ الآن كورتريك، وأسكن معه فيها عددًا من الأسرىٰ لخدمته، فسكنوا في آلكي. أقام سمباد حيث سمح له آرداشيس، وتزوّج وهو في شيخوخته بٱمرأةٍ آشورية أحبّها كثيرا.

بعد رحيل سمباد تسلّم آردافازت إمارة كلّ الجيوش، وهي المَرْتبة التي كان يطمح إليها. فأثار هٰذا حقد إخوته بتحريضٍ من زوجاتهم. فسارع آرداشيس إلىٰ حلّ النزاع، فعيّن فروير، الذي كان رجلًا حكيمًا، في قيادة ألفٍ من الجند، وأناط به أعمال القصر الملكيّ. وعيّن ماجان رئيسَ كهنةٍ في معبد آرامازت في آني، وقسّم الجيش إلىٰ أربع إمارات: جيش جبهة الشرق وتركه لآردافازت، وجيش جبهة الغرب لديران، وجيش الجنوب لسمباد، وجيش الشمال لزارح. وكان زارح ماهرًا في صيد الوعول لكنه متردّدٌ وبطيء في الحرب، بشهادة من يُدعىٰ كارتسام، الذي يعرف طباعه التي شجّعته علىٰ القبض عليه ـ أي زارح ـ وزجّه في السجن في الناحية التي ٱغتصبها من أرض الكُرْج في القفقاس. فسار إليه آردافازت وديران، وحارباه وحرّرا أخاهما زارح وخلّصاه من سجنه.

٥٤

الحرب في باسيا ضد جيش ميديانوس

برزت قلاقل في الغرب. فاستغلّها آرداشيس فرصةً للخروج عن طاعة الرومان، والتوقّف عن دفع الخراج، ممّا أثار غضب القيصر ميديانوس، فأرسل جيشًا لتأديب آرداشيس، فتصدّىٰ له ديران قائد الجيوش الغربيّة، وآستدرجه إلىٰ غور باسيا الكبير، ودارت معركةٌ زعزعت قوات ديران. فسارع إليه آردافازت لنجدته بجيوش الشرق والشمال، ومع ذلك لم تكن الحرب في صالح أبناء آرداشيس، لذلك آندفع سمباد مع جيش الجنوب، وشدّ علىٰ الرومان، وأنقذ أبناء ملكه من ضيقٍ شديد مع كبر سنّه، ووضع نهايةً للحرب لصالحهم بحنكته وعلوّ همّته وشجاعته، وطارد الرومان إلىٰ ما وراء حدود قيصريّة.

جاءت الأساطير المغنّاة لتقول عن هٰذه الواقعة إنّ "توميد" هو آختصار لآسم القيصر توميديانوس، وهو الآسم الذي أطلقه علىٰ الحملة مع أنه لم يحضر المعركة لا هو ولا جيشه، بل سارت بأمره وحسب.

وفي هٰذا الوقت مات القيصر توميديانوس في روما، من حسن حظّ آرداشيس، فَخَلَفَه نيرفاس الذي لم يحكم سوىٰ سنةٍ واحدة، وأدّىٰ ذلك إلىٰ طمع الأرمن والفرس، فشقّوا عصا الطاعة علىٰ اليونان، وحذا المصريون والفلسطينيون حذوهم، وآنفصلوا عن اليونان، وتوقّفوا عن دفع الخراج.

٥٥

حول افعال درايانوس
وموت ماجان بيد إخوته

في هذا الوقت تولّى الحكم في روما الملك درايانوس، وكان أول ما فعله أن وطّد النظام في الغرب، ثمّ توجّه إلى مصر وفلسطين وأخضعهم، ليتفرّغ للفرس والأرمن. فخاف آرداشيس، وبادر إلى آسترضائه بتقديم الهدايا الثمينة، ودفع خراج السنين الفائتة، وآعتذر له معترفًا بذنبه. فنال عفوه، وترك بلاد الأرمن بسلام، وتابع طريقه إلى بلاد الفرس، ففعل فيهم ما فعل، وعاد عبر بلاد الآشوريين.

في الطريق آستقبله ماجان مستغفِلًا إخوته وأباه قائلًا: *«آعلم أيها الملك، أنك إنْ خرجتَ من البلاد الأرمنية، التي يسيطر عليها آردافازت وديران، من دون أن تعزلهما وتسلّمهما إلى زاره، تكون قد فرّطت في الخراج الذي لن يدفعاه لك فتندم بعد فوات الوقت»*. ولم يفعل ماجان ذلك إلّا حسدًا من سمباد وديران، وطمعًا في أن يجمع في يده مرتبة رئيس الكهنة وقيادة جيش الغرب. لكنّ درايانوس لم يعبأ به، وآنسحب دون أن يغيّر من الأمر شيئًا. ولمّا سمع آردافازت وديران بما فعل أخوهما، قرّرا الآنتقام، ونَصَبا لماجان فخًّا في أثناء الصيد، وقتلاه، ثمّ حملاه ودفناه في مقبرة المعبد بآعتباره رئيسًا للكهنة. ومنذ ذلك الحين عاد آرداشيس إلى دفع الخراج لدرايانوس من دون آنقطاع حتى آخر عمره.

٥٦

عن كيفية تكثيف السكّان في بلادنا وتحديد الحدود

بعد كلّ الأعمال والإصلاحات الحيوية، أمر آرداشيس بتثبيت الحدود في القرىٰ والمزارع، بغية تكثيف السكّان في بلادنا بٱجتذاب أقوامٍ تستوطن الجبال والأغوار والسهول. وبسبيل تثبيت الحدود أمر بنحت حجارةٍ مربّعة الشكل، حَفَر لها في الأرض حفرًا وطمرها فيها، ثمّ ثبّت عليها أعمدةً تعلو قليلًا عن سطح الأرض. وٱقتبس الأمرَ منه ملك الفرس آرداشير بن شاران، وفعل الأمر نفسه في فارس، وأطلق ٱسمه علىٰ العملية قبل أن تحمل ٱسم آرداشيس مبتكرها.

يقولون إنّ عهد آرداشيس تميّز بٱستصلاح كلّ الأراضي في بلادنا الأرمنية، وشمل ذلك الجبال والسهول والأغوار، فتطوّرت وتحسّنت.

٥٧

حول أسلاف الآمادونيين

يُقال إن الآمادونيين قومٌ من شرق بلاد الآريين، كانوا في الأصل يهودًا يتميّزون بضخامة الأجسام. وكان لأحدهم ولدٌ قويٌّ عملاق يُدعىٰ شمشون، سمّاه أبوه "مانو" بهذا الٱسم علىٰ ٱسم جدّه حسب العادة المتّبعة عندهم تيمُّنًا وتفاؤلا. وحقيقة ضخامة أجسام هؤلاء القوم أكيدةٌ حَدَتْ آرشاك إلىٰ أن يُكرّمهم.

وفي عهد زعيم البارتيفيين، الذي صار ملكًا علىٰ الآريين، توسّع هؤلاء القوم حتى وصلوا إلىٰ نواحي آهمدان. علىٰ أنني لا أعرف كيف وصلوا إلىٰ بلادنا، كلّ ما عرفتُه أنهم عندما وصلوا لاقوا ترحيبًا حارًّا عند آرداشيس، الذي منحهم القرىٰ والمزارع، وأطلق عليهم اسم الآمادونيين، أي الوافدين. ويسمّيهم الفرس بـ"المانويين" نسبةً إلىٰ جدّهم الأكبر مانو.

٥٨

حول الآرافيغيين
وكيف جاؤوا إلى ذلك المكان

الآرافيغيون قومٌ من عشيرة آلان من أقارب ساتينيك، لذلك عُدُّوا من جدود الأرمن لانتمائهم إليها. وفي زمن خسرف تصاهروا مع بطلٍ من مهاجري الباسيليين.

٥٩

العلوم والفن في عهد آرداشيس

تمّت في عهد آرداشيس إنجازاتٌ كثيرة، آثرنا أن نوزّعها علىٰ فصول، لكي لا يشعر القارئ بالملل منها. وما نحن بصدده هو الفصل الأخير منها. لأننا بيّنّا، في الفصول السابقة، أنواع الإنجازات والإصلاحات الحسنة التي حقّقها فاغارشاك وغيره من الملوك القدماء وآرداشيس منهم، وإن كانت إصلاحات الأقدمين مقتصرةً علىٰ مكافحة السلب والنهب وتحسين الأوضاع الاجتماعيّة.

وكانوا يجهلون حساب الأسابيع والأشهر والسنين وفصول السنة، ويكتفون بما تحسبه لهم الأمم الأخرىٰ، فلم يعرفوا الملاحة والنقل في البحيرات والأنهار، ولم يصنعوا أدواتٍ للصيد والزراعة، ولم تكن الزراعة معروفةً إلّا في مناطق محدودة، لأنّ طعامهم كان مقتصرًا علىٰ اللحم النيّئ، مثلما يعيش سكان المناطق الشماليّة. إلىٰ أن جاء آرداشيس ونظّم هٰذه الأمور كلّها.

٦٠

موت آرداشيس

طريفٌ ما يحكيه اريسطون الفلاوي عن موت آرداشيس. هو يبدأ برواية ثورة اليهود علىٰ آدريانوس ملك الروم، وتحاربهم مع روبوس يباروس بقيادة رجل أفّاق يُدعىٰ باركوبا، أي ٱبن السماء، وكان شرّيرًا مجرمًا قتل عددًا كبيرًا من الناس، مدّعيًا أنه بُعث من السماء ليخلّص المضطَهدين. وكانت الحرب التي أشعلها سببًا في ٱمتناع الآشوريين والرافديين والفرس عن دفع الخراج للروم، خصوصًا بعدما سمعوا بإصابة آدريانوس بداء الجَرَب، ولم يبقَ علىٰ الوفاء له غير آرداشيس.

وهٰذا ما دفع بآدريانوس إلىٰ المجيء إلىٰ فلسطين لتأديب العصاة، وحصرهم في بلدةٍ قريبةٍ من أورشليم، وأمر بإبعاد كلّ اليهود بحيث لا تقع أنظارهم علىٰ أورشليم. وشرع في إعادة بناء أورشليم التي هدمها فيسباسيانوس وتيدوس وأطلق عليها لقب هيفيا، أي الشمس، وأسكن فيها وثنيّين، ومسيحيّين، وعلىٰ رأسهم أُسقفهم الذي يُدعىٰ مرقس. بعد ذلك أرسل جيشًا عظيمًا إلىٰ آشور، وأمر آرداشيس بالزحف مع خيرة رجاله إلىٰ

فارس، ورافقه المؤرّخ نفسه ليكون كاتبه، وهو الذي قدّم لنا هٰذه الرواية حين قابل آرداشيس في مكان يُدعىٰ سوهود في ماري.

مَرض آرداشيس في مارنت في مقاطعة بكوراكيرد. لذلك أرسل آبيغيا ـ رئيس عشيرة الآبيغيين ـ إلىٰ منطقة يكيفيا، حيث معبد آرديميس في بريزا، ليرجو أصنامه أن تعطيه الصحّة والعافية. لأنّ آبيغو كان فذًّا مُحنكًا حسن البيان. لكن قبل أن يعود الموفد كان الموت قد سبقه إلىٰ آرداشيس. فكتب المؤرّخ يصف مدىٰ حزن الناس علىٰ آرداشيس، وتقدُّم زوجاتِهِ المحبّبات، وخليلاته وخدمه، من جثّته، بالترتيب لا بالتدافع، لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة علىٰ جثمانه. ويُضيف فيقول إنّ نعشه كان مصنوعًا من الذهب، وإنه كان مُسجًّىٰ علىٰ سريرٍ من الديباج، وقد لُفَّ جسده بعباءةٍ نُسجت بخيوط الذهب، وعلىٰ رأسه تاجٌ وبجانبه أسلحته الذهبيّة. ولقد أحاط بنعشه كلّ أولاده، وأقاربُهُ، والقادة العسكريّون، ورؤساء القبائل، والوزراء، وتجمّعت الفِرَق العسكرية، والكتائب بكامل عدّتها، لتحيّة جسد الملك، وآرتفعت أصوات الأبواق النحاسيّة بأنغام حزينة، تنافسها أصوات عويل النساء المتدثّرات بحُلَلٍ سودٍ، تَواكِبُهُنَّ ـ خلفَ حشود المؤبّنين ـ نساءٌ باكيات. وهكذا حملوه ودفنوه مع من ماتوا حزنًا عليه.

وفارق الدنيا بعد حكمٍ دام إحدىٰ وأربعين سنةً، قضاها محبوبًا في كلّ الأوساط.

٦١

استيلاء آردافازت على الملك
ونفيه إخوته واخواته
وموته ملعونا

بعد موت آرداشيس، ٱستولىٰ ٱبنه آردافازت علىٰ العرش. وكان أول ما فعله أنْ طرد كلّ إخوته من آيراراد إلىٰ مناطق آغيوفيد وآربيران، لكي لا يبقىٰ في آيراراد طامعٌ في المُلك. ولم يستبقِ منهم غير ديران، الذي عيّنه نائبًا له، لأنّه لم يُخلّف أولادًا. إلّا أنه، بعد أيام قليلة من ٱرتقاء عرش المُلك، وبينما كان يجتاز جسر آرداشاد ليصل إلىٰ غابات الكينا في رحلةٍ لصيد الظّباء وحُمُر الوحش، أُصيب بنوبة ذهولٍ ذهبت بعقله، فوقع عن حصانه، وتدحرج في هوةٍ عميقة، غاب فيها ولم يظهر له أيُّ أثر.

حول هٰذا الموضوع يُنشد مُغَنّو "كتي" نشيدًا أسطوريًّا، مفاده أنّ آرداشيس كان قد أزهق في عهده أرواحَ كثيرٍ من الناس، قدّمهم قرابين للآلهة حسب العقيدة الوثنية، أغضبت ٱبنه آردافازت، فقال لأبيه حسبما يروون:

انت ذهبت
واخذت معك كلّ ما في البلد،
فكيف اتملّك انا
علىٰ هٰذه الخرائب؟

فرد عليه آرداشيس يلعنه:

عندما تركب لتذهب إلىٰ الصيد
صاعدًا من آزاد إلىٰ ماسيس،
تبقىٰ هناك ولا ترىٰ النور.

تتحدّث العجائز عنه، فيقلنَ إنه بقي مسجونًا في كهفٍ صخريٍّ مقيَّدًا بالسلاسل الحديدية، وهو يحاول الخروج لوضع نهايةٍ لحياته، يساعده كلبان يحاولان قرض السلاسل الحديدية، لكنّ السلاسل كانت تشتدّ قسوةً إثر كلّ محاولةٍ تُسمع فيها أصواتُ مطارقِ الحدادين. لهذا صار الحدادون الآن، يطرقون خمس طرقاتٍ بمطارقهم على السَندان في أيّام الآحاد، لكي يكتسب حديدُهم قساوةً متزايدةً مثلما حدث لآردافازت. لكنّ هٰذه المقولة لا تعدو أن تكون خرافةً، والحقيقة هي ما ذكرنا.

ويقول آخرون إنه تعرّض يوم ولادته، لحادثٍ أوقعه فيه سحرُ نساء من ذريّة آجتاهاك سَحَرْنَه، فأنتقم منهنّ آرداشيس، وعذّبهنّ كثيرًا، حسبما ترويه الأناشيد الأسطوريّة:

لقد آختطفت الأفاعي الطفلَ آردافازت

ووضعتْ مكانه الشيطان.

وهناك روايةٌ لا ندري مدىٰ صدقها، تقول إنه عاش منذ ولادته مدمنًا علىٰ المخدّرات، ومات من الإدمان.

وتولّىٰ المُلك بعده أخوه ديران.

٦٢

ما نعرفه عن ديران

على إثر لعنة آرداشيس التي نزلت بآردافازت وأدّت إلىٰ موته، تولّىٰ عرش الأرمن أخوه ديران بن آرداشيس، في السنة الثالثة من عهد فيروز الأول ملك الفرس. لم يُذكر له أي أثر بطوليّ غير بقائه مواليًا للروم، ومواظبًا علىٰ

رحلات الصيد، واَقتناص الملذّات. ويُذكر أنّه كان يملك جوادين أسرعَ وأخفَّ وأنشطَ من البُراق، حتىٰ قيل بأنهما لا يمشيان علىٰ الأرض بل هما يطيران طيرانًا. لهذا تمنّىٰ الأمير تاداكي من اليزنونيين أن يمتطي أحدَهما، للتباهي أمام الناس بأنه أغنىٰ مِن مَلِكِه.

ويُذكر أن أقرباءه، من عشيرة آرشاكوني، جاؤوا إليه يقولون: *«أعطِنا مزيدًا من الأرض، فلقد تكاثرنا وضاق بنا المكان»*.

وبما أنهم كانوا يسكنون في جهات هاشديانك، أمرهم بأن يذهب بعضهم إلىٰ آغيوفيد وآربيران، ورفض أن يعطيهم مزيدًا من الأرض، وأبلغهم بأنّ عليهم أن يكتفوا بما عندهم يقتسمونه بالتساوي، ولّما لم ينفع إلحاحُهم، وقد ضاقت بهم الأرض، اَضطرّوا إلىٰ الإذعان والذهاب إلىٰ آغيوفيد وآربيران.

يُقال إنّ فتًىٰ من عشيرة آنتسيفاتسيا، يُدعىٰ يراخدافور، نشأ هناك وصار ماهرًا في كلّ شيء، قد تزوّج بآخر زوجات آردافازت التي اَستقدمها من اليونان. تبنّاه ديران لأنّ آردافازت لم يخلّف أولادًا، لِما رآه في يراخدافور من المزايا الحسنة والتواضع والمهارة في كلّ شيء، وولّاه مهمّة العرش الثاني، الذي كان قد اَغتصبه آردافازت، وأوكل إليه مهامّ الجيش الشرقيّ، يعاونه فارسٌ يُدعىٰ ترفاسب من المقرّبين إليه وصهر زعماء فاسبوراكان، كان الملك قد منحه مقاطعة داديونك مع مزارعها، والكرم الوحيد الذي يحيط ببحيرة كايلادفا ينبع منها النبع الكبير. أمّا المَلِك فاَنتقل إلىٰ نواحي يكيغيا وأسّس بلاطه في مقاطعة جرميس، بعدما حكم مملكته إحدىٰ وعشرين سنة بسلام. ومات وهو في طريقه تحت اَنهيارٍ ثلجيّ.

٦٣

عن درتاد باكارادوني
وأسماء كبار عشيرته

كان في عشيرة باكارادوني رجل يُدعىٰ ''درتاد''، آبن سمبادوهي بنت البطل سمباد. وكان رجلًا شرسًا، قاسي القلب، قصير القامة، سيّئ الطباع، صاهره الملك ديران حين زوّجه آبنته الوحيدة. لكنها لم تحبّ زوجها، لأنه كان يعذّبها ويقسو عليها ويذيقها الأمرّين، ومع ذلك رضيت بقدرها، وهي المرأة الجميلة ذات الحسب الرفيع، وعاشت مع هٰذا الرجل القبيح الرديء. إلىٰ أن جاء يومٌ غضب فيه عليها، وضربها ضربًا مبرّحًا، وقصّ لها شعرها الأشقر وآجتثّ ضفائرها، وأمر بسحلها إلىٰ خارج غرفته، وخوفًا من آنتقام أهلها هرب إلىٰ بلاد ماري، متواريًا في الأماكن الآمنة. لكنه لم يتوغّل كثيرًا بعدما عَلم بموت ديكران، وآكتفىٰ بالبقاء في بلاد السونيين.

في أحد الأيّام، دعاه زعيم السونيين إلىٰ الغداء. وبعدما أكلوا وشربوا وآنتشوا وسكروا، وقعت عين درتاد علىٰ آمرأةٍ جميلة جدًّا آسمها نازينيك، تعزف بيديها الجميلتين علىٰ قيثارة، فأُعجب بها، وقال لباكور: «*أريدك ان تعطيني هٰذه الجاريّة*». فردّ عليه باكور: «*لا أعطيها، لأنها خليلتي*». لكنّ درتاد، بما عُرف عنه من سوء الخلق، شدّ المرأة إليه، وأجلسها بجانبه، وراح يُقبّلها بوقاحةٍ وشهوةٍ حيوانيّة أمام الحاضرين. فغضب باكور، وقام ليخلّص خليلته من بين يديه. لكنّ درتاد تمادىٰ في غيّه، وأخذ مزهريّةً تسلّح بها وصار يُهدّد الحضور، وكأنه أوليس جاء من جديدٍ ليُدافع عن بينيلوبيه ويقتل عشّاقها، أو كأنّ حربًا آشتعلت بين اللابيتان والهوشكاباريك في عرس

باريتوس. وهٰكذا، ٱنسحب مع نازينيك، حتىٰ وصل إلىٰ مربط الخيول، وركب حصانًا مع المرأة وذهب إلىٰ سيير. لكن لا ضرورة للحديث عن هٰذا الرجل الشَّبِق.

لكن، ٱعلم أنّ أفراد عشيرة باكارادوني، قد بدؤوا يُغَيِّرون أسماءهم بأسماء غريبةٍ بعدما تركوا دين آبائهم، مثل بوراد ودرتاد وغيرها من الأسماء، وحرّموا علىٰ أنفسهم حمل الأسماء السابقة، وتسمَّوا بأسماء مثل: باكاتيا، دوبيا، سينيكيا، آسوت، باباديا، فارازيا، ينانوس. ويبدو لي أنّ ٱسم باكاراد، الذي يتكنّىٰ به الباكارادونيون، كان في الأصل باكاديا، وآسوت هو آشود، كذلك فإنّ فارازيا قد صار فاراز، وشمباد صار سمباد.

٦٤

كيف كان ديكران الآخر؟
وماذا فعل من الأفعال؟

خَلَفَ ديران علىٰ العرش أخوه ديكران الآخر، وتولّىٰ المُلك علىٰ الأرمن في السنة الرابعة والعشرين من حكم فيروز ملك الفرس. ولقد عاش طويلًا وحكم ٱثنتين وأربعين سنة، لم يُسجِّل خلالها عملًا يُذكر له، غير حادثة المرأة اليونانيّة، التي أسرته بعد موت ملك الروم تيدوس الثاني الملقّب آنطونيوس آغسطس، ممّا جعل ملك الفرس فيروز يطمع في مهاجمة الرومان والٱنتصار عليه، وهٰذا هو سبب تسميته "فيروز" الذي يعني "المنتصر"، وكان يحمل من قبل ٱسمًا يونانيًّا هو فاليكسوس، ولا أعرف ماذا تعني بالفارسيّة.

إذن، عندما ٱجتاح فيروز مناطق الفلسطينيين عبر بلاد الآشوريين، ٱجتاح ديكران من أجله وبأمره بلاد الرافدين، فأسرته إمرأةٌ كانت تحكم هناك وكانت

يونانيّة، في وقتٍ كان القيصر الجديد لوقيانوس يبني معبدًا في أثينا. بعد موت فيروز، حمل القيصر بجيش جرّارٍ علىٰ بلاد الرافدين، فٱجتاحها، وحرّر ديكران وأعاده إلىٰ أرمينية، وزوّجه من قريبته العذراء روبسي. لكنّ ديكران طلّقها بعدما ٱستقرّ في أرمينية، وشكّل من أولاده الأربعة منها عشيرةً سمّاها بٱسم أمهم روبسي لكيلا يحملوا ٱسم آرشاكوني. وعيّن أكبرهم رئيسًا عليهم.

أمّا العشائر الأضعف، فقد أسكنهم ديكران في مقاطعة كورجيك في بلادنا، وهم ـ مع ضعفهم وعدم وجود فرسان بينهم ـ كانوا شجعانًا مخلصين، حاربوا اليهود بكل قوتهم. ويشمل كلامي هٰذا عشائر قبائلِ الفجينيين القديمة المنتمين إلىٰ هايكاز وبعض الوافدين، لا ضرورة لذكرِ كلٍّ بٱسمه أو بعضهم لأنهم غير معروفين في بلادنا. وأغلب الظنّ أنهم لا يُجيدون عملًا، ولا يستقرّون في مكانٍ معيّن يُمكن عن طريقه التعرّف عليهم، لهذا لم أكتب عن هٰذه العشائر التي وطّنها ديكران، ولن أكتب مهما حاولتَ أن تقنعني. لكنني سأكتب عمّن جاء بعدهم من المستوطنين الذين نعرف كثيرًا عنهم بالتأكيد، وقد آلينا علىٰ أنفسنا أن لا نكتب قدر الإمكان شيئًا غامضًا فارغًا، أو رأيًا أو قولًا غير مثبت، وٱعتمدنا كتابة الكلام العادل الصحيح من عند الغير أو من عندنا حسب إمكاناتنا.

وها أنذا أُنهي كلامي في هٰذا الموضوع حسب عادتي، عندما ألمس غموضًا أو أُواجهُ أمرًا يدعو إلىٰ الشكّ. وأرجوك أن لا تفرض علينا كتابة أمورٍ لا خير فيها، مثل كلّ المرات، لكيلا يصبح عملنا العظيم هٰذا موضعَ سخريةٍ ونقد، إذا ما حَشَوْناه بحكاياتٍ تافهة وروايات كاذبة، كثرت أو قلّت، فيصير الأمر وبالًا عليّ وعليك.

٦٥

تملّك فاغارش
وبناء مستوطنة باسين وإحاطتها بسور
الحرب مع الخزر
وموته

بعد موت ديكران تولّىٰ ٱبنه فاغارش، المسمّىٰ بٱسم "فاغارش ملك الفرس"، المُلكَ في السنة الثانية والثلاثين من حكمه. وحالما تولّىٰ المُلك بنىٰ مستوطنةً باسين في ذلك المكان من الطريق، حيث وَلَدَتْه أمّه حين جاءها المخاض وهي ذاهبةٌ إلىٰ آيراراد لقضاء فصل الشتاء. وتقع باسين عند التقاء نهرَي موس ويراسخ. وبعدما أتمّ بناءها سمّاها بٱسمه فاغارشاباد، وأحاطها بسورٍ مثلما فعل فارتكيس بمستوطنته الحصينة التي تقول عنها الأساطير:

ذهب الطفل فارتكيس مهاجرًا
من منطقة دوها قرب نهر كاساخ
وجاء وسكن قرب تلّ شريش
في مدينة آرديميت قرب نهر كاساخ
لكي يدقّ باب المَلِك يرفانت.*

ويرفانت هٰذا هو يرفانت الأول من الساكافاكيين الهايكازونيين، الذي تزوّج فارتكيس أخته، ومن أجلها بنىٰ مستوطنته الشهيرة. وفي هٰذه المنطقة،

* «دقّ باب أحد»: كناية عن الرغبة في المصاهرة. خطب فارتكيس أخت يرفانت، وبنىٰ لها مستوطنةً في منطقة دوها. لم نعثر علىٰ مصدر آخر، غير خوريناتسي، للاسمين: دوها وآرديميت.

التي وَطّن ديكران الأوسط نصف أسرىٰ اليهود، وأصبحت فيما بعد مركزًا تجاريًّا هامًّا، جاء فاغارش وبنىٰ مستوطنةً علىٰ غرارها في المنطقة عينها، وأحاطها بسورٍ وأبراج عاليةٍ، وسمّاها فاغارشاباد، وأطلق عليها بعضهم اسم المدينة الجديدة. ومات بعد عشرين عامًا من الحكم. إنه لم يعش طويلًا مثل غيره، ولكنّ سيرته الحسنة جعلت الناس يذكرونه زمنًا طويلًا، علىٰ غير ما يجري مع الملوك التافهين.

في عهده جاءت حشودٌ غفيرة من شعوب الشمال المؤلّفة من الخزر والباسيليين من باب جورا*، غازيةً، بقيادة من يُدعىٰ فاناسيب سوهاب. ولمّا عبروا نهر كور، تصدّىٰ لهم فاغارش بعددٍ كبيرٍ من المحاربين الأشدّاء، وفتك بهم، وترك جثث قتلاهم في ساحة المعركة، وطرد الباقين عبر ممرّ جورا. لكنهم عادوا وكرّوا عليه عند الممرّ المذكور، فصدّهم أبطاله، لكنّه قُتل بسهام الرماة من الأعداء.

فَخَلَفه علىٰ العرش ٱبنُه خسرف، في السنة الثالثة من حكم أردافان ملك الفرس. فجمع شتات القوات الأرمنية، وداهم الجبل الكبير ليثأر لأبيه، وٱنتصر عليهم بالسيف والرمح، وقضىٰ علىٰ قوّة تلك الشعوب، وفرض عليهم أن يرفع كلٌّ من زعمائهم رايةً تشير إلىٰ خضوعهم له، ورفع نُصُبًا تذكاريًّا كتب عليه باللغة اليونانيّة كتابةً تشير إلىٰ ولائه للروم.

* الخزر والباسيليون: شعوبٌ كانت تعيش علىٰ ضفاف نهر الفولكا. كانوا يغزون بلاد القفقاس، عن طريق ممرّ جورا المحصور بين سلسلة جبال القفقاس وبحر قزوين.

٦٦

من الذي يحكي عن هذه الأمور؟

حكىٰ لنا عن هٰذه الأمور بارتادزان من يتيسيا، وقد عُرف مؤرّخًا في عهد آنطونينوس الأخير، وتتلمذ علىٰ عقيدة فاليميديانوس. لكنه ترك تلك العقيدة لعدم اقتناعه بها. ولم يدخل في المسيحية، بل ابتدع لنفسه دينًا جديدًا. إنه لم يكذب في ذكر الوقائع التاريخيّة، وكان جسورًا إلىٰ حدّ كتابة رسالةٍ إلىٰ آنطونينوس يندّد فيها بعقيدة الماركيونيين وبعبادة الأوثان في بلادنا. ولمّا لم يجد صدًىٰ لبشارته سار إلىٰ حصن آني، وهناك كتب عن تاريخ العبادات المختلفة، وعن أعمال الملوك، إضافةً إلىٰ شخصيّاتٍ مرموقة في زمنه، نقلها إلىٰ اللغتين الآشورية واليونانية. يحكي في كتابه عن عبادة الأوثان، وحكىٰ عن ملك الأرمن ديكران الأخير، وكيف كرّم قبر أخيه ماجاك، رئيس الكهنة، في باكافان في منطقة باريفانك، وبنىٰ فوقه مذبحًا لكي يستفيد من قرابينه كلُّ العابرين وأبناء السبيل، ومهجعًا يستقبل ضيوفًا لقضاء الليل. وجاء فاغارش، وزاد عليه بأن بدأ يحتفل بعيدٍ سنويٍّ عنده في أول شهر نافاسارت من كلّ عام.

لقد نقلنا لك هٰذه الرواية عن هٰذا الرجل، وكتبنا المجريات منذ ملكيّة آردافازت وحتىٰ حين أقام خسرف صنمًا.

٦٧

خلاصة ما رواه آكاتانكيغوس

لقد ذكرنا أنّ الملك فاغارش قد خلّف ٱبنه خسرف جدَّ القديس درتاد الكبير. فكتب عنه وعن قومه، آكاتانكيغوس، كاتب درتاد، بقليلٍ من الإيجاز، مع شيءٍ قليلٍ عن وفاة ملك الفرس آردافان، ونهاية حكم البارتيفيين علىٰ يد آرداشير بن ساسان، وإخضاع الفرس لسيطرته، ومطالبة خسرف بثأر أبيه درتاد، ومحاصرة بلاد الفرس وآشور وتدميرها.

بعد ذلك يقول إنّ خسرف أَوفد رسولًا إلىٰ بلاده الأصلية، في نواحي الكوجانيين، يطلب من أبناء قومه المبادرة إلىٰ مساعدته لمواجهة آرداشير، لكنهم ـ كما يقول ـ لم يلبّوا طلبه، لأنهم كانوا راضين عن إدارة آرداشير أكثر من رضاهم عن إدارة الإخوة وأبناء الأمة الواحدة، ولأنه ٱنتقم لنفسه من دون علمهم، وأضاف بأنّ خسرف دأب، خلال عشر سنواتٍ، علىٰ تخريب بلادهم حتىٰ جعلها قاعًا صفصفا. ثم يحكي عن مجيء آتاكي الشرّير، الذي ٱنبهر بوعد آرداشير الذي جاء فيه: *«سأعيد إليكم بلادَ مَلِكِكم الأعلىٰ المحترم، وأشرِكك بحمل التاج الثاني»*. فتحمّس آتاكي، وأخذ علىٰ عاتقه مهمّة قتل خسرف.

ومع أنّ آكاتانكيغوس قد حكىٰ بإيجاز عن هٰذه الشخوص، إلّا أنني أريد أن أكتب عن تاريخ هٰذا الزمان وبدايته بالتفصيل، ٱستنادًا إلىٰ الكثير من الوثائق الصادقة.

٦٨

عن الأقوام الملكية
التي انبثق منها قوم البارتيفيين

بيّنَ لنا الكتاب المقدّس أنّ آبراهام هو الأب الواحد والعشرون بالتسلسل بعد آدم، وقد سبقه قوم البارتيف. يقول الكتاب المقدّس إنّ آبراهام قد تزوّج بقطورة* بعد وفاة سارة، فوَلَدت له عمران وإخوته الذين أرسلهم إلىٰ أرض الشرق، وٱستبقىٰ عنده ٱبنه إسحق في حياته. من هؤلاء الإخوة جاءت عشيرة البارتيف، التي نَسَلَ منها البطلُ آرشاك، الذي ٱنتصر علىٰ المقدونيين وٱستولىٰ علىٰ بلاد كوشان، وظلّ يحكمها واحدًا وثلاثين عامًا، وحكمها من بعده ٱبنه آرداشيس ستّةً وعشرين عامًا، ثمّ تلاه ٱبنه آرشاك الذي لُقّب بالكبير، لأنه قتل آنديوكوس، ونصّب أخاه فاغارشاك ملكًا علىٰ الأرمن، وأنعم عليه برتبة نائب الملك، ورحل إلىٰ السهل الجنوبيّ، وٱستقرّ في الحكم هناك ثلاثًا وخمسين سنة، وسُمّي قومه بالبهلويين، بينما سُمّيت ذرّية فاغارشاك بٱسم جدّهم آرشاكوني.

إليك تسلسل ملوك البهلويين:

آرشاك الكبير،

ورثه آرشاكان في السنة الثالثة عشرة من حكم فاغارشاك ملك الأرمن، ودام حكمه ثلاثين سنة،

* راجع سفر التكوين، ١٧، ٧ و ١٧، ١٧ و ٢٧، ٢ من الكتاب المقدّس.

ثمّ آرشاناك إحدىٰ وثلاثين سنة،

بعده آرشيز عشرين سنة،

تلاه آرشافير ستًّا وأربعين سنة، وكان له ثلاثة أولاد وبنتٌ واحدة، البكر فيهم ـ كما ذكرتُ ـ يُدعىٰ آرداشيس، والثاني كارين، والثالث سورين، وتُدعىٰ البنت كوشم.

لمّا مات الأب فكّر آرداشيس في أن يجعل الحكم وراثيًا في ذرّيته، ولمّا لم يرضَ الإخوة بذلك أهانهم وشتمهم وهدّدهم، فتدخّل آبكار لحلّ الخلاف، وجعلهم يوثّقون اتفاقًا بينهم، بيمينٍ تقضي بأن يحكم آرداشيس وأولاده، حتىٰ إذا لم يبقَ أحدٌ من أولاده، ينتقل المُلك إلىٰ الإخوة حسب ترتيبهم المعروف. وبعد أن أخذ آرداشيس منهم هٰذا العهد، أقطعهم ضياعًا وأسّس منهم أُسَرًا نبيلةً، كلّ واحد بٱسمه، جاعلًا مرتبتهم فوق كلّ العشائر الأخرىٰ، إضافةً إلىٰ ٱسم العشيرة الأولىٰ. وهٰكذا عُرفوا بٱسم كارين بهلوي وسورين بهلوي، أمّا البنت فنُسبت إلىٰ القائد بهلوي، لأنها تزوّجت بالقائد العام للجيش وهو بهلويّ أيضًا. وظلّوا علىٰ هٰذا الترتيب سنين طويلةً حتىٰ ٱنتهت إدارتهم.

إنك لن تتّهمنا بالثرثرة طبعًا، لأنّا كرّرنا ما ذكرناه سابقًا، ذلك أننا أردنا أن يُكوِّن القارئ فكرةً عن أصل لوسافوريتش.

٦٩

اخبار عشيرة آرداشيس ملك الفرس من البداية إلى النهاية

لننتقل الآن إلىٰ تسمية الملوك من نسل آرداشيس حتىٰ نهاية حكمهم. فكما قُلنا من قبل، بعد آرشافير مَلَكَ آرداشيس أربعًا وثلاثين سنة، ثمّ

تارح ثلاثين سنة، آرشاك تسع عشرة سنة، آرداشيس عشرين سنة، فيروز أربعًا وثلاثين سنة، فاغارش خمسين سنة، آردافان إحدىٰ وثلاثين سنة، قتله آرداشير سداهراتسي بن ساسان، حين قضىٰ علىٰ مملكة البارتيفيين وٱحتلّ أرضهم وجعلها وراثية.

لقد كتب كثيرٌ من المؤرّخين عن هٰذه الحقبة من الزمن، نذكر منهم عددًا من الفرس، وعددًا من الآشوريين واليونان، نظرًا للعلاقة التي كانت قائمةً بين البارتيفيين والرومان، إمّا بالخضوع أو بالحرب، كما يحكي الرواة: باليبادوس، بوربور، فيلمون، وغيرهم، لكننا آثرنا أن ننقل عن كتاب برصوما الذي زوّدنا به خوروبود.

٧٠

ماذا تقول الأساطير عن البهلويين ؟

كان خوروبود هٰذا كاتمًا لأسرار ملك الفرس شابوه، الذي أسره اليونان يوم غزا هوليانوس مع بارابادوس ديزبون بجيشٍ عظيم. بعد موت شابوه جاء إلىٰ اليونان مع هوبيانوس ورجال الحاشية، فٱعتنق ديننا وتسمّىٰ بٱسم أليعازر، وتعلّم اليونانية وكتب قصة شابوه وهوليانوس.

كما كتب كتابًا يتضمّن ترجمةً لتاريخ الأقدمين، كتبه زميلٌ له يُدعىٰ برصوما، ويسميّه الفرس "راسدسوهون"، فأخذنا منه ما أخذناه، وكرّرناه هنا مهملين مدلوله الأسطوريّ، لأننّا نرى أنّ تكرار الأساطير لا محلّ له هنا، من مثل: *حلم باباك، التهاب النار المسحورة في ساسان، فواح الرائحة، الهلال، المنجّمون، أي كشف الغيب عند السحرة ومن ثَمّ الأحداث، أعمال آرداشيس الشريرة ومنها القتل، تأويلات البنت الساحرة عن برج الجَدي وكلّ ما يتبعه،*

إضافةً إلىٰ العنزة التي أرضعت الطفل في عشّ النّسر، حكمة الغراب، الذئب يحرس الأسد المبجّل، المبارزة والشجاعة، وكلّ ما ينتمي إلىٰ الخرافات.

نحن نكتب ما هو صادقٌ فقط والروايةَ المتّسمة بالحقيقة.

٧١

غزوة خسرف الأولى الى آشور رغبةً في مساعدة آردافان

بعدما قَتل آردافان بن ساسان، تولّىٰ العرش الملكُ آرداشير. ومع أنّ المُلك كان من حقٍّ آرداشيس، إلّا أنّ أسرتين من البهلويين، هما أسرة آصباهابيد وأسرة سورين، رغبتا بتولّي آرداشير. إلّا أنّ الفخذ الثاني من البهلويين، وهم أسرة كارين، لم يَرضَوا عن هٰذا التدبير، وأعلنوا الحرب علىٰ أبناء جلدتهم وقرابتهم.

ولمّا سمع خسرف ملك الأرمن بهذه الأخبار، سارع إلىٰ نجدة آردافان بن ساسان وإنقاذه، إلّا أنه وصل متأخّرًا، لأنّ آردافان كان قد قُتل قبل وصوله إلىٰ بلاد الآشوريين، ووجد جيوش الفرس وقوّات القبائل من البارتيفيين والبهلويين، مسيطرةً علىٰ الموقف. لذا لم يبقَ لديه ما يفعله إلّا أن يُرسل وفدًا للتعزية.

وعاد إلىٰ بلاده حزينًا، وعمد من فوره إلىٰ إبلاغ القيصر فيليبوس، وطلب منه العون.

٧٢

وإذ تلقى خسرف العون من فيليبوس
أعلن الحرب على آرداشير

كانت الاضطرابات تعمّ البلاد في مملكة فيليبوس، لذلك لم يتمكّن من التخلّي عن جنوده لنجدة خسرف، لكنه أعانه برسائل وجّهها إلىٰ عمّاله في المقاطعات الأخرىٰ وأمرهم بمساعدته. وبهذا الأمر تلقّىٰ نجداتٍ من مصر الصحراوية، ومن جهات بحر بندوس. ولمّا اجتمعت الجيوش عنده توجّه بها نحو آرداشير، وأجبره علىٰ الفرار، وأخذ منه بلاد الآشوريين، وغيرها من البلاد التي كانت تحت حكمه.

وأرسل مرةً أخرىٰ وفودًا إلىٰ قومه من البارتيفيين والبهلويين، وإلىٰ كلّ قوّات بلاد كوشان يطلب منهم المجيء إليه، للاتفاق علىٰ الثأر من آرداشير، ولكي يُعطي المُلك من بعده لمن يستحقّه منهم، حرصًا علىٰ عدم خروج السلطة منهم. لكنّ الأسرتين المذكورتين أعلاه، أي أسرة أصباهابيد وأسرة سورين البهلوي، لم توافقا علىٰ ذلك، لذا عاد خسرف إلىٰ بلادنا غير راضٍ عن النصر الذي حقّقه، وصَعُب عليه أن يحارب أقاربه وجهًا لوجه.

في هٰذا الوقت عاد بعض أولئك الرسل، الذين كانوا قد ذهبوا إلىٰ أكثر الأقوام شرقًا في أقصىٰ الأرض بالمهمّة نفسها، ينبئونه أنّ قريبه ماجاك، مع عشيرته من بهلويّي كارين، لم يخضعوا لآرداشير، وأنهم قادمون إليه بناء علىٰ ندائه.

٧٣

هجوم خسرف مرّة اخرى على آرداشير دون مساعدة الروم

فرح خسرف كثيرًا لنبأ قدوم أقربائه إليه، لكنّ ا لفرحة لم تَدُم طويلًا لأنّ آرداشير عاد فجمع جيشًا عظيمًا، وقطع الطريق علىٰ قوات كارين بهلوي وأبادهم عن آخرهم، ولم يراعِ حرمة الشيوخ والنساء والأطفال، ولم ينجُ من سيفه غير طفل صغير، خلّصهَ أحدُ مواليه وآسمه بورز، حمله إلىٰ ديار كوشان وسلّمه إلىٰ أحد أقاربه الأقوياء. ولم تفلح محاولات آرداشير في آسترداد الطفل، لأنّ أبناء عشيرته رفضوا تسليمه رفضًا قاطعًا، إلىٰ أن أقسم آرداشير قسمًا مغلّظًا بأن لا يُلحِق الأذىٰ بالولد. نسج الفرس آلاف الأساطير حول هٰذه الحادثة، فقالوا إنّ الحيوانات المفترسة الخرساء قامت علىٰ حراسته. أمّا الصبي فهو فيروزاباد، جدّ عشيرة كامساراكان، وسنحكي عنه فيما بعد.

لكنّ ما حصل، بعد القضاء علىٰ أسرة كارين بهلوي، هو أنّ خسرف قرّر الآنتقام لهم بشدّة. ومع أنّ القيصر فيليبوس قد مات، وترك وراءه آضطرابات علىٰ مَن يتولّىٰ كرسيّ الملك، وصار الواحد يُطيح بالآخر، لذا لم يتمكّن القياصرة، ديكيوس وكاللوس وفاليريانوس، من مساعدة خسرف، لذلك قام، مع جيشه وقوات أنصاره ومحبيه، بالإغارة علىٰ آرداشير، وآنتصر عليه، وظلّ يطارده مع فلول جيشه حتىٰ بلاد الهند.

٧٤

حول مجيء آناك
ورسالة القديس كريكور

وهكذا، وبعدما لجأ آرداشير إلىٰ الهند هاربًا، تضايق خسرف، ووعد بأن يمنح شرفًا كبيرًا لمن يخلّصه منه بقتله بالسّم أو بحدّ السيف، وقال: *«تستطيعون أنتم، أيها البارتيفيون، بحكم قرابتكم له، أن تجعلوه يرتاح إليكم ويثق بكم، فتدخلوا عليه وتقتلوه»*. ووعدهم بالمقابل بأن يعيدهم إلىٰ موطن البارتيفيين الأصليّ، الذي كان يُسمّىٰ بسهل المدينة مقرّ الملك، إضافةً إلىٰ بلاد الكوجان، ووعدهم بالحُلل الثمينة، والشرف الملكيّ الرفيع، ونصف بلاد الآريين، وأن يجعلهم نوّابًا له تحت إمرته.

حيال هٰذه الإغراءات، أخذ "آناك"، من أسرة سورين بهلوي، علىٰ عاتقه قتل خسرف. وادّعىٰ، للتمويه، بأنه شريدٌ هارب من آرداشير تطارده القوات الفارسية، كأنهم يطاردون هاربًا إلىٰ آشور، وظلّوا يلاحقونه إلىٰ قلب كورتوك عند الحدود الآزربايجانية. عندما سمع خسرف بالخبر ظنّ أنهم من الكارينيين، وكان في منطقة أوديا، فأرسل كتيبةً لمساعدة آناك. ولمّا عثروا عليه، أخذوه ـ بناءً علىٰ أمرِ الملك ـ إلىٰ المقاطعة التي تُدعىٰ آرداز في بقعة سهليّة، هي التي ظهرت فيها كرامات قديسنا ورسولنا الكبير تدّوس.

سمعتُ أحد كبار السنّ يقول: *«لقد سمعتُ هٰذه الحكاية التي انتقلت إلينا عن الآباء والأجداد، مثلما انتقل الحديث عن أوليمبيودور وعن جبل دارون وسيم»*.

إذن، حين كان آناك يعيش في سهل آرداز، اتفق له أنّ مكان نومه كان في

القسم الداخليّ من هيكل المعبد قرب قبر الرسول المقدّس. يقولون: *إنّ لوسافوريتش المقدّس العظيم، قد بُعِث رسولاً في هٰذا المكان*. لذلك نال بركة الربّ، ووجد فيه مكان ٱستراحته، وأكمل ثقافته الروحيّة.

قضىٰ آناك عامين في أرمينية، وفي العام الثالث تمكّن من قتل خسرف، بعد حكم دام ثماني وأربعين سنة.

ومات آناك، مع كلّ من يَلوذ به بعده. إنّ حِفْظَ الله ورعايته هي التي نورت رَحِمَ أمه، وبإذن الله أنجبت خير مخلوق، وكُلِّل وليدها بالمهمّة الرسوليّة.

أمّا ما عدا ذلك فقد رواها لك آكاتانكيغوس.

٧٥

الفسقيفوس برميليانوس كيساراتسي كاباتوفكي وحكايته

كان الفسقيفوس برميليانوس كاباتوفكي مُولعًا بالدراسة منذ صغره، وذهب في سبيلها وهو فتىً ليدرس علىٰ يد فوريكينيس. له مؤلفاتٌ كثيرة أهمّها: قصة معاداة الكنيسة في عهد مكسيميانوس وديكوس وأواخر أيام ديوكليديانوس، وقصصٌ أخرىٰ عن أعمال كثيرٍ من الملوك.

يقول في قصته هٰذه أنّ الفسقيفوس السادس عشر عند الاسكندريين، كان بطرس الذي ٱستشهد في السنة التاسعة من بدء العداوة. ويكتب أيضًا عن كثيرٍ من الناس في بلادنا ٱستُشهدوا بيد خسرف. وٱستُشهد غيرهم بيد غيره. لكنه لا يسرد الأمور بالتسلسل والترتيب، ولا يذكر أسماء الشهداء وأماكنهم. لذلك لم نرَ ضرورةً للزيادة في التفصيل. ويكتب: أن انطونيوس ابن

سيفيروس قد تحارب في بلاد الرافدين مع فاغارش ملك الفرس، وقتل بين يتيسيا وخاران، ولم يتحيّز خسرف إلىٰ أيٍّ من الطرفين في هٰذه الحرب.

أمّا ما يحكيه عن الحقبة التي تلت موت خسرف وتملك درتاد، فسنوجزه لكَ بأقوالٍ مقتضبة نظرًا لتأكّدنا من صحته. أمّا ما جرىٰ في زمن درتاد، وما بعده، فقد حكيناه لك وللتاريخ بعدما تأكّدنا من صحّة المخطوطات، والدواوين اليونانية، وممّا نقله غيره من علماء اليونان، ومن المتكلّمين باليونانية، لم نخطئ سهوًا أو عمدًا، ولم ننسج الأحداث من خيالنا.

٧٦

هجوم آرداشير علينا وتغلّبه على داكيدوس

يقول الرجل نفسه، إنّه بعد مقتل خسرف اتّفق كبار الأرمن علىٰ طلب العون من اليونان، بجيوشها الموجودة في بروسيا لمواجهة الفرس والدفاع عن بلاد الأرمن، وأخبروا القيصر فاليريانوس بذلك. لكنه لم يتمكّن من تلبية النداء، لأنّ جيوشه كانت قد عبرت الدانوب، واستولت علىٰ كثيرٍ من البلاد ونهبت جزر كوكلاند، ولم يتمكّن بعد ذلك من فعل شيء، لأنّ مدّة حكمه كانت قصيرةً، مثل غيره من القياصرة الذين جاؤوا من بعده وهم: كلافيدوس وآفريليانوس، ثمّ الإخوة كوندوس وداكيدوس وبلوسيانوس، الذين لم يستمرّ حكم الواحد منهم أكثر من أشهرٍ معدودة.

وهٰذا ما شجّع آرداشير علىٰ غزو بلادنا، ودحر الجيوش اليونانية، والاستيلاء علىٰ قسم كبير من أرضنا، ممّا حدا كبارَ الأرمن إلىٰ النزوح مع عشيرة آرشاكوني إلىٰ بلاد اليونان. وكان فيهم آردافازت بانتاكوني، الذي حمل

درتاد ٱبن خسرف وأرسله إلىٰ باب القيصر. وعليه ترتّب علىٰ داكيدوس أن يشنّ هجومًا علىٰ آرداشير في نواحي البونديين، وعلىٰ أخيه فلوريانوس أن يشنّ هجومًا آخر علىٰ كيليكيا بكتيبةٍ أخرىٰ، لكنّ آرداشير هزم داكيدوس عندما تقابل الجيشان، وقتله أعوانه داخل أرض البونديين، كذلك قُتل أخوه فلوريانوس في المعركة بعد ثمانية وثمانين يومًا من الحكم في دارسون.

٧٧

معاهدة صلح بين الفرس واليونان وامر آرداشير بترك بلادنا اعواما بلا حاكم

لكنّ بروبوس، الذي ٱعتلىٰ عرش اليونان بعد ذلك، عقد معاهدةَ صلحٍ مع آرداشير ٱقتسم بموجبها معه بلادنا، وحفر خندقًا حول نصيبه منها لتمييزه. وهاجم آرداشير من جهته، مواقع النبلاء المتمرّدين عليه، وأجبرهم علىٰ العودة إلىٰ الداخل، وأسكنهم في أماكنَ حصينةٍ لا تمكّنهم من الخروج عليه كرّةً أخرىٰ، إلّا واحدًا لم يتمكّن من الوصول إليه، هو أودا، واحدٌ من كبار عشيرة الآمادونيين، وصهر عشيرة السلكونيين، الذي أنقذ خسروفيتوخد، ٱبنةَ خسرف، وأسكنها في حصنِ آني كملجإٍ أمينٍ لها.

ولكن علينا أن لا نُنْكر أنّ آرداشير قد نظّم بلاد الأرمن تنظيمًا حسنًا وهي تحت سلطته، وأعاد إلىٰ النبلاء ٱمتيازاتِهم السابقة، ومنهم الآرشاكونيون الذين أُجبروا علىٰ التخلّي عن العرش والإقامة في آيراراد. فثبّتهم في أماكنهم، وأمّن لهم دخلًا كافيًا، وأغذية كالتي كانوا يتمتّعون بها من قبل، إلّا أنه أعاد عبادة الأصنام وأمر بحزمٍ بالإبقاء علىٰ النار المقدّسة مشتعلةً في معبد باكافان، وبتحطيم تلك التماثيل، التي كان فاغارشاك قد أوعز بنحتها علىٰ صُوَر

أجداده، وصُوَر الشمس والقمر التي كانت في آرمافير ونُقلت إلىٰ باكاران، وبعدها إلىٰ آرداشاد. كما فرض علىٰ بلادنا دفعَ الخراج ووضع ٱسمه علىٰ كل منشآته. وأوعز بغرس أعمدةٍ في الخندق الذي حفره علىٰ طول الحدود، وتسميتها بٱسمه، وصارت تُعرف بٱسم آرداشيراكان. وكلّف عمالًا له من الفرس حكمَ بلادنا. وكأنها جزءٌ من بلاده مدّة ستٍّ وعشرين سنة.

وتلاه ٱبنه المسمّىٰ شابوه، أي ٱبن الشمس، حيث حكم سنةً واحدة إلىٰ أن جاء درتاد، وٱستعاد مُلك قومه.

٧٨

إبادة عشيرة مانتاكوني بيد آرداشير

وكان آرداشير قد علم بأنّ واحدًا من نبلاء الأرمن، قد خلّص أحد أبناء خسرف، وتركه ربيبًا عند قيصر الروم، فأمر بإبادة كلّ أفراد تلك الأسرة، حانثًا بوعده ـ بعدما أمّنهم من خوفهم منه وأعادهم ليُسكِنهم مع باقي النبلاء ـ ولم ينجُ منهم غير شخصٍ واحد يُدعىٰ داجاد من أسرة آشوتسان، كان قد هرب مع عذراء جميلة من بنات آرداڤازت ـ وهو من سُلالة هايكاز كوتشار ـ أُعجب بجمالها الفتّان، وهرب بها، وتزوّجها في مدينة كيساريا، أي قيصريّة.

٧٩

اعمال درتاد البطولية في أرمينية
في أثناء غياب السلطة

ويتحدث المؤرّخ عن أعمال درتاد البطوليّة، فيقول:

إنه كان مغرمًا منذ طفولته بركوب الخيل، ولمّا كَبِر صار فارسا بارعا، قويًّا ماهرًا في ٱستعمال السلاح وفنون الحرب. وبناءً علىٰ أوامر هيبيديا* صارع كليدوسدادوس البروتاتسي وصرعه، مستحكمًا علىٰ رقبته، وصرع معه كيراسوس آركياتسي الذي كان قد ٱقتلع قرن ثور، فبزّه درتاد، فٱقتلع قرون ثورَين وحشيَّين بيدٍ واحدة، ولفّ يده علىٰ عنقه حتىٰ صرعه. وفي المنافسة الكبرىٰ، وفي أثناء سباق الخيل، قفز قفزةً عالية رائعة، وتقلّب في الهواء، ثمّ نزل فوق العربة، وأمسك بمِقْود الخيول، وأوقفها أمام دهشة الحاضرين.

عندما كان بروبوس يُحارب الكوت، نَفِدَ الغذاءُ عند الجنود، فٱجتمعوا عليه، وقتلوه مع كلّ من صادفوه من النبلاء. فتصدّىٰ لهم درتاد وحده، ولم يسمح لهم بالٱقتراب من مقرّ ليكيانوس الذي كان يعمل في خدمته. إلا أنّ كاروس، مع ولديه كارينوس ونوميريانوس، ٱتّحدوا وجمعوا جندًا، وحاربوا ملك الفرس، وبعدما غلبوه عادوا إلىٰ روما. ولجأ آرداشير إلىٰ صحراء داجكستان، وطلب المساعدة من كلّ الأمم الموالية له، ممّا أجبر كاروس وولديه علىٰ العودة

* هو إيبيديا وليس هيبيديا، إليه يُنسب تنظيم الألعاب الأوليمبية، ومعه يُذكر المصارعان كليدوسدادوس وكيراموس، اللذان تصارعا ـ حسبما جاء في مدوّنات يفسيريوس ـ حتىٰ الموت.

لمحاربته في جبهتين. في أثناء القتال على ضفّتي الفرات، قُتل كاروس في هريبون، أمّا كارينوس فذهب مع درتاد إلى الصحراء لمهاجمة آرداشير في كورناك، لكنه قُتل هو الآخر ولاذ جيشه بالفرار. ولم يتمكّن درتاد من الهروب لأنّ حصانه أُصيب بجروح، فتركه، وحمل عدّته وعدّة حصانه، وعَبَر الفرات العظيم العميق سابحًا، حتى وصل إلى معسكر جيشه حيث كان ليكيانوس.

في الأيام نفسها قُتل نوميريانوس في تراقيا، وتولّى المُلك من بعده ديوكليديانوس.

أمّا أعمال درتاد البطوليّة فقد حكاها لك آكاتانكيغوس.

٨٠

معلومات موجزة عن رسالة القديس كريكور مستقاة من ورقة من الفسقيفوس آرديتيس ردًا على تساؤل مرقس المعتزل في هاكروجان

ظهر في فارس رجلٌ معتبر مشهور اسمه بورتار، جاء إلى نواحي كاميرك وأقام في كيساريا، واتّخذ له زوجةً من المؤمنين اسمها صوفي، هي أخت وجيهٍ يُدعى يفتازيوس، وعاد بها إلى بلاد فارس. فلحق به يفتازيوس ليقنعه بالعدول عن الإقامة في فارس، والعودة إلى كيساريا. وشاءت الظروف أن تتمّ ولادة لوسافوريتش في أثناء وجود صوفي هناك، حيث قبلت القيام بمهمّة إرضاعه. ولمّا انتشر في المكان وباءٌ قاتل، اصطحب يفتازيوس أخته وزوجها والولدَ الرضيع إلى بلاد كاباتوفكا. وفي يقيني الذي أومن به، أنّ تلك المصادفة جاءت برعاية الله وإرادته، لكي يجعل البهلويين يقبلون بترك طفلهم يذهب إلى مملكة الرومان لينشأ نشأةً مسيحيّة.

عندما صار الولد شابًّا، صاهره رجلٌ مؤمن، ٱسمه دافيد، بتزويجه ٱبنته التي تُدعىٰ مريم. لكنّ هٰذا الزواج لم يَدُم طويلًا، لأنّ الزوجين ٱنفصلا بالتراضي، بعد ثلاث سنواتٍ من الزواج رُزقا خلالها بولدين. فترهّبت مريم، ودخلت مع ولدها الأصغر دير الراهبات. ولمّا شبّ هٰذا الولد تبع مذهب المعتزلة تحت ٱسم نيكوماكوس، وذهب إلىٰ الصحراء. أمّا البِكْر فبقي عند مربّيه، ومن ثَمّ دخل الدنيا وتزوّج. بينما لحق أبوهما كريكور بدرتاد، ليكون في خدمته في التعلّم وفي تعمّق الثقافة المسيحيّة، ليتسلّم بعد ذلك مهمّة الرسالة بنشر الدين المسيحي في بلادنا، ويصير مُبشّرًا ورئيسًا للكهنة فيها، وينضمّ بعد ذلك إلىٰ قافلة الشهداء.

العجيب في أمر هٰذا الرجل العظيم وولديه، أنه لم يسأل عنهما، ولا هما سألا عنه، حتىٰ بعد عودته إلىٰ البلاد مع درتاد، علىٰ الرغم من عيشة الشَّظَف التي كانا يعيشانها، وعلىٰ الرغم من جاه أبيهما بعدما صار لاهوتيًّا رسولا. لم يبقَ كريكور طويلًا في كيساريا، بل ذهب إلىٰ يتيسيا ليستزيد من العلم فيها، ويكون أهلًا لحمل الرسالة. يتّضح ممّا ذكرنا، أنّ الولدين لم تكن عندهما نيّةُ السؤال عن أبيهما، حتىٰ لو بقي في كيساريا، لأنهما آثرا حياة التنسُّك ولم يحاولا السعي وراء الجاه، بل تركا الجاه يسعىٰ إليهما، حسبما حكىٰ لكَ آكاتانكيغوس.

٨١

من اين وكيف جاء قوم ماميكونيان؟

بعدما مات آرداشير بن ساسان، بقي عرش مملكة الفرس شاغرًا إلىٰ أن شغله ٱبنه شابوه. يُقال إنّ الجَدّ الأكبر لقوم ماميكونيان، جاء في عهده إلىٰ

أرمينية من جهة الشمال الشرقي، ووضع أساس أسرةٍ عُرف رجالها بالشجاعة والسيادة، وصاروا الأوائل في الشمال كلّه، حسبما أُشيع عنهم من حديثٍ في بلاد الصين، منبتهم.

في آخر سنوات حياة آرداشير، ظهر رجلٌ يُدعىٰ آربوك جين باكور*، وهو لقبٌ ملكيّ بلغة الفرس، كان له من مرضعته أَخَوان هما بزنوخ وماميكون من كبار نبلاء المملكة. فوشى بزنوخ بماميكون إلىٰ الملك، فأمر هٰذا بقتله. ولمّا طلب الملك ماميكون، لم يُلبِّه، بل هرب مع قومه وٱلتجأ إلىٰ آرداشير ملك الفرس قادمًا من الصين. فأرسل آربوك رسلًا يطالب به، لكنّ آرداشير لم يوافق، لذا بدأ هٰذا يستعدّ لمحاربته إلّا أنّ آرداشير مات، وخلفه ٱبنه شابوه.

وبالشكل نفسه، ٱمتنع شابوه عن تسليم اللاجئ ماميكون إلىٰ أهله، ولم يأمن عليه في بلاد الآريّين، فأرسله مع عشيرته إلىٰ أرمينية عند حلفائه. وأرسل رسولًا إلىٰ ملك الصين يقول له:

> *«لا أريد أن يكون كلامي ثقيلًا عليك، لكن ٱعلم أنني لم أسلّمك ماميكون، لأنّ أبي أقسم له بنور الشمس علىٰ أن يحميه، ولكي تكون مطمئنًّا من ناحيته، فقد نفيتُه مع عشيرته من بلادي إلىٰ الغرب، إلىٰ آخر الدنيا، حيث الموت أرحم له كما يقولون. لذا أريدك أن تصرف النظر عن محاربتي، ودمت سالمًا».*

وبما أنّ الصين كانت من أكثر الناس حبًّا بالسلام، رضي ملكهم بهذا التدبير، وعدل عن الحرب ليؤكّد أنّ الشعب الصينيّ شعبٌ مسالم يحبّ السلام والحياة.

* "جين" تعني الصين، و"باكور"، تعني ٱبن الإله، وهكذا يكون ٱسم آربوك يعني ٱبن إله الصين.

يُحكىٰ عن بلاد الصين أنها غنيةٌ بأنواع الفاكهة، ووفرة النباتات الجميلة، وتنوّع أطيارها، وشهرتها في صناعة السجّاد والحرير، وفيها أعدادٌ لا تُحصىٰ من الغزلان والوعول والوحوش. ويقولون إنّ الطاووس والهدهد يُشكّلان الغذاء الرئيس للناس، وهو أمرٌ نادر عند غيرهم. هٰذا، إضافةً إلىٰ الجواهر واليواقيت والثياب الفاخرة غالية الثمن. هٰذه هي بلاد الصين، فتخيّل.

عندما وصل ماميكون إلىٰ أرمينية، صادف وصول درتاد مع وصوله إليها، فتقدّم إليه بهدايا ثمينة، وبقي مع أهله تحت كَنَفه، ولم يرجع مع القوات الفارسية التي أوصلته إلىٰ هنا. لأنّ درتاد ٱستقبله بترحابٍ عظيم، ولم يكلّفه مهمّةَ الذهاب معه إلىٰ محاربة الفرس، بل أمّن له مقامًا آمنًا مع أهله وخصّص لهم دخلًا يعيشون منه، وٱنصرف هو إلىٰ أعماله هنا وهناك.

٨٢

اعمال درتاد البطولية حين كان ملكا قبل ان يدخل الإيمان الى قلبه

بما أنّ التاريخ لا يكون موثوقًا إذا لم يتحدّد بالزمن، لذا علمتُ ـ بعد بحثٍ دقيق ـ أنّ درتاد قد تولّىٰ الحكم في السنة الثالثة من حكم ديوكليديانوس، وأنه قَدِم إلىٰ هٰذه النواحي علىٰ رأس جيشٍ عظيم. ولمّا وصل إلىٰ كيساريا خرج النبلاء إلىٰ ظاهر المدينة لٱستقباله، ووجد فيها "أودا"، الذي كان يرعىٰ أخته خسروفيتوخد، ويحافظ عليها وعلىٰ أموالها بصبرٍ كبير، بما عُرف عنه من حنكةٍ ووفاء وصبر وذكاء. وكان قد أدرك تفاهة الأوثان قبل أن يعرف الله، لهذا نشأت البنت خسروفيتوخد، ربيبتُه، نشأةً صالحة عذراء مثاليّةً مثله، لا تعرف الثرثرة مثل غيرها من النساء.

أعتمادًا علىٰ هٰذه الصفات، عيّن درتاد أودا قائدًا لجيشه في أرمينية، وكرّم ربيبه آردافازت مانتاكوني، الذي كان سببًا في خلاصه ووصوله إلىٰ مجده، وأوكل إليه قيادة كلّ الجيوش الأرمنية، ولم يبخل علىٰ زوج أخته داجاد بالتكريم، فأَقطعه إقطاعية آشوتسك، وكان هو الذي روىٰ لأبن حَمِيه آردافازت كلّ قصة درتاد، ورویٰ للملك أنّ كريكور هو أبن آناك، كما حكىٰ له عن ولدَي كريكور، حسبَ ما سمعه في كيساريا عندما كان مقيمًا فيها.

بعد ذلك، سارع درتاد إلىٰ جمع عددٍ كبير من المحاربين، وغزا أرمينية وبعدها غزا فارس وأنتصر عليهما بمفرده. في إحدىٰ المرّات أثبت أنه أشجعُ مِن سابقه آلحانان*، وفي مرةٍ ثانية أثبت بأنّ كلّ ضربةِ رمحٍ منه تُسقِط جريحًا. وفي مرّة أخرىٰ هاجمه مغرورون من المحاربين الفرس، مع سابق علمهم بشدّة بأس هٰذا المارد وقوة زنده، فأطلقوا عليه أسهمًا كثيرة أصابت حصانه فقتلته، فأرتمىٰ علىٰ الأرض متظاهرًا بالموت، ثمّ قام علىٰ قدميه، وهجم علىٰ الأعداء، وقتل منهم عددًا كبيرًا، وأستولىٰ علىٰ حصان أحدهم وأمتطاه بمهارةٍ، وراح يصول ويجول مشتّتًا شملهم. وكان علىٰ حصانه، مرّةً، حين داهمه قطيعٌ من الفِيَلة، فترجّل، وأستلّ سيفه، وتصدّىٰ للفيلة حتىٰ طردها**.

وبقي علىٰ هٰذه الحال مدّةً طويلة في أرض الفرس والآشوريين. ثمّ أنتقل من ديزبون إلىٰ تلك النواحي.

* آلحانان: أحد قادة داوود ملك إسرائيل. صموئيل الثاني: ٢٣، ٢٥ من الكتّاب المقدس.

** مشيرًا إلىٰ قائد آخر لداوود هو آبشاي شقيق يوآب. صموئيل الثاني: ٢٣، ١٨ من الكتاب المقدّس.

٨٣

زواج درتاد بآشخين وقسطنطين بمكسيمينا
وهداية قسطنطين الى الايمان

عند عودة درتاد إلىٰ بلادنا، أرسل إلىٰ القائد سمباد، والد باكاراد، يطلب إليه إرسال العذراء آشخين آبنة آشخاتار زوجةً له، وكانت في مثل سنّه. وأمر بأن تسجّل من الارشاكونيين، وأن ترتدي ثوبًا ملكيًّا وتضع تاجًا علىٰ رأسها لتُزفّ إلىٰ الملك. ولقد وَلَدت له خسرف الآبن، لكنه لم يكن في مثل قامة أبويه.

في الأيّام نفسها صادف زواج مكسيمينا بنت ديوكليديانوس، بالقيصر قسطنطيانوس بن قسطس ملك روما من زواجٍ غير شرعيّ بالعاهرة هيلانه وليس من آبنة مكسيميانوس. تصادق مكسيميانوس هٰذا، في أثناء حفلة العرس، مع الملك درتاد. بعد زمنٍ قصير مات الملك قسطس، وعيّن ديوكليديانوس بدلًا منه صهره قسطنطيانوس.

ولكنّ الأخير، وهو قيصر قبل أن يتولّىٰ المُلك، مُني بهزيمةٍ نكراء في الحرب، ونام وهو يحمل همًّا ثقيلا. فتراءىٰ له في منامه صليبٌ شكّلته نجوم السماء، أحاطت به كتابةٌ هي عبارة: «*بهٰذا تنتصر*». لذلك قاد حملةً جديدة، جعل شعارها الصليب، وآنتصر. لكنه، بوَسْوَسةٍ من زوجته مكسيمينا بنت ديوكليديانوس، وقف ضدّ الكنيسة، ونكّل برجالها وقتل كثيرًا منهم. فعاقبه الله علىٰ جحوده، بإصابته بداء جربٍ آنتشر في كلّ بدنه، ولم يتوصّل أطباؤه إلىٰ شفائه، ولم ينجح فيه سحر السحرة الفارسيين ولا طبّ أطباء اليونان، لذا توسّل إلىٰ درتاد أن يبعث إليه بأطباء من الفرس أو من الهند، ففعل. ولكنهم لم

ينفعوه في شيءٍ. فنصح له بعض الكهنة من أتباع الشيطان، أن يذبح عددًا من الأطفال الصغار، ويستحمّ بدمهم الحارّ النقيّ في حوضٍ فيشفىٰ. لكنه عندما سمع بكاء الأطفال وعويل أمهاتهم، هزّته إنسانيته، ورأى أنّ إنقاذ هؤلاء الأطفال خيرٌ من إنقاذ نفسه. فرضي الله عليه وقبله عنده، وأوحىٰ إليه في منامه يأمره بأن يتطهّر بالاغتسال في حوضِ الحياة في روما بيد الأسقف سيلبيسدروس، الذي هرب من اضطهاده وعاش في جبل سيرابديون. ففعل ما أُوحي به إليه وآمن بالله، وأهلك الله علىٰ يده كلّ الظالمين. تمامًا كما حكىٰ لك آكاتانكيغوس.

٨٤

هلاك الآلكونيين
بيد جيناز مامكوني نفسه

استغلّ شابوه ملك الفرس فترة توقّف الحروب، وذهاب درتاد إلىٰ روما لزيارة قسطنطيانوس، وغياب ما يتهدّده، فأخذ يخطّط لغزو أرمينية بتحريض سكان الشمال لمداهمة أرمينية من الشمال ليوافيَهم هو بجيوشه الآريّة من الجنوب، فتحمّس ''سلكون'' كبيرُ عشيرة السلكونيين، وقتل صهره الشيخ ''أودا'' من قوم الآمادونيين، مربّي خسروفيتوخد أخت درتاد.

سمع درتاد بالخبر وعاد بسرعةٍ، وعَلم أنّ شابوه قد حَنَثَ بوعده لسكّان الشمال ولم يحضر بجيشه، لذلك اتّجه لتأديب الشماليين، فهرب سلكون وتحصّن في حصن يُسمّى فوغاكان، محتميًا بسكّان الجبل المسمّىٰ سيام. وقام بتخريب البلاد المحيطة بالحصن، ومنع العمل قريبًا منه لرصد تحرّكات درتاد وصدّه. لم يشأ درتاد أن يزّج جيشه في هٰذه المعركة، وأعلن بين نبلاء أرمينية

أنّ من يأتيني برئيس السلكونيين أمنحه كلّ قراهم وممتلكاتهم وإقطاعيّاتهم مُلكًا وراثيًّا أبديًّا. فأخذ جيناز مامكون الأمر على عاتقه.

سار الملك بجيشه إلى أغون معقل الشماليّين، وسار مامكون بكلّ قواته إلى نواحي دارون متظاهرًا بأنه يهرب من الملك. وأرسل رسلًا إلى كبير السلكونيين سرًّا يعلمونه بتوجّه الملك إلى أغوان ويقولون: «*لقد ذهب الملك لمحاربة سكّان الشمال وسفوح الجبال. لذلك أرى أنّ الوقت مناسبٌ للتفكير الجدّي في الأنتقام منه، على الأذى الذي ألحقه بي، وأريدك أن تحالفني على مهاجمته، فأنتقم أنا، وتحقّق أنت هدفك في قتله*».

فرح كبير السلكونيين بهذا العرض وتعاهد معه بقسم معظّم، لكنه لم يسمح له بدخول الحصن حتى يتأكّد من مدى صدقه وألتزامه بقسم التحالف. ومن جهته فعل مامكون كلّ ما يستطيع لكسب ثقته، وليُثبِت له أنه حليفٌ وفيّ. عندئذ سمح له بالدخول إلى الحصن والخروج منه بحريةٍ تامّة.

بعد أمورٍ كثيرة عزّزتْ له ثقة كبير السلكونيين، توصّل في أحد الأيّام إلى إقناعه بالخروج من الحصن لصيد الغزلان. وأستغلّ الفرصة في حَمْأة معركة الصيد، فرماه بسهم في ظهره أردى المتمرّد قتيلًا، وعاد مع رجاله إلى الحصن فأحتلّوه، وأسروا كلّ الموجودين بداخله، وأبادوا عشيرة السلكونيين، إلّا أثنين منهم تمكّنا من الهرب واللجوء إلى بلاد دزوب.

وبادر مامكون إلى زفّ الخبر إلى الملك. ففرح درتاد وأصدر أمرًا يمنحه بموجبه السلطة على كلّ تلك المناطق كما وعد، وعيّنه رئيسًا لها بدلًا من ذاك الغدّار، وسمّاها بأسمه مامكونيان، وأمره بعدم التعرّض بالأذى لمن تبقّى من السلكونيين.

٨٥

اعمال درتاد البطولية
في الحرب التي خاضها في اغوان
وكيف شطر ملِك الباسيليين شطرين

أمّا الملك درتاد، فآنحدر إلىٰ الوادي الوعر مع جيوش أرمينية، وآلتقىٰ الشماليين وشنّ عليهم هجومًا صاعقًا، وآختلط الحابل بالنابل في جبهتين خطّط لهما قبل بدء المعركة، وراح يضرب بسيفه ورمحهِ بسرعةٍ، لا أستطيع وصف خفّة يده فيها، حين يضرب فيُسقط عددًا كبيرًا من رجال العدوّ، مثلما تندلق الأسماك من شبكة صيادٍ ماهر.

عندما رأىٰ ملك الباسيليين ما يجري، تسلّل من خلفه يريد أن يطعنه غدرًا. ولكي يضمن ذلك، لفّ الحبل المصنوع من أمعاء البقر وألقاه علىٰ درتاد، ونجح في لفّ الحبل حول كتفيه الأيمن والأيسر، وشلّ حركته وهو يهمّ بضرب أحد جنوده بالسيف، لأنّ درتاد كان يتدرّع بدرعٍ متين لا تخترقه النبال أو تنغرز فيه. ولمّا لم يتمكّن ملك الباسيليين من شدّ درتاد إليه ليوقعه، ربط الحبل إلىٰ سرج حصانه، ولكنه قبل أن يهمز الحصان، كان بطلنا قد جرّ الملك بيده اليسرى وضربه بالسيف باليمنىٰ، فشطره شطرين، وبتّ رأس الحصان.

ولمّا رأىٰ المحاربون ما حلّ بملكهم بضربة الساعد الرهيب، وهو المحارب المقدام، خافوا ولاذوا بالفرار، وهو يطاردهم حتىٰ بلاد الهون، ومع أنّ ما لحق بقوات درتاد من الخسائر لم يكن قليلًا، إذ سقط عددٌ كبير منهم بين قتيل وجريح، إضافةً إلىٰ مقتل آردافازت مانتاكوني قائد الجيش الأرمني، إلّا أنه يُعَدّ

منتصرًا حسب العُرف الحربيّ، وعاد مرفوع الجبين، وقد غنم منهم غنائم حربٍ كثيرة.

وهكذا، وبعدما وحّد بلاد الشمال، شكّل من أهلها جيشًا عظيمًا وزحف نحو بلاد الفرس، لينتقم من شابوه بن آرداشير، وعقد لرجاله أربعة ألويةٍ، يقودها: مهران الكُرجي لثقته به في عقيدته المسيحيّة، وباكاراد القائد، وماناجيه كبير الرشدونيين، وواهان كبير الآمادونيين.

أمّا ما يتعلق بهداية مهران وخلاص بلاد الكُرج، فسيأتي الحديث عنهم فيما يلي:

٨٦

عن نونيه السعيدة
وكيف صارت سببًا في خلاص بلاد الكرج ؟

هربت امرأةٌ من مريدات القديسة هريبسيمه من الاّضطهاد، ولجأت إلىٰ بلاد الكُرج. ووصلت إلىٰ متسخيتا المدينة الرئيسة. هناك أنعم الله عليها لتقواها بمعجزة شفاء المرضىٰ وتطبيبهم. فأبرأت كثيرًا من الموبوئين، ومنهم مهراتي زوجة مقدّم الكُرجيين، فسألها مهران عن القوة التي تملكها لفعل هٰذه المعجزات، فقرأت علىٰ مسامعه وصايا إنجيل المسيح، فأُعجب بما سمع، وراح يُذيع الأمر بين حاشيته ويعظّمه، ويحكي عن "نونيه السعيدة" ورفاقها، وكيف شملت بركاتهم مَلك أرمينية وأتباعه، فانبهر الجميع بما سمعوا، وبما شرحته لهم نونيه بشكلٍ مفصل عن المسيح.

في تلك الأيّام، حدث، حين ذهب مهران إلىٰ الجبال في رحلة صيد، أن تاه في الشعاب الجبلية الوعرة، لا لجهله بل بسبب تلبُّد الجوّ بالغيوم كما هو

مكتوب، «*أترفع صوتك إلىٰ السحب فيغطّيك فيض المياه*»* أو: «*ويظلم النهار كالليل*»**، مثل هٰذا الظلام أحاط بمهران، فصار سببًا في إنارة بصيرته بنورٍ أبديّ، وتذكّر ما سمعه عن درتاد حين خرج إلىٰ الصيد وتلقّىٰ ضرباتٍ شديدةً من الله، وخشي أن يُصاب بما أُصيب به درتاد، فصار يصلّي بقلبٍ سليم، طالبًا إلىٰ الله أن يُنوِّر سبيله ليعود إلىٰ بيته سالمًا، وقد آلىٰ علىٰ نفسه أن يعبد الله دون غيره ويبارك ربّ نونيه، فقُبلت صلاته، ونَفّذ ما ألزم به نفسه.

أمّا نونيه السعيدة فآختارت رجالًا مؤمنين مخلصين، أرسلتهم إلىٰ القديس كريكور، تطلب منه إرشادها إلىٰ ما يجب عليها أن تفعله، بعدما آمن الكُرجيون بتعاليم الإنجيل طائعين من غير إكراه. فأمرها أن تُقدِم علىٰ تحطيم الأوثان مثلما فعل هو، وتثبيت الصليب في مكانها ريثما يُقيِّض الله لهم راعيًا يُرشدهم. وبدأت بتحطيم وثن العواصف في آرامازت العالي، الذي يراه الناس من بعيد ومن أسطحة منازلهم فيسجدون له. أمّا من يريد أن يُقدّم قربانًا، فكان يتعيّن عليه أن يجتاز النهر إلىٰ الضفّة الأخرىٰ ليُقدّم قربانه أمام المذبح.

علىٰ أثر ذلك، تداعىٰ كبار المدينة ليتشاوروا فيما بينهم، ويقرّروا مَن يجب عليهم أن يسجدوا له بعدما تحطّمت أصنامهم. فأعلمتهم نونيه أنّ عليهم أن يسجدوا للصليب، صليب المسيح. فبادروا علىٰ الفور إلىٰ تشكيل صليبٍ، نصبوه بعدما فرغوا من صنعه، فوق ربوةٍ عاليةٍ في الجهة الشرقية من المدينة،

* راجع ايوب، ٣٨، ٣٤ من الكتاب المقدّس.

** راجع عاموس، ٨،٥ من الكتاب المقدّس.

التي يَقْسِمها النهر الأصغر* قسمين. في الصباح سجد له كلّ الموجودين، وكلّ من اْعتلىٰ سطح منزله. لكن عندما صَعِد الناس إلىٰ الرابية، ورأوا الصليب المشكّل من قطع خشبية دون أن تهذّبها يدٌ ماهرة، عزفوا عنه، لأنّ غابتهم ملأىٰ بالأخشابِ الكثيرة. لكنّ الله لم يشأ أن يتركهم فريسةً لاَمتعاضهم، بل أنزل من السماء عمودًا من غيم معطّر عَبَق الجبلُ برائحته الذكية، وأرسل صوتًا عظيمًا يُنشد نشيد المزامير، وظهر نورٌ علىٰ شكل صليب، تسطع حوله اْثنتا عشرة نجمة. عندئذ آمنوا به عن عقيدةٍ راسخةٍ وسجدوا له، فمنحهم الله نعمة الطبيب.

بعد ذلك، أخذت نونيه تتنقّل بين المناطق الأخرىٰ في جورجيا، لتنشر رسالتها، من فمها العذريّ المقدّس، بكلّ تواضع وحنان، زاهدةً في الدنيا وما فيها، تتكلّم بصدقٍ وتُقىً، جاعلةً الحياة سبيلًا إلىٰ حكمة الموت، وصارت تَعِظ الناس وتَكْرِز، مستشهدةً بأقوال الربّ. وتكلّل جبينها بالدم من كثرة السجود. ولا أبالغ إذا قلت إنها صارت رسولةً عن حقٍّ تُبشّر، بدءًا من كيفارج إلىٰ أبواب آلان، ومن جوانب بحر الخزر حتى حدود المسكوتيين، كما حكىٰ لكَ آكاتانكيغوس.

* إنه نهر آراكفي في بلاد الكُرْج.

٨٧

هزيمة شابوه وخضوعه لقسطنطينوس الأكبر مرغما
واستيلاء درتاد على يكباذان مع مجيء اقاربه
وفي هذا الوقت ظهرت نواة خطّ الصليب المخلّص

مع أنّ درتاد حقّق نصرًا عظيما، إلّا أن مقتل كثيرٍ من جنده ومن نبلائه، أقلقه وبعث فيه الخوف من مواصلة الحرب مع شابوه وحده. لكنّ وصول جيوش الرومان، ومهاجمة شابوه عبر بلاد الآشوريين وتخريب بلاده، شجّعه ودفعه إلىٰ الآنقضاض بقواته علىٰ النواحي الشمالية التي خضعت سنواتٍ طويلةً لحكم الفرس.

في هٰذا الوقت، جاء إليه كامسار، قريبُه ومن أهله وأول آبنٍ لفيروزاماد. وفيروزاماد هٰذا هو الذي أنقذه فيروز من المجزرة التي آرتكبها آرداشير بحقّ عشيرة كارين بهلوي. فلمّا بلغ سنّ الرجولة أعاد له آرداشير مجد أبيه، وولّاه قيادة جيشٍ مهمّته محاربة الأقوام الهمجيّة، ظانًّا أنه حين يتركه أمام الهمج، يقتلونه، فيتخلّص منه. لكنه لم يدرك أنه تمكّن بحنكته، من إدارة دفّة الحرب وتغلّب علىٰ فوزورك*، فزوّجه بآبنته إتقاءً لشرّه، بعدما سبىٰ عددًا من نساء ينتمين إلىٰ أهل آرداشير. فكثرت ذريّته وقويت شوكته، وصار يحكم تلك البقاع منفردا. وهو، وإن كان يُعَدّ من أتباع آرداشير، لم يخضع لشابوه بعد موت أبيه، بل آنتصر عليه في مواقع عدّة، لذلك أرسل شابوه إليه من أعوانه من سمّمه وقتله.

في هٰذا الوقت ظهر فوزورك آخر، وتربّع خاقانًا علىٰ العرش ناصبًا العداء

* لقبٌ مثل خاقان، يستعمله الفرس والترك بمعنىٰ الملك.

لابّنه كامسار، الذي رأىٰ أنّ وجود مَلِكَين اثنين في مملكةٍ واحدة أمرٌ مستحيل، خصوصًا وأنه لم يجد الدعم عند إخوته، لذلك رحل، مع كامل أسرته وقومه، ونزل عند ملكنا درتاد، بينما بقي أخوته عند شابوه. كان كامسار المحارب الأول عند أبيه، وفي إحدىٰ المعارك خبطه أحدهم بفأسٍ علىٰ رأسه شَرّخَت له جانبًا من جمجمته، لكنه لم يمت وشَفي بالعلاج. وبقي تكوير رأسه ناقصًا، لذلك لُقّب بلقب كامسار، أي الجمجمة الناقصة*.

بعد ذلك ترك درتاد يكبادان، ذات الأسوار السبعة التي كان يحكمها، إلىٰ نائبه وأعوانه، وعاد إلىٰ أرمينية مصطحبًا كامسار ومن معه، وفي الوقت نفسه طلب من قسطنطيانوس قاهر شابوه، عقدَ معاهدة صلح وسلام بينهما. فوافق قسطنطيانوس. ثمّ أرسل أمّه هيلانه إلىٰ أورشليمَ للبحث عن الصليب المقدّس، ووجدت الخشبة المخلّصة عند يهوديّ يُدعىٰ يهوذا، فأخذته [أي الصليب] منه لقاء خمس قطع ذهبية، وعادت به إلىٰ بطريرك أورشليم.

٨٨

تقييد ليكيانوس ونقل عاصمة المُلك من روما وبناء القسطنطينية

عندما أهلك الله كلّ الجبّارين علىٰ يد قسطنطيانوس، عبّر هٰذا عن تقديره واحترامه لليكيانوس، وزوّجه أخته من أمه، وزيّنها بالحليّ والإكليل القيصريّ، وأوصله إلىٰ شرف العرش الثاني، وعيّنه حاكمًا علىٰ كلّ الشرق.

* كلمة "كيم" بالفارسية تعني، ناقص، وكلمة سار تعني، رأس.

لكنّ كلام الربّ الذي قاله عن اليهود بأنّ الشرّ لا يمكن أن يتغيّر، وكما أنّ الوحش لا يستطيع أن يُغيِّر من وحشيته، والأثيوبيّ لا يستطيع أن يتخلّص من سمرته، فقد تحقّق ذلك هنا أيضًا، لأنّ الوثنيّ الشرير، لا يستطيع أن يتخلّص من وثنيته، فما يكاد يتمكّن في الأرض، حتىٰ يُنكر ما عاهد عليه الربّ ووقف ضدّه. وهكذا فعل ليكيانوس، إذ عاد إلىٰ اَضطهاد الكنيسة، والضغط علىٰ العامّة من المؤمنين الرازحين تحت نيره، وتعذيبهم بشتىٰ أنواع العذاب، لأنه عشق كلبورا السعيدة، ومن أجلها صبغ شعره الأشيب، وهجر زوجته، وقتل باسيليوس أسقف آماسيا البوندي. وحين اَنكشف أمره، وأدرك أنّ قسطنطيانوس لن يسكت عليه، جهّز جيشًا لمواجهته، ناسيًا حبّه للملكنا درتاد، وصار يَنْفِر منه وكأنه عدوّ حقيقيّ، لأنه يعلم أنّ الخوّان بغيضٌ عند الإنسان العادل.

ولمّا وصل قسطنطيانوس إلىٰ الملك درتاد، منتصرًا علىٰ ليكيانوس، الذي صار أسيرًا بين يديه، عفا الملك عنه، ولم يقتله لأنه شيخٌ هرم أولًا، ولأنه زوج أخته ثانيًا، واَكتفىٰ بتقييده بالحديد، ونقله إلىٰ كالديا للإقامة فيها، إقامةً جبرية يتعبّد الله لعله يغفر له. وأعلن، بالاَتفاق مع أبنائه، أنّ مملكة الرومان مملكةٌ واحدة. وعاش إلىٰ أن اَحتفل بالعام العشرين علىٰ تأسيسها، في مدينة النيكوميتاويّين، لأنه بدأ حكمه فيها في السنة الرابعة من الاَضطهاد، واَستمرّ ثلاث عشرة سنة من السلام بعدها. هٰذا وما زالت روما تحتفل بهذا العيد حتّىٰ يومنا هٰذا.

بعدما اَستتبّ الأمن والسلام للملك درتاد، لم يجد ضرورةً للعودة إلىٰ روما، وبقي في بيزنطة، حيث ثبّت مملكته، حسب وصية الرؤيا التي رآها من قبل، وبدأ يقوم بأعمالِ بناءٍ مشرِّفة حتىٰ كبر حجم المدينة خمس مراتٍ. ولم يُعرف ملكٌ كبير في ذلك العصر قام بمثل هٰذه الأعمال، إلا في نطاقٍ محدود.

كالمنشآت التي أنشأها ملك العالم، الإسكندر المقدوني، عندما كان في هٰذا المكان يستعدّ لمواجهة تارح، فبنىٰ ما يُدعىٰ بالستراديكيون تخليدًا لأسمه، وتسهيلًا لتحركاته العسكرية، وأعاد ترميمه قيصر الرومان سيفيريوس الذي بنىٰ حمّامًا بجانب المسلّة، التي حملت هي والحمّام عبارة زيكسيبون، التي تعني "حكاية الشمس" بلغة التراقيين. كما أنشأ مسرحًا وميدانًا للألعاب ومصارعة الحيوانات المتوحّشة، ومضمارًا لسباق الخيول لكنه لم يكتمل.

أمّا قسطنطيانوس فقد أكمل كلّ شيء، وأطلق علىٰ المدينة آسم روما الجديدة. أمّا الناس فسمّوها بآسمه، فصارت تُعرف بآسم قسطنطيانوس. ويُقال بأنه سرق من روما تمثالًا آسمه بالانيون، نصَبه في ميدان مدينته تحت تلك المسلّة. يبدو لنا أنّ هٰذا القول غير صحيح، وإن كان يحلو للآخرين.

٨٩

آريوس هيريديكوس والمؤتمر الذي عقد في نيقية بسببه والمعجزات التي ظهرت في كريكوريوس

في هٰذه الأوقات، برز آريوس الإسكندراني ينادي بتعاليم تخالف تعاليم الكنيسة، مدّعيًا أنّ الآبن ليس مساويًا للربّ الآب، وهو ليس من طبيعته وجبلّته، وهو لم يولد في أيّ وقتٍ من الأوقات، وإنما هو مخلوقٌ غريب صغير، تكوّن وكَبِر مع مرور الزمن. ولقد مات آريوس هيريديكوس (أي الكافر) وهو يقضي حاجةً في المرحاض، المكان الذي يليق به.

وبسببه صدر أمر من الآمبراطور قسطنطيانوس، يقضي بالتحضير لعقد مؤتمر للأساقفة في مدينة نيقية في بوتانيا، حضره: بيدون وبيكيند عن روما

بتكليفٍ خطّي من قداسة سيليستروس، وآلكسندروس من الإسكندريّة، وبلستاديوس عن أنطاكية، ومكاريوس عن أورشليم، وآلكسندروس عن قسطنطيانوبوليس.

في الوقت نفسه، وصل أمر ملكيٌّ من الإمبراطور قسطنطيانوس إلىٰ ملكنا درتاد، يدعوه به إلىٰ حضور المؤتمر مع القديس كريكور، لكنّ درتاد لم يستجب لدعوته. لأنه كان قد سمع عن تحالف بين شابوه، وكلٍّ من ملك الهند، وخاقان الشرق، والقائد نرسيه الذي اَغتصب المُلك تسع سنوات، وفورميزت الذي ملك ثلاث سنوات ومات مقتولًا. لهذا لم يشأ أن يغادر البلاد، خوفًا من أن ينكث شابوه بعهده حسب عادة الوثنيين، كذلك لم يوافق القديس كريكور علىٰ حضور المؤتمر، لأنه خشي أن يبالغ في تقديسه بٱعتباره "معترِفًا"*، علىٰ الرغم من الإلحاح في دعوته. وٱكتفىٰ الاثنان بإيفاد ٱبنه آريسداكيس بن كريكور بتفويضٍ خطّي ممهور، فصادف موعد وصوله إلىٰ ليفونت الكبير مع موعد الاَحتفال بتعميد كريكور، والد رجل الله. كريكور، الذي ظهرت حوله وهو في الماء هالةٌ من نور، لم يشاهدها من المحتشدين غير ليفونت المعمِّد، وآريسداكيس موفدنا، ويفتال من يتيسيا، وهاكوب من ميدزبين، وأوهان من فارس، وقد سلكوا الطريق نفسها إلىٰ المؤتمر.

* المعترف، اَصطلاح ديني يشير إلىٰ كلّ رجلٍ دينٍ ذاق العذاب. أمّا من مات في سبيل الدين فهو شهيد.

٩٠

عودة آريسداكيس من نيقية وإيمان قومه والمنشآت التي أُحدثت في كارني

ذهب آريسداكيس مع ليفونت الكبير إلىٰ مدينة نيقية، حيث اَجتمع ثلاثمائة وسبعةَ عشر كاهنًا للإطاحة بجماعة آريانوس، الذين كَفَروا واَنحرفوا عن مبادئ الكنيسة، فنفاهم الإمبراطور إلىٰ الكهوف، وعاد آريسداكيس إلىٰ أبيه، بإيمانٍ راسخ يحمل له عشرين فصلًا من مقرّرات المؤتمر، وقابل الملك في مدينة فاغارشاباد. فرح القديس كريكور بفصول المقرّرات، وأضاف إليها شرحًا من عنده، لتبصير رعيّته بشكل أوسع.

عندئذ تعمّد قريبهم كامسار، مع كلّ أهله، بيد القديس كريكور، تناوله منه الملك نفسه، وأعطاه ميراث قوم آرداشيس الكبير، الذي يُعرف الآن بآسم تراسخاناكيرد، ومنحه منطقة شيراك موطنًا لعشيرته. لكنه لم يعش بعد التعميد سوىٰ سبعة أيّام ومات. فعزّىٰ درتاد أكبر أبناء كامسار، وعيّنه خلفًا لأبيه، رئيسًا لعشيرته التي أطلق عليها آسم أبيه وصنّفها في عِداد العشائر الأخرىٰ، وأنعم عليه ـ إضافةً إلىٰ ما عنده ـ بمدينة يرفانت وملحقاتها حتىٰ طرف الوادي الكبير، رغبةً منه في أن ينسّيه آسم بهلاو بلده الحقيقي، لكي يبقىٰ مخلصًا في إيمانه، وهي منطقةٌ جميلة أعجب بها آرشافير كثيرًا، فسمّاها بآسمه آرشادونيك، وكانت تُسمّىٰ قبل ذلك يراسخاتسور. بهذه المعلومة نكون قد تحدثّنا عن عشيرة البارتيفيّين، وعشيرة البهلويّين وسبب مجيئهم إلىٰ هنا.

حتىٰ ذلك الوقت، كان درتاد قد أكمل بناء حصن كارني، من حجر الصوّان المنحوت المثبّت بمسامير من الحديد، وروابط من جنسها، وبنىٰ في

الحصن هيكلًا ملأه بالتماثيل، وجعل له منافذ بديعةً وقبابًا مرتفعة، إكرامًا لأخته خسروفيتوخد، ونقش اَسمها علىٰ الواجهة بحروفٍ يونانية.

بعد ذلك اَعتكف القديس كريكور في الجبال متنسِّكًا، ولم يعد يظهر لأحدٍ حتىٰ وفاته.

٩١

حول موت كريكور وآريسداكيس
وتسمية كرم مانيا

عرفنا أنّ القديس كريكور ـ وهو أبونا وقريبنا حسب مقولة الإنجيل ـ قد جلس علىٰ كرسي تدّوس المقدّس في العام السابع عشر من حكم درتاد، فنوّر كلّ أرمينية بنور معرفة الله، وقشع ظلام عبادة الأوثان، وملأ الأرجاء كلّها بالأساقفة ورجال الدين الواعظين، ثمّ اَعتكف لائذًا بالجبال والقفار، ليخلو إلىٰ ربّه عابدًا مناجيًا تاركًا شواغل الدنيا وخُلَّبَها، مستخلفًا اَبنه آريستاكيس في إتمام الرسالة التي بدأها، واَعتزل في منطقة تاراناغ قريبًا من سكّان جبل مانيا.

أمّا نسبة المكان إلىٰ رجال مانيا، فهو أنّ اَمرأةً ـ من رفيقات القديسة هريبسيميه ـ كانت تُدعىٰ ماني، وهي زميلةٌ لنونيه السعيدة، التي أرشدت الجورجيين إلىٰ الإيمان، لم تتمكّن من اللحاق برفيقاتها وهنّ في طريقهنّ إلينا، فبقيت في ذلك المكان تُرشِد الناس إلىٰ الإيمان، وتعلّمهم، لأنّ الأرض في يقينها هي لله وحده، يُقَسّمها بين الناس، فالتفّ حولها رجالٌ اَختاروا الإقامة معها في الكهوف الصخرية، يستمعون إلىٰ وعظها وإرشادها، فسُمّي المكان باَسم رجال مانيا، هو المكان الذي أوىٰ إليه القديس كريكور.

لكنّه، مع تنسُّكه واَعتزاله هٰذا، لم يتوقّف عن زيارة تلاميذه في شتّىٰ أنحاء

البلاد من وقتٍ لآخر، ليشحذ إيمانهم ويثبّت دينهم. وعندما عاد ٱبنه آريستاكيس من مؤتمر نيقية، أوكل إليه أمر متابعة الرسالة، وٱعتزل نهائيًّا، ولم يَرَه بعد ذلك أحد. فإذا حسبنا مدّة كهنوتيّته، التي بدأت في السنة السابعة عشرة من تَملّك درتاد حتّىٰ السنة السادسة والأربعين من حكمه، نجدها تصل إلىٰ ثلاثين سنة.

تولّىٰ كرسيّ القداسة بعده ٱبنه آريستاكيس، وٱستمرّ سبع سنواتٍ في منصبه، من السنة السابعة والأربعين من حكم درتاد، إلىٰ السنة الثالثة والخمسين حين ٱنتهىٰ أمره. كان روحانيًّا ذا حدّين كالسيف، يعتبر نفسه عدوًّا لكلّ الأشرار والظالمين، فحقد عليه آركيلايوس، حاكم المنطقة الرابعة من أرمينية حسب تصنيفها، وٱنتظر الظرف المناسب، وكَمَن له علىٰ طريق دزوبا، وقتله طعنًا بالسيف، وهرب إلىٰ منطقة كيليكيا في جبال طوروس وٱعتصم فيها. فحمله تلاميذه، ونقلوا جثمانه إلىٰ منطقةِ يكيليا، ودفنوه في تيل مرقده الأخير. وخَلَفه علىٰ الكرسي أخوه الأكبر فرطانيس، في السنة الرابعة والخمسين من حكم درتاد.

بقي القدّيس كريكور أعوامًا طويلة في منطقة مانيا، دون أن يراه أحد، إلىٰ أن وافاه المَنون وصار في عداد الملائكة، وٱكتشف الرعاة جثّته، ودفنوه في المكان نفسه، دون أن يعرفوا هويّته. وكان الأجدىٰ به، أن يكون أولئك الذين ٱكتشفوا حكمة ولادة مخلّصنا هم من ٱكتشفوا وفاةَ تلميذه وخادمه. وبقي قبره مجهولًا مدّةً طويلة، لكي لا يكون مجالًا يتعبّده الوثنيّون، كما حصل مع موسىٰ. وبعدما رسّخ الإيمان جذوره في بلادنا بزمنٍ طويل، قيّض الله لقبره مَن يكتشفه، رجلًا يُدعىٰ كارنيك، فنقل رفاته، ودفنه في قرية طوطان.

والمعروف عند الجميع أنّ القديس كريكور هو من البارتيفيين، ومن منطقة بهلاو. ومن قبيلة آرشاكوني المنشقّة عن العائلة الملكيّة، ومن الأب آناك،

وهو الذي أضاء لنا شمسًا حقيقيّة من مشرق بلادنا، وشمسًا معنويًّة وقبسًا روحانيًّا، وبيّن لنا سبيلًا إلىٰ الخروج من هاوية عبادة الأوثان، وكان فيه الخير الذي طرد الشيطان، وأتاح لنا فرصة التمتّع بالسعادة الروحانيّة، وغرس فينا شجرةَ غارٍ ربانيّةً في بيت الربّ، مزدهرةً بروح الإلٰه. لقد سعىٰ إلىٰ هداية كثيرٍ من الشعوب، وحضّرنا لشيخوخةٍ سعيدةٍ روحانيّةٍ بمجد الله ورضاه*.

٩٢

حول موت الملك درتاد
ومعه ذنوبه التي لا تحصى

بما أنّ المسيح هو المَلِك الحقُّ لكلّ الكائنات، لذا يتعيّن عليّ أن أُدوّن حديثي عن قدّيسنا وشهيدنا الثاني ورمز هدايتنا الروحيّ، بأبدع الأقوال، لأنه السائر في الهداية والمرشد الأول إلىٰ طريقنا، متتبّعًا نهج معلّمنا ومخلّصنا. لأنّ الروح القُدس أنعم بالأولويّة لمنوّرنا المؤمن، وحمّله الرسالة ليوصلها إلينا، من دون أن يماثله بالكلام وبالعمل. لأنه مَلِكٌ، وللمَلِك حقٌّ فيما يفعل بمملوكه، وهو قادرٌ علىٰ إدخال الإيمان إلىٰ قلب من يشاء، ولو بالشدّة إذا اقتضىٰ الأمر، أمّا منوّرنا، فلا يملك هٰذا الحقّ، وما عليه إلّا تأدية الرسالة وحسب. وهٰذا هو ما جعلني أُلقّبه بـ"المرشد الأول إلىٰ طريقنا"، و"الأب الثاني لنا". ولكنّ الوقت الآن ليس للمدائح، بل للحديث عن منوّرنا، خصوصًا وأنّ هٰذه الفقرة قد أُخذت من بياناتٍ خارجية، وليست من عندنا، لذا يجدر بنا أن نَدخل في صميم الحديث عنها.

* المزامير ٩٢، ١٢ ـ ١٤.

بعدما آمن الملك درتاد بالمسيح، وآمتلأت نفسه بنور الإيمان، أراد أن يدلّ إلىٰ طريق المسيح بالكلام الطيّب والإقناع، لكنه لم يُفلح، فعمد إلىٰ الشدّة لفرض دين المسيح علىٰ الخاصّة والعامّة لعلّهم يؤمنون. لكنّ قسوة قلوبهم، وآمتناعَهم عن الدخول في الدين الجديد، وإصرارَهم علىٰ البقاءِ علىٰ دينهم الوثنيّ وضلالهم إكرامًا لزوجاتهم وعشيقاتهم، ثبّط همّته، فيئس منهم، ولاذ هو الآخر بجبال ماني، معتزلًا الناس، زاهدًا عن كلّ المُغْويات الأرضية، متفرّغًا لعبادة الله وحده.

أنا أحكي هٰذه الحقيقة وأخجل ممّا حدث. لأن كُفْرَ قومنا، وضلالهم، أدّيا إلىٰ مآسٍ محزنة تُسكَب عليها الدموع الغزيرة. فبعدما زهد مَلِكُنا في الدنيا، أرسل القومُ وراءه مَن يدعوه إلىٰ العودة والآستمرار في الحكم، وهم يَعِدُونه بآتّباع دينه. فلمّا رفض الملك القدّيس دعوتهم، وضعوا له السّمّ في شرابه، مثلما فعل اليونان قديمًا بسقراط، يوم سَقَوه شرابًا مسموما، ومثلما فعل اليهود بالمسيح، وسقوه شرابًا مُرًّا ليُطفئوا نور الله، ونور الله ساطعٌ لا ينطفئ.

لذا أقول، والحزن علىٰ أمتي يغمر قلبي، مثلما قال بولص الرسول عن جماعته، أعداء صليب المسيح، وليس القول قولي، بل آقتبسته من الروح القدس:

> *أيها القوم الأشرار الجاحدون! أيها القوم الذين قَسَت قلوبهم، ولم تكن روحهم وفيّةً لله! يا أمّة آرام! حتّام تبقَون بغير شعور؟ علامَ تُحبّون الضلال والكفر بالله؟ ألم تعلموا أنّ الربّ جعل قدسه عظيمًا؟ وهو لا يستمع إليكم يوم تتوجّهون إليه نائحين؟ لقد أذنبتم حين غضبتم، ولم تندموا في سرّكم، بعدما آرتكبتم الذنوب الشنيعة، وحقّرتم مَن وضع أمله في الربّ. لسوف تَرِدُون إلىٰ يوم الفخّ العظيم وأنتم غافلون. سيُمسك الصيد الذي صدتموه بكم، وتقعون في*

الفخّ الذي صَلَيْتموه له. أما هو فتفرح نفسه بالله، ويفرح بالخلاص ويقول: "من مثلك يا ربّ؟"، ويُناجيه في كلّ حين.

كلّ هٰذه الأقوال صحيحة، هي عزاؤنا في زمننا الحاضر. وبمعنىٰ ما قاله المسيح: *«ما داموا قد فعلوا هٰذا بالشجرة الخضراء، فما بالك بما يفعلونه باليابسة!»*. وما داموا قد تصرّفوا كذلك مع رسل الله، الذين وهبوه أنفسهم، وزهدوا بالمُلك، فماذا علينا نحن أن نفعل؟ وبأيّ لسان نطلب من الله أن يرفع عنا الكرب والكدر، وقد تعرّضنا لهما بسببكم، أسألكم، مَن ذا الذي أعالنا في معيشتنا؟ مَن منكم توسّط لنا عند المعلّمين؟ مَن كفلنا منكم بالقول المقنع المفيد؟ مَن حمل متاعنا عند السفر؟ مَن أراحنا بعد تعبٍ؟ من أمّن لنا مأوًى أو منزلًا؟ قد أتغاضىٰ عن كلّ هٰذه الأمور، لو أنكم لجمتم ألسنتكم الخبيثة الجاهلة، لكنكم تُصرّون علىٰ التفاخر الأجوف، وتُمعنون في أقوالكم الخبيثة. لقد تماديتم في طغيانكم، وتخاذلتم مثل بابل قديمًا.

نصّب كلّ واحدٍ منكم نفسه كاهنًا في معبده، كما جاء في الكتاب المقدس.

ينطبق هٰذا القول علىٰ أوضاعنا الحالية، حين نرىٰ كثيرًا من الناس يتحدّثون عن الأمور الربانيّة وهم لا يفقهون منها شيئا. يتحدّثون بما لم يُخَوِّلهم الروح القدس به، بل خوّلهم فسادُهم، فخرجت من أفواههم سخيفةً، تحيّر العقول، ويرفضها المفكّرون، لأنّ المتحدّث يتحدّث عن الأمور الإلٰهية، وفكره مشغولٌ بالأمور الدنيويّة. إنه لا يتناول الأمور بروحه، وبلطفٍ ورحمةٍ وهدوء، كما هو مفروض، متجاهلًا وصية: *«لا يجوز أن يسمع صوتك من هو بالخارج»*، فتراه علىٰ العكس، يشمخ بإنسانيّته، ويرفع صوته حتىٰ ليُصِمّ أسماع الناس بثرثرته بصوتٍ هادر، كما قال أحد القدماء. أمثال هٰذا يزعجون الوادعين، فيصخبون في الميادين، لا يجدون من يعظهم، بل من يحضّهم علىٰ ذلك،

فينطبق عليهم ما أريد أن أُذكِّر به من كلام المسيح: «*لكي يأتي عليكم كلُّ دمٍ زكي سُفك علىٰ الأرض، منذ دمّ هابيلِ الصِّدِّيق حتىٰ دمّ زكريا بن برخيا، الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح*»*. أعود فأُذكِّر بقول المسيح: «*لأنه إن كانوا بالعُود الرَّطْب يفعلون هٰذا، فماذا يكون باليابس؟*»**.

علىٰ أنني لا أريد الإسهاب في قولي، لكي لا ينزعج الميّتون، لكنّ ما حكيناه عن القدّيس درتاد صحيح. فلقد سَقَوه شراب الموت، فحرموا الناس من نور بركته، بعد حكمٍ دام ستًّا وخمسين سنة.

انتهى الكتاب الثاني

عن تاريخ السلف الأوسط

* إنجيل متّىٰ ٢٣، ٣٥.

** إنجيل لوقا ٢٣، ٣١.

الكتاب الثالث

استكمال تاريخ أمتنا

[من ٣٣٠ م. إلى ٤٣٨ سنة وفاة
القديستين ساهاك ومسروب]

١

[عهد ما بعد القديس كريكور]

لم أعتمد، في كتابي، على أخبارٍ مستقاة من القديم في بلادنا، ولا على المدوّنات اليونانية التي حصلتُ عليها بسهولة، ولا على كتابات تيودور* الموجودة تحت أيدينا والتي تعمّقتُ دراستَها لكي لا أغفل عن خبرٍ مهمٍّ فيها، بل اعتمدتُ بقدرٍ كافٍ على ما توافر لي من مصادر موثوقة، مبتدئًا من عهد الإسكندر الأكبر حتى نهاية عهد القديس درتاد، بما في ذلك الزمن المبكّر الموغل في القدم.

لذا لا تَلُمْني، أو تُوَبِّخني، إذا ما بدأتُ، في كتابي الثالث، بذكر ما جرى في زمننا أو ما قبله بقليل، والذي يبدأ بعهدِ ما بعدَ القديس كريكور. وقد صُغْتُ الرواياتِ كلَّها بلغةٍ مبسّطة، لكي لا يخرج الكتاب غامضًا كروايات الخرافات والأساطير، بل يتسنّى لكلّ فردٍ أن يقرأ تاريخ بلادنا برغبةٍ وشوق ومتابعة مع صدق روايتنا.

* تيودور الصقلي، عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وهو مؤرخ يوناني، كتب التاريخ القديم في أربعين جزءًا لم يصل منها غير خمسة عشر جزءًا.

٢

ما هي الأحداث التي تعرض لها فرطانيس الكبير والأمم الثلاث بعد موت درتاد ؟

عندما قُتل درتاد كان فرطانيس بالمصادفة في كنيسة القديس يوحنّا* التي بناها أبوه في دارون. فَنَصَبَ له سكان تلك المنطقة كمينًا لقتله بإيعاز من كبارهم، لكنّ الله كفَّ أيديهم عنه، كما حدث قديمًا للنبيّ أَلِيشَع**، وما جرىٰ لليهود في زمن المسيح حين صُعقوا في الأرض.

كذلك مرّ فرطانيس دون أن يصيبه أذىٰ وذهب إلىٰ منطقة يكيليا، بلدة تيل، حيث مثوىٰ أخيه آريستاكيس، حزينًا علىٰ أمّة الأرمن التي تقسّمت بعدما راح رئيسها، وبدأت العشائر يُفني بعضها بعضًا، فهلكت عشائر: يزنوناكان ومانافازيان وفورتوني، وآندثرت عن آخرها.

٣

موت القديس كريكور مقتولًا بيد الهمج

كان درتاد السعيد صارمًا فيما يتعلّق بالإيمان والعبادة صرامةً كبيرة، خصوصًا مع أولئك الذين يعيشون بعيدًا عن نطاق سلطانه في الأماكن الوعرة.

* بنىٰ القديس كريكور المنوّر هٰذه الكنيسة بآسم القديس يوحنّا المعمدان، بعد عودته من يتيسيا، ودَفَن فيها بعض عظام القديس يوحنّا المعمدان.

** الملوك الثاني، ٢، ٢٣ ـ ٢٥ من الكتاب المقدّس.

لذلك وفد عليه المتعاطفون معه من وجهاء المدينة البعيدة، التي كانت تُسمّىٰ بايداكاران في الشمال الشرقي، وقالوا للملك:

«إذا أنت أردت أن يكون لسكّان تلك الناحية مكانةٌ في الإيمان، فأرسلْ إليهم أُسقفًا من ذرية القديس كريكور، لأنهم يرغبون في ذلك رغبةً أكيدة، ونحن نؤكّد لك حبّهم لآسم كريكور لما آشتُهر عنه، ويرتاحون لأبنائه وينصاعون لهم».

آقتنع درتاد السعيد بكلامهم، وأرسل إليهم كريكوريوس الأصغر أسقفًا، وهو أصغر أبناء فرطانيس. ولصغر سنّه آعتبروا ذلك منه آستهتارًا بهم وآستصغارًا لشأنهم. لكنه أصرّ علىٰ آختياره نظرًا لما يتمتّع به من صدقٍ في الإيمان، متيمّنًا بسليمان الحكيم الذي تولّىٰ الملك، وهو في الثانية عشرة من عمره، ليحكم الإسرائيليين. وهكذا أرسله بثقةٍ تامّة مع من يُدعىٰ سانادروك من عشيرة آرشاكوني.

لدىٰ وصوله، قَدَّم مثلًا رائعًا للمرشد الصالح، متصرّفًا بحنكةٍ ورثها عن أبيه، متحلّيًا بالعفّة والطهارة، معادلًا للمَلِك في الأمور السياسية.

لكن لما وصل خبر مقتل درتاد، أجهزوا علىٰ كريكوريوس بتحريضٍ من سانادروك الخائن والأغوانيين المنافقين، وقتلوه تحت سنابك الخيل في ميدان فادنيان قرب البحر المسمّىٰ ببحر الخزر. فحمل الشمّاسون جثمانه إلىٰ سونيك الصغرىٰ، إلىٰ بلدة آماراس.

أمّا سانادروك فآستقلّ بالمُلك ووضع التاج علىٰ رأسه، وآستولىٰ علىٰ مدينة بايداكاران، وبدأ يخطّط للآستيلاء علىٰ كلّ أرمينية بمساعدة أممٍ أجنبية.

٤

انفصال باكور الملك عن اتحاد الأرمن
وتولية خسرف الملك بمشورة النبلاء

جاء في التوراة أنه مرّ بالعبرانيين عهدٌ بعد القضاة لم تكن فيه حكومة، ممّا أدّىٰ إلىٰ فقدان الأمن والاَستقرار، وصار كلّ فرد يتصرّف علىٰ هواه. وها قد تكرّر الأمر في بلادنا بعد موت درتاد السعيد. حين رأىٰ باكور، المعيّن سفيرًا في منطقة آغتسنيك، ما فعله سانادروك حين نصّب نفسه ملكًا علىٰ بايداكاران، أراد أن يفعل مثله ويستقلّ في إمارته دون أن يحمل لقب ملك، لأنه لم يكن من أسرة آرشاكوني، واَكتفىٰ بالاَنفصال عن الأرمن، ونفّذ قراره متحالفًا مع فورميزت ملك الفرس.

فتنبّه نبلاء الأرمن وتيقّظوا إلىٰ الخطر، واَجتمعوا عند فرطانيس الكبير، واَعتمدوا أميرَيْن من الأشراف، هما الأمير مار من دزوبك والأمير كاك من هاشديانك، وأوفدوهما إلىٰ عاصمة القيصر قسطنط بن قسطنطيانوس، محمَّلَيْن بالهدايا، مع رسالة هٰذا نصُّها:

٥

مضمون رسالة الأرمن

من فرطانيس رئيس أساقفة الأرمن، ومن يتبعه من الأساقفة وكبار الشخصيات في أرمينية الكبرىٰ، يطلبون لكم البركة وطول البقاء، يا سيّدنا القيصر قسطنط.

عد بذاكرتك إلىٰ تعهّد أبيك قسطنطيانوس لملكنا درتاد، ولا تترك بلادنا عرضةً لعبث الفرس الكفّار، بل أدعمنا بالقوة لتمليك خسرف بن درتاد مَلِكًا علينا، لأنّ الله لم يُحَكِّمك علىٰ الغرب فقط، بل مكّنك من بلاد الرافدين وأطراف الدنيا التي وصلت إليها قواتك.

ونحن نتمنّىٰ لك العزّة ودوام المجد.

ما كاد قسطنط يسمع بالأمر حتىٰ أوفد مدير بلاطه آنديوكوس علىٰ رأس جيشٍ جرّار، مع ثيابٍ ملكية وإكليلٍ، ورسالة هٰذا مضمونها:

رسالة قسطنط :

من القيصر آغسطس قسطنطوس العظيم إلىٰ فرطانيس الكبير وكلّ أهل بلادكم، سلام.

ارسلتُ جيشًا للمساعدة، وأمرته أن يدعمكم لتُنَصِّبوا خسرف بن درتاد ملكًا عليكم، لعلّكم تتمكّنون من ترسيخ النظام، وتنتمون إلينا بالولاء. ودمتم.

٦

مجيء آنديوكوس وأعماله

وصل آنديوكوس وتَوّج خسرف ملكًا، وعيّن علىٰ الجند أربعةً من القادة يتمتّعون بسلطةٍ متعادلة، مثلما كان عيّنهم درتاد قبل موته بعد موت آردافازت مانتاكوني، عرّابه والقائد الوحيد لكلّ الأرمن.

أمّا القادة الأربعة فهم: اللواء باكاراد، قائدًا للجيش الغربي؛ الثاني مهران،

المرشد الجورجي وحاكم كوكار، قائدًا لجيش الشمال، الثالث، فاهان كبير الآمادونيين، قائدًا للجيش الشرقي، الرابع، ماناجيهر كبير الرشدونيين، قائدًا للجيش الجنوبي.

بهذا الشكل قسّم عليهم الجيش الكبير، وأرسل مناجيهر علىٰ رأس جيش الجنوب وجيش كيليكيا إلىٰ بلاد الآشوريين وبلاد الرافدين، بينما أرسل فاهان كبير الآمادونيين علىٰ رأس جيش الشرق مع جيش الكالاديين إلىٰ نواحي أزربايجان لحمايتها من غزو الفرس.

وأبقىٰ خسرف في مدينته، لأنه صغير السنّ طريُّ العظم، ولا يتمتّع بأهليةٍ وخبرة حربية، وأخذ معه مهران وباكاراد مع جيشيهما وكلّ الجيش اليونانيّ، وتوجّه نحو ساناداروك، وكان هٰذا قد حشد جيوش الفرس في بايداكاران، وأسرع مع وجهاء آغوان إلىٰ شابوه يطلب اللجوء إليه. ولما رأىٰ آنديوكوس أنهم لن يستسلموا له، أمر بنهب كلّ ما يملكه المتمرّدون لإذلالهم، كغنائم حرب، وعاد إلىٰ قيصر يحمل إليه الخراج الذي جمعه.

٧

مناجيهر يرتكب خطأ أمام هاكوب الكبير ويموت

زحف مناجيهر بجيش الجنوب وجيش كيليكيا إلىٰ نواحي آشور، وحارب باكور وقتله. وشتّت شمل جيشه مع القوة الفارسية التي جاءت لدعمه، وأسر هيشا بن باكور وقيّده بالسلاسل وأرسله إلىٰ خسرف، وأعمل السيف بالناس بلا رحمة، وراح يضرب المحاربين والقرويين العُزّل علىٰ حدٍّ سواء، واقتاد كثيرًا من الأسرىٰ من نواحي ميدزبين، بينهم ثمانية شمامسة من

أتباع هاكوب الكبير*. فلحق بهم هاكوب، وطلب من مناجيهر الأفراج عن الأسرىٰ العزّل، لأنهم لا ذنب لهم. لكنّ مناجيهر لم يقبل وساطة هاكوب متذرّعًا بموافقة الملك.

عندئذ توجّه هاكوب الكبير إلىٰ الملك. فٱغتاظ مناجيهر، وبموافقة أهل المنطقة أمر بإلقاء الشمامسة الثمانية المعتقلين في البحر. فلمّا سمع هاكوب بما جرىٰ غضب غضبًا شديدًا وعاد إلىٰ مقرّه، حيث فعل ما فعله موسىٰ بعد خروجه من لدن فرعون، وصعد إلىٰ جبلٍ يُشرف علىٰ كامل المنطقة، ولعن مناجيهر وأتباعه. فٱستجاب الله له، ونزل قضاؤه، فأُصيب مناجيهر ـ مثل هيروفتيس ـ بداءٍ مصحوبٍ بشتّىٰ أنواع الآلام ومات. أما المنطقة، فتحوّلت تربتها الخصبة الريّانة إلىٰ تربةٍ مالحة عقيمة، وتحوّلت السماء من فوقهم نحاسًا. وكما جاء في الرواية، أنّ البحر ٱنقلب عليهم وفاض ماؤه وأغرق أراضيهم.

ولما سمع فرطانيس الكبير والملك خسرف بما جرىٰ بادرا إلىٰ إطلاق سراح الأسرىٰ، وأوصيا بالتوجّه إلىٰ الحَبر الكبير ليتوسّلوا إليه أن يرفع عنهم لعنته. بعدما أصابهم من غضب الله وٱنتقامه، ذهب ٱبن مناجيهر وأتباعه إلىٰ هاكوب الكبير يتوسّلون إليه ويناجونه نادمين، يرجونه أن يرضىٰ عنهم، حتىٰ أشفق عليهم، وزالت اللعنة عنهم وعن أرضهم.

* القنيس هاكوب، كبير الكهنة الذي حضر مؤتمر نيقية العالمي، ومات سنة ٣٣٧ أو ٣٣٨ ميلادية، وله مؤلّف يتضمن ٢٢ رسالةً في أمورٍ دينية. وكان محبوبًا جدًّا عند الأرمن.

٨

تملّك خسرف الصغير
وتغيير مقر البلاط وغرس الغابة

في السنة الثانية من تملُّك فورميزت ملك الفرس، والسنة الثامنة للإمبراطور قسطنط، وبمعاونته، مَلَكَ خسرفُ الصغير.

ولم يفعل إبّان مُلكه ما يُذكر، بل لم يفعل أي عملٍ في مواجهة الأنفصاليين، ولم يتحرّك غير مرّةٍ واحدة ضدّ الفرس بالتعاون مع جيش اليونان، بعدما عقد مع قيصرها معاهدةَ صلح طوعيةً، مكتفيًا بالسيادة علىٰ ما تبقىٰ من المناطق، غير مُصْغٍ إلىٰ مشورة النبلاء. لأنه بمقارنة جسمه الصغير مع جسم الإسكندر المقدوني صغير الحجم أيضًا والذي لا يزيد طوله علىٰ ثلاثة أذرع فقط، نرىٰ أنّ الإسكندر فعل الشيء الكثير، بينما أستهتر خسرف الصغير هٰذا بكل معاني البطولة والذكريات الطيبة ولم يهتمّ إلّا بالنزهات ورحلات الصيد التي يصطاد في أثنائها الطيور وغيرها من الطرائد، التي من أجلها أمر بغرس غابة قرب نهر آزاد، وهي ما تزال تحمل أسمه حتىٰ الآن.

شيء آخر فعله خسرف، هو نقل بلاطه إلىٰ أعلىٰ تلٍّ قريب من غابته، نَصَبَ فيها خميلةً تحميه من الشمس، وسمّاها ''تفين''، وهي كلمةٌ فارسية تعني ''تلّ''، لأنّ الفرس كانوا يعبدون الشمس في ذلك الزمان، مع النار المشتعلة التي لوّثت الجوّ بحرارتها وغازاتها الخانقة ذات الرائحة النتنة، التي لم يحتملها سكان آرداشاد فقبلوا الأنتقال إلىٰ المكان الجديد راضين.

٩

في زمنه غزت أقوام الشمال بلادنا
وبطولات فاهان آمادوني

لمّا عرف سكّان الشمال من القفقاس تهاون [خسرف الصغير] وكسله قَدِموا بحشودٍ كبيرة ـ يُقدّر عدد أفرادها بعشرين ألف محارب ـ إلىٰ أواسط بلادنا، بناء علىٰ ترغيبٍ من سانادروك وتحريض من شابوه. فتصدّت لهم قوات الأرمن الشرقية والغربية، بقيادة باكاراد والنبيل فاهان آمادوني لأنّ قوات الجنوب كانت مع خسرف في دزوب، ولأنّ الأعداء كانوا قد قتلوا مهران وهَزَموا جيش الشمال إلىٰ فاغارشاباد وحاصروه هناك. ففاجأتهم قواتنا الشرقية والغربية بهجومٍ صاعق، وردّوهم إلىٰ حوض أوشاكان قبل أن يتمكّنوا من رميهم بالسهام حسَب عادتهم، وظلّوا يلاحقونهم حتىٰ حصروهم في منطقةٍ وعرة، ولم يتركوا لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم.

كان علىٰ رأس رماتهم عملاقٌ مدجّج بالسلاح، مدرّعٌ بدرعٍ متين يستر كلّ بدنه، راح يصول ويجول حتىٰ لَفَتَ أنظار المحاربين الأرمن، لكنهم لم يتوصلّوا إلىٰ النيل منه مع كلّ محاولاتهم، لأنّ درعه كان يصدّ كلّ الرماح والنّبال الموجّهة إليه، عندئذ توجّه البطل فاهان آمادوني بالصلاة إلىٰ الله والكنيسة وقال: *«ربّ ساعدني، يا مَن سدّدت حجر مقلاع داوود علىٰ جوليات، سدّد رمحي أيضًا إلىٰ عين هٰذا الوثني»*. لم يَخِبْ رجاؤه، وضرب رأس فرس العملاق وأسقطه عنه. فٱرتاع أتباعه وهربوا يلاحقهم أبطال جيش الأرمن الذين ٱرتفعت معنوياتهم، وحازوا النصر.

عند عودة الجيش إلىٰ دزوب منتصرًا، روىٰ باكاراد للملك، بلسانه

الفصيح ومن دون حسد أو غَيْرة، ما فعله فاهان، فأنعم الملك علىٰ فاهان بأن أقطعه منطقة أوشاكان التي جرت المعركة عليها وهزم فيها فاهان العملاق. وعيّن علىٰ الفرقة المهزومة بدلًا من مهران من يسمىٰ كارجويل ماغ خاغ رئيس عشيرة خورخوروني قائدًا لجيش الشمال.

١٠

موت خسرف
وحرب الأرمن والفرس

حين علم خسرف أنّ شابوه ملك الفرس قد ٱتّفق مع الأعداء ضدّه، ألغىٰ عهد السلام بينهما، وتوقّف عن دفع الخراج للفرس وحوّله إلىٰ القيصر، وٱستحضر قواتٍ يونانيةً، وأعلن الحرب علىٰ الفرس. لكنّ الأجل وافاه، ومات بعد حكم دام تسع سنوات، فحملوا جثمانه ودفنوه في آني بجوار آبائه. وبادر فرطانيس الكبير دعوة كبار الأرمن وقادة الجيش إلىٰ ٱجتماعٍ أُقِرّت فيه مهمّة إدارة البلاد إلىٰ آرشافير بن كامساراكان، ريثما يعود من سفَره مع ديران بن خسرف إلىٰ القيصر ليُتَوَّجه ملكًا علىٰ الأرمن في مكان أبيه.

عندما علم شابوه بموت خسرف وبسفر ٱبنه ديران إلىٰ القيصر، جمع جيشًا عظيمًا سيّره بقيادة أخيه نرسيه إلىٰ بلادنا مستغلًّا غياب الحاكم فيها ليتوّج نرسيه ملكًا علىٰ الأرمن. لكنّ آرشافير كامساراكان البطل تصدّىٰ له بجيش الأرمن في مكانٍ يسمّىٰ مروغ، ودارت معركةٌ حامية سقط فيها كثيرٌ من الأبطال الأرمن، إلّا أنها ٱنتهت بنصر الأرمن، ودحر الجيش الفارسي وإجباره علىٰ الفرار. وهٰكذا حافظوا علىٰ البلاد حتىٰ مجيء ديران.

١١

تملُّك ديران
ورحيل فرطانيس الكبير عن هذه الدنيا
وخلافة ابنه هوسيك على كرسي القداسة

في السنة السابعة عشرة من حكم أوغسطس قسطنط ابن قسطنطيانوس، تَوّج ديرانَ بن خسرف ملكًا على الأرمن، وأعاده مع فرطانيس الكبير إلى بلاد أرمينية، وبمجيئه عمّ السلام في البلاد بعد معاهدةٍ أبرمها مع الفرس تتضمّن الصلح وإبعاد شبح الحرب، مقسّمًا الخراج بين اليونان والفرس. وعاش مثل أبيه في سلامٍ دائم، من دون أن يُحقّق أية بطولةٍ تُذكر له، ودون أن يتّبع ديانة آبائه، وتمرّدَ على كلّ العبادات حتى عبادة الأوثان إكرامًا لفرطانيس الكبير.

بعد خمسة عشر عامًا من أسقفيّته، فارق فرطانيس الكبير الدنيا في السنة الثالثة من حكم ديران. فأمر الملك بحمل جثمانه ودَفِنه في قرية طورطان، وكأنّ قلبه يحدثه بأنّ رُفاته سيُدفن يومًا ما فيها. وجلس على كرسي القداسة ابنُه هوسيك خلفًا له، في العام الرابع من حكم ديران، وسار على نهج آبائه متمسّكًا بعقيدتهم.

١٣

الحرب بين شابوه وقسطنط

حافظ شابوه على الودّ بينه وبين ملكنا ديران، بل ساعده على الخلاص من هجمات عشائر الشمال، الذين اتّحدوا وعبروا ممرّ جورا، ومكثوا أربع سنوات فيها مع قواتهم عند حدود آغوانك. وبدأ شابوه بعد ذلك يغزو بلاد عددٍ من الملوك، ومنها بلاد الرافدين، مستعينًا بقواتٍ من الأقوام الهمجية في طريقه إلى فلسطين. فتصدّى له قسطنط يوليوس قيصر. لكنّ الحرب كانت سجالًا بينهم، وقع خلالها من القتلى خَلْقٌ كثير، ممّا اضطرّهما إلى عقد صلحٍ دام عدّة سنوات.

بعد عودة قسطنط من الحرب أُصيب بمرض عضال، ومات ودفن في مدينة مومبسيفيست في كيليكيا، بعد حكم دام ثلاثةً وعشرين عامًا. وفي أيّامه ظهر في السماء صليبٌ من نورٍ فوق أورشليم رآه المؤمنون وغير المؤمنين في عهد كوريغ السعيد*.

* هو كوريغ الإسكندرانيّ الروحاني، المؤرّخ المشهور، الذي شغل كرسيّ بطركية الإسكندرية مدّة ٣٢ عامًا (٤١٢ ـ ٤٤٤)، وعارض بطريرك أستانبول في دعوته إلى عدم تلقيب السيدة مريم بلقب أمّ الإله، فرفض الدعوة، ونجح في عقد مؤتمر آفسوس عام ٤٣١، الذي ترأسه وأتّهم نسطور بالإلحاد. له مؤلّفات كثيرة تتعلّق بالطبيعة الواحدة للمسيح والتنديد بمن لا يؤمنون بذلك، صارت أفكاره الصائبة سلاحًا في أيدي السّلف في مؤتمر قالقيدونيا ضد القالقيدونيين الذين اعتنقوا مذهب الطبيعتين. تُرجمت أعماله كلّها إلى الأرمنية.

١٣

ديران يسعى إلى يوليانوس
ويسلمه رهائن

في تلك الأيام، تولّى على اليونان ملكٌ غير مؤمن يدعىٰ يوليانوس*، كفر بالله وعبد الأوثان، واضطهد الكنيسة وأثار الاضطراب وهو يحاول إخماد جذوة المسيحية بشتىٰ الوسائل. ولما لم تنجح معه القوة عمد إلىٰ المكر ليُعطّل دين المسيح، ويُرَوِّج لدين الأبالسة. فأعلن الحرب علىٰ الفرس، وعبر كيليكيا إلىٰ بلاد الرافدين، لكنّ حماة الحدود الفارسيين قطعوا حبال جسر الزوارق المرصوصة علىٰ الفرات، ليُعيقوا تقدُّمه، فبادر ديران إلىٰ نصرته، وسبقه إلىٰ مهاجمة جيش الفرس، وهزمهم مقدِّمًا ليوليانوس خدمةً عظيمة، بعدما يسّر له عبور النهر مع جيشه لمهاجمة الفرس، فكَبُر في عين يوليانوس.

لكنّ ديران طلب من يوليانوس بالمقابل، أن يُعفيه من مصاحبته إلىٰ فارس، مُدّعيًا أنه لا يستطيع ركوب حصان، فوافق يوليانوس بشرط أن يضع جيشه تحت تصرّفه، وسلّمه رهائن لضمان وفائه، إلّا أنّ ديران لم يرهن ابنه آرشاك بل دفع إليه الابن الثالث لدرتاد مع زوجته وأولاده وحفيده ديريت من

* هو يوليانوس كلاوديوس ابن شقيق قسطنطيانوس الكبير. ولد عام ٣٣١ ونُصّب قيصرًا عام ٣٥٣ ميلادية، وانتخبه الجيش قيصرًا عام ٣٦٠، ووحّد القيصريّتين تحت حكمه المنفرد عام ٣٦١. وقُتل عام ٣٦٣ في أثناء الحرب ضدّ الفرس. تلقّىٰ في صغره تربيةً دينية متزمّتة، لكنه سئم منها، وراح يُهين المسيحيين، ويحاول العودة إلىٰ العقيدة الوثنية، لكنه لم ينجح، ولُقّب بالكافر، وعرف في أرمينية بلقب يوليانوس الخبيث.

ٱبنه المتوفىٰ آرداشيس. فتسلّمهم يوليانوس، وأرسلهم من فوره إلىٰ بيزنطة، وسمح لديران بالعودة إلىٰ بلاده، بعدما أعطاه صورته المحفورة علىٰ الخشب، وأمره بأن يعلّقها علىٰ جدار الناصية الشرقية من الكنيسة، وأكّد له أنّ كلّ الذين يخضعون للسيادة الرومانية يفعلون ذلك. فأخذها ديران وتعهّد له بتنفيذ أمره، ولم يخطر بباله أنه يخدعه، ويدفعه دون أن يشعر إلىٰ عبادة الشياطين.

١٤

استشهاد القديسين هوسيك ودانيال

عندما وصل ديران إلىٰ منطقة دزوبا، أراد أن يعلّق الصورة في كنيسة قصره، إلّا أنّ القديس هوسيك ٱختطفها من يده، وألقاها علىٰ الأرض وداسها برجله وحطّمها، مبيّنًا للملك مغزىٰ الخديعة. لكنّ الملك لم يقتنع، خوفًا من يوليانوس الذي قد يقتله إذا سمع بأنّ صورته قد حُطّمت وصارت مداسًا للأرجل. فٱحتدم الغضب في صدره، وأخذ يوبّخ القديس هوسيك، وأمر بأن يُضرب بالعصا حتىٰ الموت.

بعد موت هوسيك تعرّض ديران لسخط الكاهن العجوز دانيال ولعنته، وكان تلميذًا وخادمًا لكريكور، لذلك أمر ديران بقتل الآخر أيضًا خنقًا. فحمل تلاميذه جثّته، ودفنوها في صومعته الملقّبة بجنّة الخبز، بينما حملوا جثّة هوسيك ودفنوها بجانب أبيه في قرية طورطان، بعد ستّ سنواتٍ من خدمته في المطرانية.

١٥

كيف اخذ زورا جيش الأرمن وعاد من عند يوليانوس ومقتله مع عشيرته

عندما وصل خبر مقتل القديس هوسيك وسخط النبلاء على ديران، إلى سمع كبير الرشدونيين الذي كان قائدًا لجيش الجنوب عوضًا عن مناجيهر، والذي كان قد وُضع مع جيشه تحت تصرّف يوليانوس، قال لجيشه: «*نحن لن نعمل لصالح هذا الرجل، لأنه يسعى إلى الإساءة إلى دين المسيح ويقتل قدّيسيه. نحن لن ننقاد لملكٍ غير مؤمن*». فأيّد الجيش رأيه، وعادوا كلُّهم وآعتصموا في حصن دموريك. قبل أن يستطلع أخبار النبلاء الآخرين، لكنّ محاربي يوليانوس سبقوه ووصلوا قبله، حاملين رسالة إلى ديران تتضمن ما يلي:

رسالة يوليانوس الى ديران:

من الحاكم بأمره يوليانوس، من أسرة إيناك بن آرامازت، المقدّر لمصيره الخلود، إلى عاملنا ديران، سلام.

إنّ القوة التي أرسلتها معنا، عادت بقيادة رئيسها، كان بإمكاننا إرسالُ بعض كتائبنا في أعقابهم والنيل منهم، لكننا تركناهم لسببين: أولًا لكي لا يتحدّث الفرس عنّا أننا نجلب الجنود غصبًا عن إرادتهم، وثانيًا، لكي نختبر ولاءك.

فإذا لم يكن ما فعله برضاك، فأثبتْ ذلك بإبادته مع أسرته، ولا تُبقِ له ذريّة. أمّا إن كان الأمر برضاك، فأُقسم بمارس الذي أنعم علينا بالمُلك، وبآلهتنا نصيرتنا، بأنْ أُهلكك عند عودتي مع جيشي الذي لا يُغلب، وأُدمّر بلادك.

حين علم ديران بما جرىٰ، غَضب، وأرسل رئيس القوم الملقّب بهاير، أي الأب، إلىٰ زورا، يستدعيه إليه ليُسائله، فلمّا حضر وجد أنّ النبلاء قد تخلّوا عنه ووقفوا ساكتين، وأنّ الجيش قد اَنفضّ عنه أيضًا. وبقي وحده في مواجهة الملك، الذي كان قد اَستولىٰ علىٰ أختمار وقلعتها، وقتل كلًّ من فيها، وأبادهم عن آخرهم، إلّا طفلًا صغيرًا تمكّن أحد مربّيه من تهريبه، هو اَبن مهينتاك شقيق زورا. وعيّن الملك ساغاموت صاحب آندريه مكانه.

١٦

موت ابناء هوسيك
وخلافة بارتيرسيه على الكرسي

طلب النبلاء من ديران اَختيار رجلٍ مقتدر يتولّىٰ منصب الكرسي الرسولي، بدلًا من هوسيك الذي مات، وخلّف أولادًا لا يصلحون لهٰذه المهمّة وهٰذا المنصب الرفيع، إضافةً إلىٰ النكبة التي حلّت بهم وأزهقت روح اَثنين منهم هما "باب" و "آتاناكينيس" بصعقةٍ صعقتهما، ولم يخلّف الأول أولادًا، ولم يخلّف الثاني غير ولدٍ واحد صغير يدرس في قيصرية واَسمه نرسيس، وكان قد ذهب إلىٰ بيزنطة ليتزوّج اَبنة أمير يدعىٰ آسبيون.

وعدا هٰذا لم يبقَ أحدٌ من ذرية كريكور. لذلك اَختار ديران مَن يدعىٰ بارتيرسيه من آشديشاد في دارون، وعيّنوه رئيس كهنة في السنة الثالثة عشرة من حكم ديران، وشغل الكرسي أربع سنوات.

١٧

كيف خُدع ديران
واستجاب لدعوة شابوه الذي سمل عينيه

في أثناء القتال جُرح يوليانوس في بطنه، ومات كافرًا في فارس بما يستحقّه نتيجةً لأفكاره الخبيثة. فأنتخب جيشه هوريانوس ملكًا عليهم، مات هو الآخر في الطريق قبل وصوله إلى بيزنطة. فتعقّبهم شابوه ملك الفرس، ثمّ مَكَر بديران، إذ دعاه إلى الحضور إليه برسالةٍ جاء فيها:

رسالة شابوه إلى ديران:

من بطل المازتيين والزرادشتيين، قرين الشمس، شابوه، ملك الفرس، وملك الملوك، نذكّر بفضلنا الأخَ المحبوب ملك الأرمن ديران، سلام.

لقد توصّلنا إلى قناعةٍ تامّة بأنك حافظت على ودّنا، ولم تأتِ إلى فارس مع القيصر غازيًا، كما أنك أرسلت رسولاً وآستدعيت تلك الكتيبة التي أخذها منك يوليانوس عنوةً. ولقد عرفنا سرّ مبادرتك الأولى، بأنك لم ترغب في أن يغزونا عبر بلادك، حسب الخطّة التي كان قد رسمها لنفسه. لذلك سمح لك حرّاسنا بالمرور. فغضبنا وسقينا رئيس الحرس دم ثورٍ عقابًا له. نحن لا نريد إلحاق الأذى بمملكتك. ونقسم بمهر الإله الأعظم أن تأتي لزيارتنا من أجل منفعتنا المشتركة وتبادل الرأي.

آستطار ديران من الفرح، وذهب إليه، وكأنّ العدالة تقوده إلى الوفاء بالدّين.

وعندما مَثَلَ أمام شابوه وجهًا لوجه، أهانه بالكلام أمام جُنده، وأَمر بأن تُسْمَل عيناه مثلما جرىٰ قديمًا لـ"سيتيكيا"*.

هٰكذا تمّ الانتقام للرجل القديس [هوسيك]، الذي كانت تستنير به بلادنا حسب تعاليم الإنجيل، نور العالم. لقد أراد [ديران] أن يُطفئ نوره في أرمينية، فأرسل الله له من يطفئ نور عينيه بعد إحدىٰ عشرة سنةً من الملك.

١٨

شابوه يملك آرشاك ويغزو اليونان

بعدما فعله شابوه بديران، عُيّن آرشاك بن ديران ملكًا علىٰ الأرمن بدلًا من أبيه، وبدأ يسترضي الجيش الأرمني ليسانده، في تنفيذ مخطّطاته، لأنه أدرك أنّ مساندة الأرمن له تدعم حلفه. ولتمكين ذلك أخذ رهائن من العشائر المعارضة كي يضمن ولاءها. وعزل فاهان آمادوني من قيادة جيش الشرق الأرمني، وعيّن سوني فاغيناك الموالي له بدلًا منه. وأوكل إليه أمر أرمينية، ليتفرّغ لمطاردة جيش اليونان الذي احتمىٰ في بوتانيا، فحاصرها شهورًا عدّة. ولمّا لم يتمكّن من فتحها، رفع عند شاطئ البحر عمودًا يحمل تمثالًا علىٰ شكل أسدٍ يمسك بمخالبه كتابًا يرمز إلىٰ أنه هو الأقوىٰ، كالأسد بين مخلوقات الغابة، وأنه هو الفارسيّ ملك الملوك. أمّا الكتاب فيرمز إلىٰ تبنّي العِلْم، علىٰ غرار اليونان والرومان.

* سيتيكيا، آخر ملك لـ يهوذا. أراد أن يتخلّص من حكم نَبُوخَذْنَصَّر في بابل، لكنه انكسر في الحرب معه، فأمر نبوخذنصّر بسَمْل عينيه، وسجنه، حيث مات عام ٥٩٧ قبل الميلاد.

١٩

كيف استهان آرشاك بملك اليونان

في هٰذه الأوقات، وقعت أحداثٌ بين قبائل الشمال شُغل بها شابوه ملك الفرس، فآستغلّها فاليندیانوس الذي تولّىٰ المُلك علىٰ اليونان حديثًا، ليرسل لواءً من الجيش إلىٰ بلاد الرافدين لطرد الفرس منها.

ثم أرسل ورقةً إلىٰ ملكنا آرشاك هٰذا نصها:

ورقة فاليندیانوس الى آرشاك:

من الحاكم بأمره فاليندیانوس أوغسطس، المعادل بالعرش وبالتاج للقيصر فاليس، إلىٰ آرشاك ملك الأرمن، سلام.

كان عليك أن تتذكّر المساوئ التي لحقت بكم علىٰ يد الفرس الوثنيين، والخير الذي وجدتموه عندنا منذ القدم وحتىٰ يومك هٰذا. وكان عليك أن تبتعد عنهم وتقترب منّا، كي نتّحد ونحاربهم معًا.

لذا أَرسلْ إلينا، عن طريق رجالنا الموجودين هناك، خراج بلادكم مع رسائل مرضية، لكي نُعيد إليك أخاك مع غيره من الرهائن الموجودين عندنا.

ودمت سالمًا مطيعًا تمامًا لإدارتنا الرومانية.

لكنّ آرشاك لم يردّ علىٰ الرسالة، بل أمعن في الآستهانة بها، وبدأ يستعدّ للمواجهة. إنه لم يَنحَزْ إلىٰ شابوه بكلّ قلبه، ولم يُجارِ الرومان، بل آستسلم للذّاته وللطعام والشراب ومجالس المغنّين المأجورين، مغرورًا بنفسه، وكأنه

أشجعُ من آكيلليس* وأكثرُ منه رجولةً، وهو لا يتعدّىٰ في الواقع أن يكون ترسيدس الأعرج الأحمق، المنبوذ عند الكبار والصغار، إلىٰ أن نال جزاء غروره.

٣٠

القديس نرسيس والإصلاحات التي نفّذها

في السنة الثالثة من حكم آرشاك، آحتلّ القديس نرسيس بن آتاناكينيس بن هوسيك بن فرطانيس بن كريكور المقدّس، منصبَ رئيس الأساقفة الأرمن، بعدما عاد من بيزنطة إلىٰ قيصرية، ومنها إلىٰ أرمينية. فكرّس الأنظمة التي رسمها آباؤه، وزاد عليها بأن طبّق في بلادنا ما شاهده من إصلاحاتٍ في بلاد اليونان، خصوصًا في عاصمة المملكة، حيث دعا إلىٰ آجتماعٍ للروحانيين والمدنيين، ووضع نظامًا قانونيًا لمبدأ الغفران، وحضّ علىٰ إلغاء عادة عدم الرحمة التي كانت سائدةً في بلادنا، إذ كان المصابون بالجرب مضطهدين، ويُعتبرون أشخاصًا مدنّسين، ومثلهم المسلولون الذين كانوا يُطرَدون إلىٰ الصحارىٰ والقفار، فراشُهم الحَجَر وغطاؤهم الشوك، لكي لا ينتقل الوباء منهم إلىٰ الغير، فإمّا أن يموتوا أو يقضوا حياتهم في شقاء لا يسأل عنهم أحد. كذلك الأمر مع المعاقين. يَحْيَون منبوذين مقهورين. وهم لا يَقْبَلون ضيوفًا لا يعرفونهم، فلا يجد الغريب عندهم مأوًى أو مكانًا.

فلما تولّىٰ الحكم أمر بإنشاءِ ملاجئَ في أمكنةٍ معزولة بعيدة عن الناس،

* آكيلليس: هو البطل الرئيس في الياذة هوميروس. ترسيديس: جنديٌّ بسيط في ملحمة الإلياذة تجرّأ علىٰ آنتقاد الملوك والنبلاء، فغضب عليه أوليس وضربه.

للفقراء وذوي العاهات الجسدية، على نمط المستشفيات اليونانية، وقف لها حقولًا ومزارع تغطّي نفقاتهم ممّا تنتج الأرض، وممّا تنتج البهائم من حليبٍ وصوف وغيرها، بشرط ألّا يغادروا المناطق التي خصّصها لسكناهم. وأوكل إلى الشماس المدعو "كات" من قرية كارني مارك، مهمّة الإشراف على هذه الأماكن. ثمّ أوعز ببناء مضافاتٍ للغرباء كالفنادق، وملاجئ تقدِّم المأوى والغذاء للأيتام والعجزة والمساكين وبناء أخويّاتٍ، ومعتزلات، وصوامع في الصحارى والأماكن غير المأهولة. وعيّن على إدارتها كلًّا من شاغيدا وبيبيان ويبرم وكينت من قوم سلكون يتبادلون العمل فيها مع العشائر الأخرى. كذلك أصدر أمرًا بمنع الزواج بين ذوي القربى وكانت عادةً سائرةً بين كبار النبلاء بصورةٍ خاصة، طمعًا في أن لا تنتقل أموالهم إلى الغير. وأمر بٱحترام الأموات وعدم إهانتهم، مثلما كان يجري في الجاهلية.

وبذلك أعاد إلى أمتنا صفاتها الإنسانية بدلًا من الوحشية، كما أمر الله.

٢١

مقتل درتاد شقيق آرشاك
وذهاب القديس نرسيس إلى بيزنطة لتسلُّم الرهائن والعودة

كان "فاليندیانوس" صارمًا جدًّا، وحازمًا مع الظالمين من الناس، فأهلك كثيرًا من الناس بسبب جشعهم. وحرق الإقطاعيّ "رولانوس" حيًّا، لأنه رفض إعادة أموالٍ ٱغتصبها من ٱمرأةٍ بغير وجه حق، على الرغم من تحذيره ثلاث مرات. في اليوم نفسه، عاد مبعوثوه من أرمينية ليُعْلموه بأنّ آرشاك يستخفّ به ويحقّره. فأمر بقتل درتاد شقيق آرشاك، ووالد كينيل الطفل الموجود عنده بين الرهائن. وأمر بإرسال حملةٍ بجيشٍ عظيم إلى أرمينية

لتأديبه. فلما اقترب الجيش من الحدود، خاف آرشاك، وأوفد نرسيس لاستقباله مع كامل الخراج، والهدايا الثمينة.

فلما وصل نرسيس إلىٰ بيزنطة هدّأ من غضب قيصر وطالبه بالرهائن، فسلّمهم إليه، وعاد بهم إلىٰ بلاده، مصطحبًا عذراء من أسرة قيصر لتكون زوجةً لآرشاك اسمها "أوليمبيادا"، وشعر قيصر بالندم علىٰ قتل درتاد بلا ذنب ارتكبه، وبسبيل التعويض لابنه كينيل منحه شرف السفارة وأعطاه كنوزًا كثيرة، حسده عليها "ديريت" وبدأ يخطّط للكيد به وإيقاعه في التهلكة.

٢٢

الخلاف بين آرشاك وكينيل
وموت ديران

جاء كينيل إلىٰ قضاء "كواش" عند سفح جبل آراكادز، للإقامة عند جدّه ديران الذي كانت قد سَمِلَت عيناه وما زال حيًّا. بكىٰ ديران بحرارة وحرقة علىٰ ولده درتاد والد كينيل، لأنه اعتبر نفسه مسؤولًا عن مقتله. ووهب كلّ أمواله وممتلكاته إلىٰ كينيل إضافةً إلىٰ الأراضي والضياع، طالبًا إليه الإقامة فيها إلىٰ جانبه. بعد ذلك تزوّج كينيل بمَن تُدعىٰ بارانتسيم من أسرة السونيين، وأقام لها عرسًا يليق بالملوك، أغدق فيه إغداقًا علىٰ النبلاء، فأُعجبوا به وأحبّوه، وقدّموا له أولادهم، فأنعم عليهم بالأسلحة والحلل والزينة الفاخرة، فزاد حبّهم واحترامهم له.

هنا وجد ديريت الفرصة سانحة لينفث سمّه. فجاء إلىٰ الملك مع صديقه وارطان حامل سلاح الملك، من أسرة ماميكون وقال له: *«ألا تعلم أنّ كينيل يفكّر في قتلك ليحلّ محلك علىٰ عرش المملكة. تصوّر، أيها الملك، أنه سكن في*

آيراراد، وفي أملاك الملكية، وجمع حوله كثيرًا من النبلاء، وآجتذب قلوبهم. ولتحقيق هدفه منحه قيصر شرف السفارة مع أموالٍ كثيرة ينفقها عليهم».

وكان وارطان يؤيّد كلامه، ويقسم عليه بشخص الملك ويقول: «سمعت *بأذني من كينيل يقول: ''أنا لن أتنازل عن ثاري من عمي، على مقتل أبي!''*».

صدّق آرشاك النميمة، وأرسل وارطان نفسه إلى كينيل يقول له: «*لماذا أقمت في آيراراد على خلاف عادة أسلافنا. أنا أخيّرك بين أمرين: أن تموت، أو تغادر آيراراد وتبقى بعيدًا عن النبلاء*».

نفّذ كينيل أمر الملك وغادر آيراراد إلى آغيوفيد وآربيران. لكنّ ديران وجّه إلى آبنه آرشاك كلامًا قاسيًا، مات على أثره خنقًا بيد خدمه، بإيعازٍ من آرشاك، ودُفن في مقبرة ''كواش''، ولم يدفن في مقبرة أجداده، وكان في ذلك آنتقام الربّ لمقتل رجل الله دانيال، فكيل له بالمكيال الذي كال به، كما جاء في الكتاب المقدس*.

٢٣

غيرة آرشاك من كينيل مرة أخرى وقتله

بعد ذلك خرج الملك إلى الصيد في منطقة وادي كوكا التي يحبّها عند سفح ماسيس. فنال صيدًا وفيرا غرّه، وجعله يعتقد بأنه لم يسبق لأحدٍ قبله أن آصطاد كلّ هذا العدد في ساعةٍ واحدة. وعاد ديريت ووارطان إلى الملك بالنميمة قائلين: *لقد آصطاد كينيل في مثل هذه الأيام عددًا أكبر بكثيرٍ مما*

* آنجيل متى: ٧، ٢.

أصطدته أنت في جبله ''شاهابيغون'' الذي ورثه عن جده لأمه، ''كنيل كنون''.
فأرسل إلىٰ كينيل الأمر الملكي التالي:

ورقة آرشاك إلى كينيل :

من آرشاك ملك أرمينية الكبرىٰ إلىٰ ولدي كينيل، سلام.
اَختَرْ في أعلىٰ جبل دزاغكانتس مكانًا كثيف الغابات، وفير الصيد، لنأتي إليك ونخرج إلىٰ الصيد معًا لنصطاد ما نريد، وليكن المكان كثير الماء يليق بالملك.

أرسل آرشاك الرسالة بالأمر الملكيّ، وتوجّه فعلًا إلىٰ هناك مُخطّطًا لاَعتقاله إذا لم ينفّذ كينيل أمره بتهمة عصيان أمر الملك. لكنه عندما وصل وجد من كثرة عدد الصيد ومن التجهيزات ما فاق توقّعه ممّا لم يره من قبل قطّ. فزاد حنقه عليه، وأمر وارطان بأن يقتل كينيل في أوج معمعة الصيد، فيكون قتله قضاءً وقدرًا بفعل سهمٍ طائش أصابه بدلًا من أن يصيب الوعل. كان وارطان ينتظر مثل هٰذه الفرصة، لا لتنفيذ أمر الملك وحسب، بل ليَشفي غليله وغليل صاحبه ديريت، ويبرّدا حقدهما عليه.

بعد قتله، أمر الملك بحمل جثّته، ودفنها في مدينة زاريشاد في حوض وادي آغ، وبكلّ براءةٍ أعلن عليه حدادًا كبيرا.

٢٤

كيف تجزا آرشاك على اخذ زوجة كينيل التي ولدت "باب" ؟

اعتقد آرشاك أنّ ما فعله قد بقي سرًّا، لكنّ ما لا يَخفي علىٰ عين الله

شاع في كلّ الدنيا، وعُرف أنه وراء موت ديران وكينيل، ووصل الخبر إلىٰ نرسيس الكبير، فلعن آرشاك، ولعن من قام بقتلهما، وحزن عليه حزنًا عميقًا، وٱعتزل الناس عدة أيام، مثلما حزن موسى علىٰ شاوول. لم يندم آرشاك ولم يستغفر، بل طمع في أموال [كينيل] وميراثه، وتمادىٰ فتزوّج بزوجته بارانتسيم، وَوَلَدَت له ولدًا سمّاه "باب".

لم تسكت بارانتسيم علىٰ الظلم، وأرادت أن تقابل الشرّ بالشرّ في خطّةٍ سرّية تقشعرّ لها الأبدان، إذ ٱتّفقت مع عرّافٍ زنديق زوّدها بسمٍّ زُعاف، مزجتْه بماء الحياة، وسقتْه لأوليمبيادا زوجة آرشاك. ولمّا خلا لها الجوّ، أغرتْه بقتل فاغيناك بيده، وتعيين أبيها آنديوك مكانه.

٢٥

مقتل ديريت

بعدما ٱطمأنّ شابوه إلىٰ قبائل الشمال، وٱرتاح من الحروب، أفصح عن غضبه علىٰ آرشاك، لأنه بات يدفع الخراج لقيصر لأعوامٍ طويلة، دون أن يفكّر فيه.

علم آرشاك بذلك، فأرسل إليه ديريت وصاحبَهُ وارطان، بهدايا كثيرةٍ تليق بمقامه، وعرض عليه الصلح. لكنّ شابوه الذي كان يرغب في الٱنتقام من اليونان بسبب الحروب السابقة، همّ بالهجوم عليهم، طالبًا إلىٰ ملكنا آرشاك إثبات وفائه بالذهاب معه إلىٰ الحرب، مع كلّ القوات الأرمنية. حاول آرشاك الٱعتذار عن الذهاب بنفسه إلىٰ الحرب، والٱكتفاء بفرقةٍ صغيرة تذهب معه لدعمه.

غضب آرشاك علىٰ ديريت، فعزله من منصبه، لأنّ كلّ ما حصل كان

بمشورته، بسبب كرهه لليونان. وكان حاملُ سلاح الملك فاساك يغذّي هٰذا الغضب، لأنه يغار من أخيه بسبب آمرأةٍ غانية. فوبّخ الملكُ ديريت و وارطان بقسوةٍ وتحقير وإهانة لم يحتملاها، وهربا للآلتجاء إلىٰ شابوه. وزاد هٰذا من غضب آرشاك عليهما، وأمر فاساك بأن يتبعهما بقوةٍ كبيرة، ويقتلهما أينما ٱلتقىٰ بهما. لم يتخلّف فاساك عن تنفيذ الأمر، ولو كان المطلوب أخاه. وهكذا تمّ الآنتقام لكينيل من الظالم ديريت ٱستجابةً للعنة نرسيس، ومن وارطان الذي قدر له أن يُقتل بيد أخيه الشقيق.

٢٦

انكسار شابوه في ديكراناكيرد

جهّز شابوه جيشًا للهجوم علىٰ مدينتنا ديكراناكيرد، فلمّا وصل فوجئ بدفاع عنيف من سكّان المدينة وحاميتها من العسكر، لأنّ النبيل السوني، الذي كان في منازل آرشاك، كان هو حاكم المدينة، فأمر بإغلاق أبوابها في وجه شابوه. ولم يكتفِ بمنعه من الدخول إليها، بل لم يرسل مفاوضين، ولم يستقبل مفاوضيه. ودار قتالٌ عنيف وقع فيه كثيرٌ من رجال الفرس قتلىٰ. وعاد شابوه إلىٰ ميدزبين مغلوبًا مكسورًا. وبعدما آرتاح جنوده ولملموا أنفاسهم، أراد أن يعيد الكرّة ويفتح ديكراناكيرد، لكنّ طلائع جيشه وجواسيسه نصحوه بالعدول عن رغبته، لأنها ستؤثّر في ما يدبّره لليونان، فتخلّىٰ عن عزمه، وأرسل الرسالة التالية:

رسالة شابوه إلى ديكراناكيرد :

من بطل الزراداشتيين شابوه ملك الملوك، إلىٰ أهل ديكراناكيرد، من لا يُفرّقون بين الآريين، وغير الآريين.

كنت أريد أن أبدأ بمدينتكم فأدخلها بسلام مثل كلّ المدن، وبكرامةٍ تليق بالأبطال، لكنكم ـ يا أهل ديكراناكيرد المعروفين بالبطولة ـ قد وقفتم في طريقي التي رسمتُها إلىٰ وجهتي، فأفسحتم المجال لكي يحذو الآخرون حذوكم.

فالويل لكم، إذن، من غضبي حين أعود، فألقّنكم درسًا يكون عِبرةً للحمقىٰ والأشرار أمثالكم.

٢٧

بناء آرشاكافان وهدمها والاستيلاء على آني

بيد أنّ آرشاك تمادى وقام بعملٍ أحمق، حين بنىٰ عند سفح جبل ماسيس مستعمرةً جمع فيها كلّ المجرمين من الناس، وأصدر أمرًا يقضي بسقوط حقّ المحاكمة والملاحقة عن كلّ من يذهب للعيش فيها. وما أسرع ما اَمتلأ الوادي بجموع الناس من الخونة والمديونين والخدم والمذنبين واللصوص والقتلة، وخاطفي النساء، وغيرهم كثير ممّن وجدوها ملاذًا لهم بعيدًا عن المُساءلة والمحاكمة. هٰذا علىٰ الرغم من اَعتراض النبلاء الذين لم يعجبهم الأمر واَشتكوا إلىٰ شابوه. فكلّف عند عودته أحدَ ضباطه مع كتيبة من الجند، بالقبض علىٰ آرشاك أينما كان، لكنه تواریٰ عن الأنظار، وهرب إلىٰ نواحي القفقاس. واَلتجأ عند الكرج.

عند وصول الضابط الفارسي إلىٰ أرمينية، اَستولىٰ بمساعدة النبلاء علىٰ حصن آني، واَستولىٰ علىٰ كلّ كنوزها الملكية باَعتبارها غنائمَ حرب. ونبش قبور الملوك وأخرج عظامهم. فتوسّط النبلاء لديه، واَسترجعوا العظام ودفنوها في بلدة آغتسك عند سفح جبل آراكادز، ولم يدفنوها في اَستراحة القديسين،

لأنهم لم يتمكّنوا من التفريق بين عظام الوثنيين وعظام المؤمنين بعدما خلطها النابشون.

ثمّ اجتمع النبلاء، وانقضّوا على المستعمرة الملكية آرشاكافان، وقتلوا بالسيف كلّ من فيها من الرجال والنساء، وأبقوا على الأطفال الرُّضَّع، انتقامًا من خدمهم، ومن كلّ الذين ألحقوا بهم الأذى والضرر. ولم يصل الخبر إلى نرسيس إلّا بعد فوات الأوان، وعندما كانوا يتقاسمون الأطفال ليجعلوهم عبيدًا لهم، تمامًا مثلما يفعلون مع أطفال الأعداء الأباعد، ناسين قرابتهم وصلتهم القومية. فخلصهم نرسيس الكبير، وأمر بنقلهم في سلالٍ إلى حظيرته، وخصّص لهم غذاءً ومرضعات. ولمّا كبروا بنوا مستعمرةً خاصّةً بهم سمّوها "سلال الأطفال".

٢٨

الاستيلاء على ديكراناكيرد ودكها من أساسها

وجاء شابوه إلى ديكراناكيرد، فأغلقوا الأبواب مرةً أخرى، واعتلَوا الأسوار، وراحوا يطلقون السهام على جنده ويصيحون: *«ابتعد عنّا يا شابوه، وإلّا سنلحق بك أضرارًا أفدح من الأولى!»*.

لكنه أجاب: *«أيها الأرمن، الشجعان، أنتم محصّنون وممتنعون وراء الأسوار في ديكراناكيرد، وتهدّدوننا من الداخل. الشجعان يحاربون في الميدان الفسيح والمكان الطلق. النساء فقط يخشين القتال ويُغلقن عليهنّ الأبواب»*. قال هذا والتفت إلى الأسرى اليونان: *«إذا استوليتُ على هذه المدينة بمؤازرتكم، حرّرتُكم كلّكم من الأسر»*. وأمر القوات الفارسية بالالتفاف حول المدينة، ورمي كلّ مَن يرونه فوق الأسوار بالسهام.

تقدّم اليونان بهمّةٍ نحو الأسوار يدفعون آلاتٍ تسمّىٰ "الحمار"، هي عبارة عن حُجَيْرةٍ مصفّحة، تسير علىٰ عجلاتٍ يدفعها ثلاثة رجال، وضعوا فيها فؤوسًا، وحرابًا بثلاثة رؤوس، ومطارق مدبّبة، يلصقونها بجدار السور لينبشوا أساس السور الذي بناه ديكران هايكازونيان وهم في أمان. ونبشوها بالفعل، حتىٰ هدموها، وأحرقوا أبوابها، وقذفوا المدينة بالأحجار، وأطلقوا علىٰ المدافعين فوق الأسوار السهام والنبال، ومنعوهم من اعتلاء الأسوار، وأجبروهم علىٰ الابتعاد عنها مجرَّحين مذعورين، ودخلوا المدينة، وأعملوا في أهلها السيف الذي لا يرتوي من الدماء ولا يتعب. فسارت الدماء أنهارًا اختلطت بتراب الأرض. أمّا اليونان فكانوا يُضرمون النار في الأبنية الخشبية، ولم ينجُ من القتل إلّا مَن أسرهم شابوه، وأرسلهم إلىٰ فارس.

وتابع زحفه نحو الكتائب الموجودة في أرمينية، وأمر بإبادة كلّ أهل سوني ولم يترك لهم وارثا.

٢٩

الحرب بين آرشاك ونبلائه وإرسال باب إلى بيزنطة

بعدما استتبّ الأمن عند اليونان، عاد الاضطراب إلىٰ بلاد شابوه علىٰ يد الشماليين، فكأنّ أمانَ هؤلاء مرتبطٌ باضطراب أولئك، حسب المثل القائل: مصائب قومٍ عند قوم فوائدُ، فيصبح موت الواحد بدايةً لحياة الآخر. في هٰذا الوقت مرض فالانديانوس ومات، وتولّىٰ الحكم بعده أخوه فالانس، الذي خاض حربًا موفّقة ضدّ الكوتيين وانتصر عليهم. ولما عاد أرسل جيشًا إلىٰ بلاد الرافدين وأرمينية، لمدّ شابوه بالقوة العسكرية.

لكنّ آرشاك جاء بقوةٍ من بلاد الكُرْج، وقوةٍ من أتباع المُوالين من النبلاء،

وشنّ هجومًا علىٰ النبلاء المعارضين أنتقامًا لمن أسكنهم في آرشاكافان. ودارت الحرب، بين جيشه وجيش النبلاء المتّحدين بقيادة نرسيه بن كامسار، كانت حربًا طاحنة ذهب ضحيتها خلقٌ كثير من الطرفين، لأنهم كانوا يقتتلون فردًا لفرد، لا يُدير أحدٌ ظهره للآخر.

وبينما هم في ورطتهم نزلت عليهم القوات اليونانية الفارسية المتّحدة، فرأىٰ آرشاك نفسه في مواجهة مع شابوه، وفالانس، والنبلاء، وأنه مكروهٌ من الجميع. لذلك أرسل رجالًا إلىٰ نرسيه الكبير، يتوسّل إليه ويعاهده علىٰ الأبتعاد عن دروب الشرّ، ويعمل علىٰ مرضاته، ويستغفر عن سيّئاته، ويتوسّط لإحلال السلام في البلاد. وجاءت توسّلاتٌ من النبلاء للغرض ذاته، ممّا دفع الأساقفة إلىٰ عقد أجتماع، تمخّض عن أتفاقٍ علىٰ تقديم ألتماسٍ إلىٰ نرسيس الكبير، يرجونه فيه أن يتحرّك لإنقاذ البلاد من الضياع، بدلًا من الوقوف موقف المتفرّج.

قبل نرسيس الوساطة، وحلّ السلام بين آرشاك والنبلاء، فيما عدا مهروجان ـ كبير أسرة آردزروني ـ وزوج أخته واهان ماميكونيان، اللذين رفضا الصلح، وأنضمّا إلىٰ شابوه. أمّا باقي النبلاء فوافقوا علىٰ الصلح شرط أن يسير المَلِكُ علىٰ الطريق المستقيم، عندئذ يخدمونه بإخلاص. ثمّ توجّه نرسيس الكبير إلىٰ قائد الجيش اليوناني يرجوه أن لا يخرّب بلادنا، ويكتفي بالخراج، ويأخذ "باب" وكلّ أبناء النبلاء رهائن لحُسن تنفيذ الأتّفاق، ويعود إلىٰ بلاده. قَبِلَ القائد الطيّب تيودوس الرجاء، وعاد إلىٰ قيصر مع الرهائن، يصحبهم نرسيس الكبيرمع رسالةٍ من آرشاك هٰذا نصها:

رسالة آرشاك إلى فالانس :

من آرشاك ملك هايك الكبير، وكلّ النبلاء من قوم آرام، إلىٰ سيدنا الحاكم بأمره فالانس أوغسطس وولده كراديانوس، سلام.

لا تظنّ، أيها الحاكم بأمره، أننا ثُرنا لأننا نكرهك، أو أننا رأينا أنفسنا أقوياء فتجاسرنا وأرسلنا كتيبةً مقاتلة إلى اليونان، بل لعلمنا بالاضطراب الحاصل عندكم، وأنّ ما من أحد يُخلّصنا من يد شابوه، لذلك ساعدناه بكتيبةٍ صغيرة اتّقاءً لشرّه، ولم أحضر أنا آرشاك معها.

ولتعلم أنه، بسبب بقائنا على الولاء لكم، جاء وهَدَمَ بلادنا، ونبش قبور أجدادنا وأخرج عظامهم. نرجو أن تصدّقوا هذه الوقائع، وتستمرّوا في العطف علينا، مازلنا نخدمكم بإخلاص.

لكنّ فالانس لم يقرأ الرسالة، ولم يرغب في رؤية نرسيس الكبير، بل أمر بطرده فورًا، وقطع رقاب كلّ الرهائن الذين يصطحبهم.

٣٠

نفي نرسيس الكبير إلى جزيرة غير مأهولة تغذّيه عناية السماء

في ذلك الوقت كان الروحانيُّ ماكيدون، رئيس الأساقفة في بيزنطة، يتابع ما يجري، فلمّا صدر أمر القيصر بنفي نرسيس الكبير، بتهمة خداع القيصر وخيانة العهد، أرسل إليه ماكيدون في منفاه نفرًا من الوثنيين من أتباع آريوس وقالوا له: *«إذا أنت اتّبعت عقيدتنا، يُنجيك أبونا ماكيدون»*. لكنّ نرسيس الكبير رفض عرضهم. فلمّا ساقوه إلى المنفى في زورقٍ في البحر، هبّ عليهم إعصارٌ شديد دفع بالزورق نحو جزيرةٍ غير مأهولة، وجنح زورقهم إلى شاطئها. ولم يتمكّن البحارة من متابعة الإبحار، فاضطرّوا إلى البقاء فيها قلقين يتغذّون من جذوع الأشجار والنباتات البرية. واستمرّوا على هذه الحال ثمانية أشهر، يتغذّون ـ بالإضافة إلى النباتات ـ على سمكٍ، كان يتهافت على الشاطئ

بأمر الله. أمّا "باب" ورفاقه، فقد قبلوا بأتباع عقيدة الوثنيين، وخلّصهم ماكيدون.

٣١

آرشاك يقتل النبلاء
وأسلوب معيشة الأسقف "خاط"

بعدما نُفِيَ نرسيس الكبير، تنكّر آرشاك لكلّ التعهّدات التي قطعها على نفسه مع النبلاء، وأراد أن ينتقم لجماعته في آرشاكافان، فقتل كثيرًا من النبلاء، وأباد قبيلة الكامساريين، طمعًا في الحصول على حصن آرداتيوس، ومدينة يرفانتاشاد، موطنهم. حصل ذلك حين دعاهم إليه في قصر آرمافير المهجور، بداعي تكريم أسلافه وإحياء ذكراهم، ولمّا حضروا أمر بقتلهم كلّهم، رجالًا ونساء وأطفالًا، ولم ينجُ منهم غير سبانتاراد بن آرشافير، الذي كان متزوّجًا بأمرأة من أسرة آرشاكوني، إذ لم يُلَبِّ الدعوة، لأنه كان يقيم في مقاطعته في نواحي دارون وهاشديانك بسبب خصام بينه وبين عمّه نرسيه، وبذلك بقي بعيدًا عن مكان المجزرة. ولما سمع بخبر مقتل قومه هرب مع ولديه شافارش وكازافون وكلّ أسرته، ولجأ إلى اليونان.

بعد نَفْي نرسيس الكبير، شَغَر كرسي الأسقفيّة، فعيَّن عليه آرشاك الراهبَ خاط أسقفًا على باكريفانت وآرشاروني، وأنابه عنه بالإشراف على كلّ الأعمال في بلادنا حتى عودته. وكان خاط يشبه نرسيس الكبير في كلّ شيء، خصوصًا في رعاية الفقراء، ففاضت عنابره كالينبوع. وكان شديدًا في تعامله مع الملك، غيرَ وجِلٍ ولا هيّاب. وكان عصيًّا على الشيطان فلم يتمكّن منه بشيءٍ قطّ، لكنه كان أنيق الملبس مولعًا بالخيول، لذلك لم ينجُ من سخرية الناس

وتندّر خصومه به، فاَضطرّ إلىٰ التخلّي عن أناقته وعن لبس الثياب الجميلة، إلىٰ لبس الصوف، وركوب الحمار حتىٰ يوم وفاته.

٣٢

كيف حاول آرشاك
ان يسحل خاط السعيد ويرجمه بالحجارة
لأنه انتقد أعماله ؟

بعدما أباد آرشاك أسرة كامساراكان، أمر بسحل أجسادهم ورميها في الفلاة دون دفنٍ لتصير طعامًا للوحوش، وأمر بإقامة اَحتفالٍ كبير تكليلًا لنجاحه فيما فعلَ، واَستمرّ الاَحتفال عدّة أيام. ثمّ أمر بحمل كلّ كنوزهم إلىٰ آرمافير لتُخَبّأ في حفرتين عميقتين أوعز بحفرهما لهذه الغاية. ولمّا وصلت الكنوز علىٰ عربات القرية، وقَبْل إنزالها في الحفرتين، شاهد الحُوذيّون عظامًا آدمية منثورة حول الحفرتين، تعبث بها الكلاب، ولمّا علموا بأنها عظام سادتهم، جمعوها ودفنوها في الحفرتين مع الكنوز. فثار غضب آرشاك، وأمر بشَنْق الحوذيّين علىٰ أعواد فوق الحفرتين.

لم يتدخّل خاط في المرة الأولىٰ، لكنه لم يسكت علىٰ الجريمة الثانية، وأخذ يوبّخ الملك ويؤنّبه بكلام لاذع أزعج الملك، فأمر بسحله ورجمه بالحجارة. لكنّ شعب قبيلة آباهون الأقوياء الشجعان، الذين ينتمي إليهم أزواجُ بناته، هجموا علىٰ الساحلين وقتلوهم بالسيف، وخلّصوا خاط منهم، وذهبوا به إلىٰ مقاطعتهم. ولم يحرّك الملك ساكنًا لأنه خاف من ثورة النبلاء عليه.

٣٣

تملُّك تيودوس الكبير
والاجتماع المنعقد بسبب مسألة الروح القدس

لكن مثلما حَوّل فاليس القيصر البلاد إلىٰ جحيم أبديّ، اَحترق هو في آدريانوبوليس، ومات ميتةً يستحقّها علىٰ سيّئاته. فخَلَفَه علىٰ العرش تيودوس، فأصدر علىٰ الفور أمرًا بهدم المعابد الوثنية من أساسها، وهي التي كان القديس قسطنطيانوس قد أمر بإغلاقها فقط، وهي معابد الشمس وآرديميس وآفروديت في بيزنطة. كذلك هدم هيكل دمشق وحوّله إلىٰ كنيسة، وفعل الشيء نفسه بهيكل مدينة هليوليبانوس، المشهور بفخامته وروعته والذي يحمل لقب الأحجار الثلاث.

وأعاد كلّ الآباء الروحيين الذين نُفُوا بسبب إيمانهم، ومنهم نرسيس الكبير، بغية ترسيخ الإيمان الصحيح في قلوب الناس، والتصدّي لماكيدون الوثنيّ الذي يدعو إلىٰ عبادة إلٰهٍ غريب لا تُعرف ماهيته، لا يعترف بالروح القدس ولا بالآب ولا بالاَبن، لذلك اَجتمع الآباء الروحانيون من كلّ صوب: فجاء نيكداريوس عن روما ودمشق، وديموديوس عن قسطنطينوبوليس، وميليدوس عن أنطاكية والاَسكندرية، وكوريغ عن أورشليم، وكريكوريوس عن نيقوسيا، وكيفاسيوس عن قيصرية، وكريكوريوس عن تسيانتس آنبولوكيوس عن أيقونية وغيرهم، اَجتمعوا في بيزنطة عاصمة المملكة. بلغ عدد المجتمعين مائةً وخمسين روحانيًّا، ندّدوا بماكيدون ورفضوا تعاليمه، ولعنوا كلّ من لا يعترف بالروح القدس ربًّا.

٣٤

ذهب آرشاك إلى شابوه
طائعا بلا عودة

بعدما عاد شابوه من حروبه، اَغتنم الفرصة، وأرسل إلىٰ أرمينية كتيبةً يقودها آلاناوزاني بهلوي من عشيرة آرشاك. فخاف آرشاك، وتوارىٰ عن الأنظار، لأنه بقي بلا سندٍ بعدما ملَّ النبلاء من أفعاله الخبيثة، ومدّوا يد المساعدة إلىٰ آلاناوزاني وذهبوا إلىٰ شابوه طائعين. فقدّر لهم شابوه ذلك وأعادهم إلىٰ بلادهم مكرّمين، فطمع آرشاك في أن يُعامَل بمثل ما عومل به النبلاء، وأرسل وفدًا إلىٰ قائد الجيش الفارسي ينقل إليه قوله:

أنت قريبي ومن دمي، فلماذا تطاردني بهذه الشدّة؟ أنا أعرف أنك أتيت مرغمًا، لأنك لا تستطيع معارضة أمر شابوه في الهجوم علىٰ قريبك، لذا خفّف الضغط عليّ قليلًا، ريثما أتمكّن من الاَختفاء لوقتٍ قصير أجمع فيه أنفاسي، ثمّ أرحل إلىٰ بلاد اليونان، فتستولي أنت علىٰ بلادنا، لتجد فيها الخير الكثير، فنبقىٰ قريبين متحابّين.

فردّ عليه آلاناوزاني بالجواب التالي:

أنت لم ترحم الكامساراكانيين، الذين هم أقرب إليك مني، وهم من دينك، ويعيشون في بلدك، فكيف تريدني أن أرحمك مقابل خيرٍ مجهول، قد أناله وقد أفتقده، وأترك خيراتٍ كثيرةً نلتُها فعلًا عند مَلِكي.

ولمّا اَشتدّت المضايقة عليه، ولم يجد سبيلًا إلىٰ الهرب، ذهب صاغرًا إلىٰ شابوه حيث سجن. وتحت الضغط الشديد، كتب إلىٰ زوجته بارانتسيم، يستدعيها إليه بصحبة كبار النبلاء من حاشيته.

٣٥

عن المصائب التي انزلها شابوه بارمينية وموت آرشاك

عندما علم النبلاء ـ الذين كانوا قد ساعدوا شابوه ملك الفرس ـ أنه يستدعيهم مع نسائهم على غرار آرشاك، والنبلاء الذين بقُوا على الولاء له، وأنّ آلاناوزاني لم يأتِ بهذه القوة الصغيرة إلّا لهذا الغرض، أوجسوا خيفةً، وتوقّعوا شرًّا، وآتّحدوا وطردوه من بلادهم، ثمّ أخذوا نساءهم وأولادهم وهربوا إلى اليونان.. كذلك فعلت بارانتسيم لكنها لم تهرب، بل آعتصمت في قلعة آرداكيرد مع كنوزها وحرّاسها، وأرسلت إلى آبنها "باب" تُعْلمه بالأمر آملةً في مساعدته. فغضب شابوه، وأمر بتقييد يدي آرشاك ورجليه بالسلاسل الحديديّة، وإرساله ليُسجن في قلعة آبهوش في بلاد خوجاسدان. وجهّز جيشًا بقيادة مهروجان آردزروني وفاهان ماميكونيان، من أعداء المسيح، وأرسلهما إلى أرمينية. فجاؤوا وعسكروا حول قلعة آرداكيرد، لأنهم لم يستطيعوا آقتحامها لمناعة أسوارها. لكنّ إرادة الله شاءت أن لا ينتظر حُماة القلعة "باب"، وآستسلموا بملء إرادتهم، ونزل غضب الله على آرشاك. وآقتاد الفرس كلّ النبلاء، مع السيدة بارانتسيم وكنزها، أسرى إلى فارس. وفي الطريق ربطوها إلى محور عربة، وقتلوها.

في الوقت نفسه، وصل أمرٌ من شابوه بهدم كلّ الحصون في أرمينية، والقبض على كلّ اليهود الموجودين في البلاد، وآقتيادهم إليه أسرى، مع أولئك الذين يدينون باليهودية ويعيشون في مدينة دوسبيفان، وهم الذين أسرهم بارزابران رشدوني في زمن ديكران، وأسكنهم هناك في أصبهان. كذلك أسروا

اليهود الموجودين في آرداشاد وفي فاغارشاباد، الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية في زمن كريكور ودرتاد، يصحبهم زفيتا كاهن آرداشاد. عندما رجع مهروجان وفاهان إلى شابوه، أعلماه أنّ زفيتا إنما جاء ليضمن بقاء الأسرى على الدين المسيحيّ. غضب شابوه وأمر بأن يُعذَّب زفيتا إلى أن يتخلّى عن عقيدته المسيحية، لكنه لم يفعل، وقُتل. ولمّا سمع آرشاك بمعاناة شعبه، وضع نهايةً لحياته مثلما فعل شاؤول، بعد ثلاثين عامًا من المُلك.

٣٦

الأذى الذي لحق بنا من مهروجان وتنصيب "باب" ملكًا على الأرمن

بعد موت آرشاك جهّز شابوه جيشًا عظيمًا، وضعه تحت قيادة مهروجان، وأرسله إلى أرمينية حاكمًا عليها، وزوّجه بإخته فورمزطوخد، إضافة إلى منحه حقّ تملّك القرى والمزارع الكثيرة في بلاد فارس. كما وعد بتنصيبه ملكًا على الأرمن، إذا ما تمكّن من إرغام النبلاء على ترك المسيحيّة، وفرض العقيدة الزرادشتية عليهم. طمع مهروجان، وجاء من فوره واعتقل كلّ نساء النبلاء، وسجنهنّ في أماكن متفرّقة أملًا في أن يُذعِن أزواجهنّ لأمره. ولكي يطمُس على آثار المسيحيّة، أرسل كلّ الأساقفة والكهنة إلى فارس، وراح يحرق كلّ كتابٍ دينيّ يجده، ومَنَع تعلّم اللغة اليونانيّة وأدبِها، والاقتصار على تعلّم الفارسيّة، وحرّم التكلّم باليونانيّة والترجمة منها، معلّلًا ذلك بأنه لا يريد أن يَبقى أيّ تواصلٍ للأرمن مع اليونان. والحقيقة أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى طمس كلّ معالم المسيحيّة في البلاد، خصوصًا أنّ الأرمن كانوا محرومين من الحروف في ذلك الحين، فلا أدبَ مدوّنًا لهم، والمراسم الكنسيّة تُؤدّى باليونانيّة.

سمع نرسيس بما يعانيه الأرمن من ٱضطهاد بعد موت آرشاك، فتوسّل إلىٰ الحاكم بأمره تيودوس أن يمدّه بيد المساعدة. فنصّب القيصر باب ـ ٱبن آرشاك ـ ملكًا، وجهّز له جيشًا جرّارًا بقيادة ديريندياتوس القائد المحنّك، وأرسله مع نرسيس الكبير، مع النبلاء الموالين والمعارضين لباب، بعدما وحّد كلمتهم إثر نجاتهم من مذبحة كامساراكان في أرمينية. فوصلوا ليجدوا مهروجان الكافر يتربّع علىٰ عرش بلاد الأرمن. فطردوه وخلّصوا بلادنا منه. ولكنه قبل أن يخرج، أمر بشنق النساء المتحجزات، بتعليقهنّ علىٰ أسوار الحصون، وتركهنّ طعامًا للطيور الجارحة.

٣٧

الحرب العظمى التي دارت في تسيراف
وموت مهروجان الكافر

عندما أخبر مهروجان شابوه بأنّ تيودوس يدعم "باب" دعمًا كبيرًا، أمر شابوه ـ وكان في خراسان ـ بأن يُرسل كلّ جيش الفرس لدعم مهروجان في حربه في بلاد الأرمن، وفي الوقت نفسه، علم باب وديريندياتوس تيودوس، بأنّ شابوه قد أرسل كلّ جيش الفرس إلىٰ أرمينية، ولم يترك غير حرس القصر الملكيّ. بالمقابل أمر تيودوس قائده أوغسطس آتييه، بقيادة كلّ القوات اليونانيّة بلا ٱستثناء ـ بما فيهم حاميات المدن الرديفة ـ لدعم باب، وكانت تلك الحاميات تحمل علامة التنين عَلَمًا لها. ٱلتقىٰ الجمعان في ميدان يُدعىٰ تسيراف، وٱلتحموا في معركةٍ يتقدّم الجانبَ الأرمنيّ فيها زعيمُهم النبيل سمباد، مع كلّ المتطوّعين من أبناء النبلاء الشجعان، وكان سمباد بن باكاراد من أسرة باكارادوني يدير المعركة بحِنْكة. فتصدّىٰ للمحاربين الفرس في عدّة جبهاتٍ حتىٰ ٱندحروا وتفرقوا شَذَرَ مَذَر، يُطاردهم أبطال جماعتنا كالعاصفة في

أثرهم، فيُسقطونهم قتلىٰ الواحد تلو الآخر، مثلما تفعل الرياح العاصفة بالأشجار. كانوا يُسقطونهم عن خيولهم جُثثًا هامدة، ولا يتركون لهم الفرصة للعودة إلىٰ فرقهم، بينما كان أبطالنا، إذا ما تضايقوا يحتمون بالقوات اليونانيّة المدرّعة، التي كانت دروعها أمتنَ من مدينةٍ حصينة مدرّعة. فلا يُصابون بأذىٰ، لأنّ كوردونوس، قائد جيش المشاة، حصّن جبهة "باب" بِتُروسٍ هي أشبه ما تكون بسورٍ منيع.

كان أفراد الجيش اليونانيّ وخيولهم مزينين بالذهب والفضّة، ويبدون ـ وهم في دروعهم الحديديّة والجلديّة ـ مثل سورٍ من الصخور الصلدة، تتدلّىٰ منها جدائل شعرٍ تهتزّ كأغصان أشجارٍ كثيفة الأوراق. وكانت مطرّزات التنانين تفتح أفواهها مع هبوب الريح، فتبدو مثل رجل الجبال ينحدر إلىٰ السهل، مُتّجهًا إلىٰ البحر. أمّا جيش الفرس بالمقابل، فيبدو بالثياب الزرقاء التي يرتديها أفرادهم كمياهٍ زرقاء، تجري في حوضِ نهرٍ عظيم.

أشرقت شمس الصباح، وأرسلت أشعّتها علىٰ قواتنا، فبدا منظرها، مع تُروسهم النحاسيّة وهي تلمع مثل وميض البرق بين سحبٍ كثيفة، خُلِعَت لمرآها قلوبُ محاربي الفرس. وكان هجوم مقاتلينا تحت أشعّة الشمس، التي تُواجه قوّات العدوّ فتبهر أنظارهم، فلا يرون إلّا الموت الأسود يُزهق أرواحَهم، دون أن يعرفوا مصدره. وكانت الريح مواتيةً لنا، تدفع الغبار المتصاعد نحو الأعداء فيُعمي أبصارهم. في هٰذه المعمعة، ٱلتقىٰ سبانتاراد كامساراكان كتيبةً فارسيَّة هي قلب هجومهم، يقودها شيركير ملك اللاظ، وتبدو ثابتةً ممتنعة. لكنّ سبانتاراد هاجمها بقوّاته، وٱخترق صفوفها، وأوقع قائدها أرضًا، فٱرتبكت، وعمد أفرادها إلىٰ الفرار، لكنّ الأرمن واليونان تمكّنوا من مطاردتهم، وتغطية وجه الأرض بجُثثهم، ومن بينها أوزناير ملك أغوان الذي سقط بطعنةٍ من موشيغ من أبناء فاساك ماميكونيان.

كان مهروجان من بين الهاربين، لكنه تخلّف عنهم بعد إصابة حصانه بطعنة، ولم يتمكّن من اللحاق بهم، فأدركه النبيل سمباد وقضىٰ علىٰ حرّاسه، وقبض عليه عند شفا جُرُفٍ كوكا المكتظّ بالقصب. وخمّن أنّ نرسيس الكبير قد يعفو عنه إذا ما سلّمه له، لذلك فضّل أن يتوجّه به نحو سكّان الخيام، الذين كانوا يَشْوُون لحمًا علىٰ نارٍ حامية، فأخذ سفودًا ولفّ عليه قماشًا علىٰ شكل تاج، وأشعله، واَقترب منه قائلاً: *«يا مهروجان! كنتَ تتوق إلىٰ وضع التاج علىٰ راسك، وها أنذا بحُكم مهمّتي وواجبي، أضع علىٰ رأسك التاج، بوصفك نبيلًا حسب مراسمنا المعهودة»*. ووضع النار علىٰ رأسه حتىٰ مات، ومات معه شرُّه.

وعمّ السلام البلاد بعد دخولها تحت سلطة "باب".

٣٨

كيف اعطى باب سمًا لنرسيس الكبير وقضى على حياته ؟

بعدما اَنتهت الحرب وأَمنت البلاد، أخذ نرسيس الكبير عهدًا علىٰ باب وعلىٰ النبلاء، بأن يتّبعوا سيرة المسيح لكي تتلاءم أفعالُهم مع أقوالهم، وأوصاهم بالعدل حسب التعاليم المسيحيّة، فلا يكون المَلِك مثل أبيه، يظلم ويمنع الحقّ عن أهله، بل يكون صادقًا مع النبلاء، يرعاهم رعايةً أبويّة. وعلىٰ النبلاء بدورهم أن لا ينحرفوا، ولا يبتعدوا عنه، وأن يخدموه بإخلاص. في هٰذا الوقت، كان باب قد أعاد إلىٰ سباتاراد كامساراكان كلّ أملاكه التي اَغتصبها منه أبوه في شيراك وفي مقاطعة آرشاد. وهو لم يردّها له باَعتبارها حقّه المسلوب، بل باَعتبارها منحةً مقابل حُسن بلائه في القتال، بعدما قَتَل ملك

اللاظ. كذلك أعاد للنبلاء الآخرين ما سُلب منهم، وذلك من قبل حُسن النيّة والعمل الصالح.

كان يتظاهر بالسعادة في حياته، في حين أنه كان يعاني من عاهةٍ مُعيبة جعلت نرسيس الكبير ينبّهه إليها، ويطلب إليه أن يتلافاها. فأثارت هٰذه النصيحة حفيظة الملك وأراد أن ينتقم منه، لكنه خاف من تيودوس، الحاكم بأمره، فلم يجهر بغضبه، بل عمد إلىٰ إعطائه ترياقًا قاتلًا قضىٰ به عليه، وأنهىٰ حياته، بعدما شغل كرسيّ الأسقفيّة أربعًا وثلاثين سنة. ونُقل جثمانه إلىٰ منطقة يكيغيا، ودُفن في قريةٍ تسمّىٰ خاج. تظاهر الملك بالحزن عليه، فنقل جثمانه إلىٰ مزرعة تيل حيث دُفن بٱحتفالٍ مهيب.

٣٩

ساهاك يشغل الكرسيّ وتيودوس يقتل باب

رأىٰ الملك باب أنّ الأرمن كلّهم يُقيمون الحداد علىٰ نرسيس السعيد، وأراد أن يُنهي مظاهر الحزن، فعيّن علىٰ كرسيّ الأسقفيّة من يُدعىٰ ساهاك من أسرة آلبيانوس، من دون رِسَامةٍ كهنوتيّةٍ يُؤدّيها رئيس أساقفة قيصريّة الكبير. وبالنظر إلىٰ حسن سلوكه وسمعته الطيّبة، بقي أربع سنواتٍ وهو يَشغَل هٰذا المنصب.

في هٰذه الأثناء سمع باب، بأنّ تيودوس قد خرج بجيشه في طريقه إلىٰ روما، ولمّا وصل إلىٰ مدينة سلانيك وحطّ رحاله للراحة، وقع خلافٌ بينه وبين أهل المدينة، أدّىٰ إلىٰ مجابهةٍ عسكرية ٱنتهت بنصر الحاكم بأمره، بعدما قتل خمسة عشر ألفًا منهم، فظنّ باب أنّ أمر هٰذه الحرب سيطول، فتنكّر

لتيودوس، وطرد ديريندديانوس مع جيشه، وبدأ يستعدّ لمحاربته. لكنّ ديريندديانوس تلقّىٰ أمرًا من تيودوس بالعودة، فعاد وباغت جيش باب فقَتَل من قتل وفرّ الباقون، ما عدا كينيل زعيم مدينة آنتسيفاتسيا، الذي صمد وظلّ يحارب علىٰ رأس جيش "باب" الشرقي حتىٰ قُتل بسيف ديريندديانوس، الذي شطره إلىٰ شطرين، وآستسلم جيشه ووقع باب في قبضته، فتوسّل إليه أن لا يقتله بل يعرضه علىٰ قيصر. نزل ديريندديانوس عند رغبته وقيّده بالسلاسل الحديديّة، وقاده إلىٰ تيودوس الكبير. ولمّا مَثَلَ بين يديه، ضرب رأسه بالفأس بسبب خيانته، ومات بعد سبع سنواتٍ من المُلك.

٤٠

حول تملُّك فارازتاد وتقييده

فبادر تيودوس أوغسطس الطيّب الملقّب بالكبير، إلىٰ تعيين فارازتاد ـ من أسرة آرشاكوني نفسها ـ ملكًا علىٰ الأرمن في السنة العشرين من حكمه هو، بدلًا من باب. وكان شابًّا في مقتبل العمر، طويل القامة، قويًّا جسورًا، يمتاز بالرجولة في كلّ أعماله. كما كان ماهرًا جدًّا في رمي السهام. هرب من شابوه ولجأ إلىٰ قيصر. ظهرت براعته، أولًا في بيسا بعد جولة ملاكمة، وثانيًا في مدينة آريك اليونانيّة حيث قَتَل عدّة أسودٍ في نصف يوم، ولاقىٰ آستحسانًا في ألعاب المصارعة في الآحتفال الأولمبي. كذلك ظهرت رجولته عند محاربة شعوب اللانكفارد، فكانت مساويةً لرجولة درتاد الكبير الذي جَندل خمسة رجالٍ أشدّاء هاجموه دفعةً واحدة. كما أصاب بسهامه، في أثناء محاصرة إحدىٰ القلاع، سبعة عشر مقاتلًا أسقطهم من أعلىٰ أسوارها، أسقطهم بعضَهم فوق بعض، مثلما يسقط التين الناضج.

ولمّا كان في طريقه ملكًا على بلادنا، في السنة الخامسة والخمسين من حكم شابوه، تعرّض له لصوصٌ آشوريون في منطقة تارانازي الوعرة، فهزمهم وطردهم بٱتّجاه الفرات، فأرادوا عبوره على أخشاب ألقوها في الماء، لكنه كان أسرع منهم، وطار فوق الماء في قفزة تفوق قفزة كيسنيس اللاكوني، ومداها ٱثنتان وعشرون قدمًا، وبدا مثل آكيلليس الذي قفز من فوق نهر سكامانتروس*. فذُعر اللصوص عندما وجدوه في ٱستقبالهم عند الشطّ الثاني، وألقَوا بأسلحتهم وٱستسلموا.

لكنّ غرور الشباب، ونشوة الأنتصار، جعلته لا يلتفت إلى نصيحة القوات اليونانيّة المرابطة، وأرسل إلى شابوه يطلب منه أن يزوّجه إحدى بناته، في مقابل إعادة بلاد الأرمن إلى سيطرته. فأَبلغ قائدُ هٰذه القوات الحاكم بأمره بما يحدث، فأمر بأن يُحضروا الملك الشابّ العاقّ إليه معتقلًا، إذا لم يشأ الحضور طائعا. لذا ذهب إليه بإرادته، أملًا في أن يَلقى العفو عنه، لكنّ تيودوس قيصر لم يستقبله، بل أمر بأن يُكبّل بالحديد، ويُنفى إلى جزيرة توليس في المحيط بعد أربع سنوات من المُلك.

٤١

ملكيّة آرشاك وفاغارشاك

نصّب تيودوس الكبير على الأرمن، آرشاك وفاغارشاك ولَدَي باب ملكَين بدلًا من فارازداد، الذي تولّى زافين من أقارب آلبيانوس، في السنة

* اللانكوباديون: قومٌ من الألمان، عاشوا على ضفّة نهر "آليا" اليسرى وتوسّعوا نحو الدانوب. كيسنيس: عدّاءٌ يقفز قفزاتٍ واسعة. نهر سكامانتروس نهر عميق سريع قرب تراقيا.

الثانية من حكمه، كرسيّ رئيس أساقفة الأرمن، وبقي عليه أربع سنوات أيضًا، معتقدًا أنه بهذا التدبير يجعلهما لا يتّفقان علىٰ الثورة عليه، خصوصًا وأنه آحتفظ بأُمهما رهينةً عنده، وسيّرهما مع جيشٍ إلىٰ بلادنا، وعيّن معهما مستشارين مخلصين من ملّته، فجاؤوا، وبعد قتالٍ عنيف مع الفرس آستولوا علىٰ البلاد. فتزوّج آرشاك آبنة بابيك حاكم سوني، وتزوّج فاغارشاك بنت آبنة النبيل القائد ساهاك، الذي مات في السنة نفسها.

في السنة الثانية من حكم آرشاك، تولّىٰ آسبوراكيس كرسيّ رئيس أساقفة الأرمن، مدّة خمس سنوات، وهو قريب ساهاك وزافين.

أمّا تيودوس الكبير فخرج إلىٰ الحرب، وبوصوله إلىٰ ميلانو مرض ومات، تاركًا المُلك لولديه. فتولّىٰ آركاديوس عرش بيزنطة، وتولّىٰ فونوريوس عرش روما. إلّا أنهما لم يكونا جديرين بخلافة أبيهما الطيّب الحكيم.

٤٣

تقسيم ارمينية قسمين
يحكمهما ملكان آرشاكونيان
تحت رعاية فارسية يونانية

حين علم شابوه بأنّ آكاديوس ليس مسيحيًّا، سُرَّ لذلك، وعقد معه معاهدة سلام تعوّضه عن آنكساره أمام أبيه تيودوس الكبير، ووافق آركاديوس أيضًا، علىٰ السلام، بسبب عصيان جيشه الذي ملّ من الحروب التي آنتصر فيها تيودوس الكبير في حياته، كذلك سئم قادته من كثرتها. وكان آتفاق السلام يقضي بتقسيم بلاد الرافدين وأرمينية، كلٌّ واحدةٍ قسمين تُرسَم لهما حدودٌ جديدة. غُلب آرشاك علىٰ أمره بعد تقسيم البلاد، وهجر مملكة أبيه الأصليّة

في آراراد الداخلة تحت سيطرة الفرس، وأنتقل إلىٰ القسم الغربيّ حيث بقيت أمه رهينةً، وصار ملكًا علىٰ هٰذا القسم القليل، مُؤْثرًا البقاء فيه، علىٰ البقاء في القسم الأكبر الواقع تحت حكم الوثنيّين، وتبعه في أنتقاله كثيرٌ من النبلاء من قسم شابوه مع أُسَرهم، تاركين أملاكهم، وقراهم، وعشائرهم.

فغضب شابوه، وكتب إلىٰ آرشاك يقول: «*لماذا تريد أن تشعل الحرب بيني وبين قيصر بأصطحابك نبلاء قسمي؟*».

فجاءه ردّ آرشاك: «*جاؤوا معي، لأنهم لا يريدون أن يخضعوا للإدارة الفارسيّة، فإذا شئت أن تأتمنني علىٰ قسمك مثلما فعل قيصر، تجدني في خدمتك تمامًا مثل خدمتي لقيصر. وإذا كان هٰذا التدبير لا يرضيك، وأراد النبلاء أن يرجعوا إليك، فليرجعوا، وأنا لن أمنعهم*».

علىٰ أثر ذلك عيّن شابوه ''خسرف'' علىٰ القسم الواقع تحت نفوذه، وهو من أسرة آرشاكوني أيضًا، وأرسل إلىٰ نبلاء قسمه الذين ذهبوا مع آرشاك، أمرًا ملكيًّا يتضمّن ما يلي:

ورقة شابوه إلى النبلاء :

مِن البطل في الملمّات، ملكِ الملوك شابوه، إلىٰ نبلاء الأرمن الذين تقع أملاكهم في قسمي، أُحيّيكم كثيرًا، وأُباركم.

أنتم لم تتصرّفوا بلباقةٍ وتركتم إمارتكم، وهٰذا وإن كان لا ينتقص منّا شيئًا، لكنني كسيدٍ راعٍ أشفق عليكم وعلىٰ أملاككم، لأعتقادي أنّ القطيع لا يستطيع أن يظلّ بلا راعٍ، والراعي لا يستطيع أن يظلّ بلا قطيع، ومشرفٍ جيد.

لذا ولّينا عليكم من يُدعىٰ خسرف ملكًا عليكم، من دينكم ومن نسل ملوككم الأصليين.

فأدعوكم إلىٰ العودة إلىٰ دياركم ليُدير كلٌّ واحدٍ منكم شؤون

أملاكه، كما كنتم تفعلون من قبل، ونقسم بالنار وبالماء وبحقّ آبائنا، علىٰ أننا لا نُبيّت من وراء ذلك غدرًا أو خيانة، بل نريد أن نحافظ علىٰ كلّ ما في قسمنا بلا نقصان.

ومن لا يصغي إلىٰ دعوتنا وأمرنا الملكيّ هٰذا، تُصادر بيوتهم، وقراهم، وممتلكاتهم، لصالح الملك. ودمتم سالمين.

٤٣

عودة الأمراء الأرمن إلى أملاكهم ليقوم كلٌّ منهم بخدمة ملكه

عندما سمع نبلاء الأرمن، الذين تقع أملاكهم في القسم الفارسيّ، بدعوة شابوه وبقسمه الخطّي، تركوا آرشاك وعادوا إلىٰ مكان إقامتهم الأصليّ، بٱستثناء ثلاثة فتيانٍ هم أخوته في الرضاع وخلصاؤه: تارا بن بابيك صاحب سوني ٱبن حمي الملك، وكازافون الذي كان ٱبن صاحب سبانتاراد وشيراك وآرشارون، وفيروز من عشيرة كارتموني. وحذا حذوَهم كلٌّ من آداد من عشيرة كنوني، وكاتان من عشيرة آمادوني، وسورا من عشيرة موك، ورستم آرافينيان، وغيرهم من أشخاصٍ غير مشهورين. فصادر خسرف بأمرٍ من شابوه ممتلكاتهم لصالح المملكة، لم يترك أملاك ولدٍ لأبيه، ولا أملاك أخٍ لأخيه.

لكنْ كان بين النبلاء، الذين لهم إقطاعياتٌ في القسم اليوناني عند آرشاك، من يريد الٱنتقال إلىٰ قسم خسرف، مثل الفارس سهاك والد زوجة فاغارشاك شقيق آرشاك، هربًا من الٱضطهاد الذي يلاقونه، بسبب وشايةٍ وشىٰ بها أحدهم أوغرت صدر آرشاك عليه، فصار ينظر إليه في شكٍ علىٰ الرغم من تعلّقه بزوجته التي تقتني حُليًّا ملكيّة ٱنتقلت إليها من صهرها. وبدأ

ساهاك يتحيّن الفرصة للهرب من آرشاك واللجوء إلىٰ خسرف. ولقد أقنعه بالفكرة وساعده عليها سورين خورخوروني وفاهان آرافيغيان وآشخادار من عشيرة تيماكس. لكنه بعدما غادر، لم يتمكّنوا من اللحاق به، خوفًا من أن يُفتضَح أمرهم، فيلحق بهم جنود آرشاك، لذلك أقاموا وكتموا الخبر. بأنتظار اليوم المناسب.

٤٤

كيف احتفى خسرف بالفارس ساهاك؟
وبطولاته حيال الطامعين من عشيرة فانانتا

فرح خسرف كثيرًا بمجيء الفارس ساهاك، وعيّنه قائدًا لجيوشه، وأعاد إليه أملاك أبيه، وزاد عليها بأن وهبه الأملاك والأطيان والمزارع من ممتلكات أولئك النبلاء، الذين كانوا في القسم الفارسيّ ورحلوا مع آرشاك.

لكن حدث، في ذلك الوقت، أن أنشقّ فريقٌ من عشيرة فانانتا، وأعلنوا العصيان علىٰ خسرف، وأعتصموا في غابات جبالهم، وتحصّنوا في الشّعاب الوعرة في دايو، وراحوا يهاجمون حدود قسمَي أرمينية، ناشرين الذعر والأضطراب في بلادنا.

فتوجّه إليهم القائد ساهاك قائد جيوش خسرف، فقتل كثيرًا منهم، وأجبر الباقين علىٰ الهرب إلىٰ نواحي أرمينية الرابعة، ولم يذهبوا إلىٰ ديار أقاربهم في القسم اليونانيّ، ولم يلجؤوا إلىٰ آرشاك، بل فضّلوا الأعتصام بالجبال لمهاجمة حدود قسمَي أرمينية حين تحين الفرصة، بعدما طردهم ساهاك إلىٰ حدود مانناغ.

٤٥

حول مجيء سورين وفاهان وآشخادار الى خسرف مع كنوز آرشاك

وجد سورين خورخوروني وفاهان آرافيغيان وآشخادار تيماكسيان فرصةً مناسبة للهرب، حين كان آرشاك ينقل كنوزه من حصن هان إلىٰ بلاد دزوب، فآستولوا علىٰ الكنوز للمضيّ بها إلىٰ خسرف، لكنهم فشلوا، لأنّ صاموئيل ماميكونيان صديق آرشاك لاحقهم بقواتٍ كبيرة، حتى حصرهم في مكانٍ وعر منيع في منطقة ماناناغ، لا يمكن الوصول إليه إلّا من جهةٍ واحدة ممتنعة رهيبة. تحصّنوا فيها. ولمّا لم يتمكّن صاموئيل من الوصول إليهم، بسبب مرتفعٍ عموديّ أملس يُمنىٰ من يحاول تسلّقه بالوقوع في هاوية تُزهق روحَه، آحتار صاموئيل في ما يفعل، فأعلم آرشاك، وأوعز هٰذا بأن تُدلّىٰ سلالٌ حديدية بحبالٍ، يُربط إليها رجالٌ ينزلون من أعلىٰ الجدار العموديّ الأملس، لكنّ المحاولة لم تنجح، لأنّ الأشجار الكثيفة كانت تُبعد السلال عن الجدار المنيع.

وفيما هم منشغلون في هٰذه المحاولة، وصل القائد ساهاك وهو يطارد العصاة إلىٰ هٰذا المكان مع كامل قوات خسرف، فترك اللصوص وآنقضّ علىٰ الذين يحاصرون المكان، فهزمهم، وأنقذ سورين وفاهان وآشخادار مع الكنوز، وأوصلهم بسرعةٍ فائقة إلىٰ خسرف. فأخرج هٰذا قسمًا من المال، وأرسله إلىٰ شابوه، وأمر بمنح الهاربين ضياعًا ومزارعَ خصبةً من الأملاك المصادرة من النبلاء النازحين من القسم الفارسيّ إلىٰ قسم آرشاك.

لهٰذا السبب آندلعت الحرب بين آرشاك وخسرف.

٤٦

ينكسر آرشاك في الحرب مع خسرف ويمرض ويموت

لم يمدّ شابوه، ولا آركات، يد المساعدة لخسرف أو لآرشاك، ولم يشجّعاهما على التحارب، كما لم يمنعاهما. ولمّا فشلت المفاوضات، جهّز آرشاك جيشه، وزحف بٱتّجاه خسرف. وفي الوقت نفسه تحرّك خسرف مع مستشاره، الذي كان موجودًا في منطقة بحر كيغام أو مورس، لمواجهة آرشاك ومَنْعه من الاقتراب من الحدود، والوصول إلى مقاطعة فاتانت.

وٱلتقى الجمعان في سهلٍ يسمى يريفيل، ودارت بينهما معركةٌ عنيفة ضارية، تحطّم فيها جيش آرشاك، وقُتل قائده داراسوني. وولّى آرشاك، مع قليل من رجاله، الأدبار، لكنّ ساهاك البطل، قائد جيش خسرف، طارده مطاردةً شديدة. هنا أظهر كازافون بن سبانتاراد شجاعةً فائقة، في هجماتٍ معاكسة، أجبرت المطارِدين على الكفّ عن مطاردتهم، فأُتيح لآرشاك أن يبتعد.

عندئذ، عاد خسرف إلى حدوده، بينما لجأ آرشاك إلى مقاطعة يكيغيا، حيث أصيب بداء السلّ ومات متأثّرًا به، بعد حكم كامل أرمينية مدّة خمس سنواتٍ، وقسمٍ من أرمينية مدّة سنتين ونصف السنة. ولم يُنَصِّب اليونان بعده، على القسم التّابع لهم من أرمينية، ملكًا، بل تركوا لكازافون الشجاع المنطقة التي يسيطر عليها، وعيّنوا على باقي المناطق حكّامًا من عندهم.

٤٧

حول مسروب السعيد

راوَدَ القلقُ نفسَ مسروب، وهو يرىٰ المملكة الأرمنية تقترب من نهايتها. كان مسروب من قرية هاتسيك، نما وتعلّم عند نرسيس الكبير، وعُيِّن بعد موته كاتبًا في القصر الملكيّ. أدرك فائدة العزلة، كما يقول القائل: «*تُهرَع السفينة المضطربة إلىٰ الميناء، بينما يُهرع الإنسان المضطرب إلىٰ الصحراء*».

وهٰكذا فعل مسروب حين هرب من الشواغل الدنيويّة والمطالب الجسدية، والتجأ إلىٰ ربّ السماء. فذهب إلىٰ مقاطعة كوغتن. حيث عاش حياة عزلةٍ، في المكان الذي دُفنت فيه الآثار الوثنيّة المتخلّفة من عهد درتاد، واكتُشفت في أيّام ضعف الملكية الأرشاكونية، حين أخرجها بمساعدة هابيت حاكم المقاطعة، فتجلّت له علاماتٌ إلٰهية مثلما جرىٰ مع القديس كريكور. فقد رأىٰ شياطين في هيئةٍ بشرية، مضطهَدين مشرَّدين، يَحُلّون في نواحي ماري. وبمساعدة الأمير فاغيناك حاكم بلاد سوني، أخذ منهم الشيء الكثير.

ولمّا بدأ مسروب السعيد بدراستها، أدرك أنه سيلاقي متاعبَ كثيرةً، إذ كان عليه أن يفكّ رموزها، ويترجمها إلىٰ لغةٍ لا يفهمها غيره، وهٰذا يفرض عليه أن يرافق كتاباته ليترجمها بنفسه لمن يقرؤها. عندئذٍ خطرت له فكرة البحث عن حروفٍ خاصّة باللغة الأرمنية، تفيد القارئ دون مساعدةٍ من أحد.

وهمَّ بالبحث والعمل في محاولاتٍ مختلفة.

٤٨

عودة النبلاء الذين كانوا عند آرشاك إلى خسرف

عندما رأىٰ النبلاء أنّ اليونان لا يفكّرون في تنصيب ملكٍ علىٰ قسمهم، عزّ عليهم أن يبقَوا بلا ملك، فقرّروا بإرادتهم الانضمام إلىٰ خسرف، وأرسلوا إليه ورقةً تتضمّن ما يلي:

ورقة النبلاء إلى خسرف:

من ستراديلاد كازافون، وكلّ النبلاء الأرمن في القسم اليوناني، إلىٰ جلالة خسرف ملك قسم آيراراد، سلام.

مولانا، أنت تعرف مقدار ولائنا لملكنا المرحوم آرشاك المبجّل، ومحافظتنا علىٰ ودّه حتىٰ وفاته. والآن قرّرنا أن نخدمك بالولاء نفسه، إذا ما وافقتَ لنا خطّيًّا علىٰ شروطٍ ثلاثة:

الأول، لا تتذكّر أننا حاربناك في ظروفٍ خارجة عن إرادتنا،

الثاني، أن تعيد لنا كلّ ممتلكاتنا الموجودة في القسم الفارسي، والتي صادرتَها بأمرٍ ملكيّ،

الثالث، أن تجد ذريعةً تخلّصنا من قيصر، فلا يتضرّر قومنا بسببنا، وقد تركناهم في قسمه بلا سندٍ أو معين.

ونأمل أن تعطينا هٰذا التعهّد خطيًّا وتمهره بخاتم الصليب، لنسارع ـ حالما نتسلّمه ـ إلىٰ الدخول في خدمتك.

ودمت سالمًا، مولانا.

وكتب خسرف الجواب التالي:

ورقة خسرف إلى النبلاء:

من أشجع الشجعان خسرف ملك الأرمن، إلى ستراديلاد كازافون، وكلّ نبلائنا، سلام.

كونوا مسرورين ـ ونحن أيضًا ـ بسلامتنا، سررنا بالاَطّلاع علىٰ خبر سلامتكم. ها نحن نرسل إليكم وثيقة العهد الخطيّة التي طلبتم فيها:

أولاً: أن لا أذكر ذنبكم، ونحن بدورنا لا نعتبره ذنبًا، بل ولاءً من رجالٍ أوفياء تجاه ملكهم آرشاك. ونأمل أن تكونوا معنا أيضًا مثله.

ثانيًا: أن نعيد إليكم أملاككم التي صادرناها بأمرٍ ملكيّ، باَستثناء ما أنعمنا به علىٰ بعضهم، لأنّ هدايا الملوك لا تُستردّ، إذا لم يرتكب المنتفعون منها ذنبًا كبيرًا، خصوصًا وأنها مدوّنةٌ في ديوان ملك الملوك شابوه. لكنّنا سنعوّضكم عنها بالممتلكات الملكيّة.

ثالثًا: أن نخلّصكم من العمّال اليونان، إمّا بالحرب أو بالسلام.

أما أنت يا كازافون، يا سليل دمي وقريبي، أُقدّرك، لأنك ـ بغضّ النظر عن كونك من الكمساريين والبارتفيين ـ سليلُ أسرة آرشاروش آرشاكوني من قِبَل الأمّ، لذلك سأُدخلك في خدمتي باَنتمائك الجديد من قبل الأمّ، لتحمل اَسم أسرتي آرشاكوني.

عندما تسلّم كازافون هٰذا الجواب، أسرع ـ مصطحبًا كلّ النبلاء ـ إلىٰ خسرف، ونال كلّ طلباته ووعوده، وسعد وتمجّد.

وعندما وقعت ورقة خسرف في يد صاموئيل واَطّلع علىٰ مضمون ورقة النبلاء، اَنفصل عنهم واَلتحق بالقيصر آركات، لأنّ شابوه كان قد قَتل أباه فاهان وقتل أمّه داجادوهي، لعصيانه عليه. فخاف إن هو ذهب معهم أن يقتله الفُرس هو أيضًا، لذلك فضّل البقاء تحت حكم اليونان وعدم الاَنفصال عنهم،

كما خاف من أخواله الأردزرونيين. فأحسن آركات إليه، وأمر بأن تُنسخ نسخٌ من هٰذه الأوراق، وتُحفظ في الديوان بالأحرف اليونانيّة، ذكرىٰ تلك الأُسر الخائنة برأيه. وما زالت محفوظةً إلىٰ اليوم.

٤٩

سيطرة خسرف على أرمينية الموحدة
وجلوس ساهاك الكبير على كرسي رئاسة الأساقفة

بعدما انضمّ كلّ النبلاء إلىٰ خسرف حسبما كان يتمنّىٰ، أرسل إلىٰ آركات يرجوه أن يأتمنه علىٰ القسم اليونانيّ من أرمينية أيضًا، ليحافظ علىٰ ازدهارها، علىٰ أن يدفع له الخراج كاملًا عن القسمين، مثلما كان يفعل عمّاله. فوافق آركات علىٰ طلب خسرف، خوفًا من أن يتوحّد النبلاء ويسلّموه إلىٰ الفرس.

في هٰذه الفترة مات رئيس الأساقفة آسبوراكيس، فعيّن خسرف خَلَفَه ساهاك بن نرسيس الكبير بن آكاتانكينوس بن هوسيك بن فرطانيس بن القديس كريكور، وكان مثل آبائه في طباعه الحسنة، وكان مواظبًا علىٰ الصلاة ويتشدّد فيها. فجمع ستين تلميذًا علىٰ غرار السبونتينيين، وهم جماعةٌ من رجال دينٍ يلبسون الصوف ويتدرّعون بالحديد، ويمشون حفاةً، يتجوّلون معه أينما حلّ، ويؤدّي معهم الواجبات الدينية بلا انقطاع مثل الناسكين، ويحمل أوزار البلاد مثل الدنيويين.

هنا قدّم إليه مسروب موضوع الحروف الأرمنية، فوجده أكثر حماسةً لهذا الأمر. وبعد محاولاتٍ عدّة باءت بالفشل، عادا لائذين بالصلاة، لعلّ الله يرشدهما إلىٰ الطريق الصحيح.

ولمّا طال بهما الزمان، انفصلا، وذهب مسروب إلىٰ صومعته في الفلاة، واعدًا ببذل جهده، والانصراف كليًّا لهذا العمل.

٥٠

تقييد خسرف
وتنصيب اخيه فرامشابوه ملكا مكانه

غضب شابوه علىٰ خسرف لأنه عقد صداقةً منفردة مع آركات وعيّن ساهاك الكبير كاثوليكوسًا من دون إذنه، وأرسل إليه تأنيبًا يتضمّن صيغة التهديد.

فاعترض عليه خسرف، وردّ عليه ردًّا شجاعًا قاسيًا، وأعاد إليه رسولَه بلا احترام. ثمّ اتّصل بآركات يطلب إليه فسخ معاهدة التقسيم مع شابوه، وإرسال جيشٍ لمساعدته لقاء وضع بلادنا كلّها تحت حمايته.

وبناءً علىٰ مشورةٍ من النبلاء إلىٰ شابوه، يعلمونه بأنّ آركات قد امتنع عن مساعدة خسرف، جهّز جيشًا وسار به إلىٰ أرمينية. وقبل المواجهة استسلم خسرف، لأنه لم يتلقَّ مساعدةً من آركات، ولا من النبلاء، ولا من الأقوام الموالية، لذلك ذهب إليه صاغرًا لأنه لم يجد فرصةً للهرب. فنحّاه آرداشير الذي كان يقود الجيش، ونصّب مكانه أخاه فرامشابوه، ونكّل بساهاك والنبلاء الذين عيّنهم خسرف في مناصب المملكة، وأهانهم، وعزلهم من مناصبهم، ولم ينجُ من شرّه أحدٌ، وأمر باحترام الاتفاق السابق مع اليونانيين، ثمّ ترك حاميةً من العسكر، وأسرع عائدًا إلىٰ ديزرون، إكرامًا لشيخوخة أبيه، واقتاد معه خسرف ليسجنه في القلعة المسمّاة آنهوش، بعدما قضىٰ خمس سنواتٍ في الحكم. وأسر أتباع كازافون، وأمر بأن يصادر بيته لصالح المملكة، إضافةً إلىٰ

بيوت أخويه شافارش وباركيف آمادوني، لأنهما نَصَبا كمينًا علىٰ طريق القافلة لتخليص ملكهم من الأسر، لكنهما لم ينجحا في المعركة التي دارت بين أتباعهما وبين جنود آرداشير، قتل خلالها شافارش وٱبن باركيف المسمّىٰ مانوئيل وغيرهم. وأسر باركيف، وأحضره إلىٰ شابوه، الذي أمره بأن يُصلب وينفخ، ويترك أمام عيني خسرف إلىٰ أن يبلىٰ.

٥١

ذهاب ساهاك الكبير إلى ديسبون وعودته معززًا مكرمًا

كان ساهاك الكبير سليل عددٍ من أصحاب القداسة، والوجهاء والنبلاء والأساقفة، في بلادنا. وعندما ٱنتهت إليه مرتبة القداسة من أولئك الذين كانوا سببًا في هدايتنا. لم يكن قد أنجب غير بنتٍ ٱسمُها ساهاكانوش، زُفّت زوجةً إلىٰ هامازاسب ماميكونيان. بعد موت قائد الجيش البطل ساهاك، طلب قداسة ساهاك الكبير من خسرف وبعد عزله، من أخيه فرامشابوه تعيين هامازاسب بدلًا منه. لكنّ فرامشابوه ٱعتذر عن تلبية الطلب، قبل الرجوع إلىٰ ملك الملوك. لذا وبناءً علىٰ توسّلات ٱبنته، أخذ من الملك فرامشابوه رسائل توصية، وذهب بنفسه إلىٰ آرداشير، الذي كان قد نُصّب ملكًا منذ أربع سنوات، بدلًا من أبيه الذي حكم سبعين سنة.

لاقىٰ هناك ترحيبًا وتكريمًا منقطعي النظير، لأنه من أسرة البهلويين النبيلة، ولأنّ الله يبعث الرحمة والخشوع في قلوب غير المؤمنين إذا تعلّق الأمر بالمُخْلِصين له. ونفّذ طلباته كلّها فيما يتعلّق بصهره هامازاسب، وفيما يتعلّق بالكامساراكانيين والآمادونيين فقد عفا عنهم، بعدما أذنبوا بحقّه، وفرّوا من

وجهه، وتوارَوْا عن الأنظار، نزولًا عند طلب قداسته وتوسّله بالرحمة بهم، وبعدم أخذهم بذنوب آبائهم، حسب الأمر الإلهي، خصوصًا وأنّ هؤلاء الآباء قد ماتوا مع ذنوبهم، ولا مانع من إعطاء المتبقّين منهم الحياة، وردّ بيوتهم التي صُودرت لصالح المملكة، ففعل آرداشير كلّ ذلك، لكنه لم يسمح بأن تُردّ لهم مناصب آبائهم، بل سمح بتصنيفهم مع النبلاء الأقلّ شأنًا، في حين رفع منزلة عشيرة ماميكونيان، التي يمثّلها هامازاسب، ليحتلّوا المقام الخامس بين النبلاء الأرمن. هٰذه خلاصة ما كُتب في الديوان.

من عادة ملوك الفرس أن يحافظوا علىٰ أمرين عندما يتولّىٰ العرش ملكٌ جديد.

أولاً: أن تصفّىٰ كلّ النقود الموجودة في الخزائن، وتُسكّ بدلًا منها نقودٌ جديدة تحمل اسم الملك الجديد وصورته.

ثانيًا: أن تُنحّىٰ الدواوين المكتوبة قبله، وتُفتَح دواوين جديدة، تُسجِّل مجريات الأمور في عهده دون أن يلغي أسماء من سبقوه، أمّا إذا طالت مدّة حكمه، فإنه يأمر بأن توشّح كلّ الدواوين باسمه، السابقة منها واللاحقة.

وبما أنّ مدة حكم آرداشير كانت قصيرةً، لذا أوعز بتدوين ما اختصّ به هامازاسب، من منحه مرتبة الشرف والسيادة علىٰ القرىٰ والمزارع السابقة له، وأوكل إليه قيادة الجيش الأرمني، وهي المرتبة التي كان يصبو إليها وسُجّلت في الديوان، وأرسل إلىٰ ملكنا فرامشابوه بالأمر الملكيّ التالي:

رسالة آرداشير إلى فرامشابوه:

من بطل الأبطال، وملك الملوك آرداشير، إلىٰ أخينا فرامشابوه ملك الأرمن، جزيل السلام.

تسلّمتُ رسائلك التي كتبتَها عن الحَبر ساهاك، وتذكّرتَ

فضل آبائه جدود سورين بهلوي، الذين تولّوا الحكم علىٰ بلادي بحكمةٍ وحسن إدارةٍ في عهد جدّي وسَمِيّي آرداشير، الذي أحبّوه أكثر من حبّهم لأبناء جلدتهم، ودافعوا عنه في أرضه، وزادوا علىٰ ذلك أن قتلوا جدّك خسرف في أرمينية بسببه، ولذلك ٱنتقموا للأذىٰ الذي لاقوه منه. أما ٱبن القاتل كريكور، فبعدما طبّب درتاد وشفاه من موتٍ محقّق وأعاد له مُلكه، صار ذا فضلٍ كبيرٍ عليكم أنتم أيضا.

لذا ويأمرنا عُيّنَ القائد هامازاسب قائدًا لجيوشك، ومنحتُه المرتبة الخامسة بين نبلائك مع تاجها، فٱتركْ لأفراد أسرته أن يُديروا ويستثمروا القرىٰ والمزارع التي وهبها آباؤك لآبائهم، كذلك رُدَّ الضياع والمزارع التي صودرت من المذنبين من النبلاء، للمتبقّين منهم، علىٰ أن لا يتولّوا أيّة مرتبةٍ شرفٍ كالتي كانت لآبائهم، وهٰذا ما أوعزنا بكتابته في الديوان، ودمتم.

بعدما عاد الكاثوليكوس ساهاك الكبير، نفّذ فرامشابوه كلّ أوامر [آر]داشير.

ثمّ مات آرداشير ملك الفرس، وخَلَفَه علىٰ العرش فرام، الذي بقي في [ا]لْملك عشر سنوات، حافظ خلالها علىٰ صداقته لفرامشابوه ولساهاك الكبير، [ك]ما ساد السلام بين فرام وآركات، يخضع ملكنا تحت ظلّه للمملكتين، فيدفع [ا]لخراج لفرام ولآركات معًا، عن القسمين الفارسيّ واليوناني.

٥٢

عن كتابات دانيال

في ذلك الوقت مرض آركات، ووقعت اَضطراباتٌ شديدة رافقتها حرائق في بيزنطة بسبب يوحنّا الكبير*. فالجيوش اليونانيّة تتحارب فيما بينها، إلىٰ جانب اَلتزامها بحربٍ مع الفرس، لهذا أوعز فرام إلىٰ ملكنا فرامشابوه، بالتوجّه إلىٰ بلاد ما بين النهرين لتهدئة الأمور، وإعادة السلام والنظام إلىٰ البلاد، وحسم النزاع بين الأطراف المتحاربة. وكان عليه أن يُدوّن دفاعات الطرفين، لهذا لم تكن مهمّته سهلةً، لعدم وجود كاتبٍ بعد اَستعفاء مسروب، لأنّ الكتابات كانت تُكتَب بالأحرف الفارسية.

بهذه المناسبة مَثُل بين يديه راهبٌ اَسمه ''هابيل''، عَرَض عليه اَبتكارَ حروفٍ للغة الأرمنية، كان قد أعدّها قريبٌ له هو الأسقف دانيال. لم يتسرّع الملك، بل تريّث حتىٰ عودته إلىٰ أرمينية، وهناك وجد كلّ الأساقفة مجتمعين عند ساهاك الكبير ومسروب، يتباحثون في أمر الأحرف الأرمنية. ولمّا علم بموضوع اَجتماعهم، حدّثهم بما سمع من ذلك الديري، فتوسّلوا إليه أن يهتمّ بهذا الموضوع.

ومن فوره، اَستدعىٰ شخصًا من عشيرة فانون يُدعىٰ فاهروج، تجوّل كثيرًا في بلاد الأرمن، وكان مخلصًا له، ومتحمّسًا لهذا العمل، فأمره بالذهاب رسولًا

* هو يوحنّا ذو الفم الذهبي، الذي أثار نَفْيُه إلىٰ العاصمة البيزنطية نقمةَ الشعب، ووقعت في ذلك الاَضطرابات.

إلىٰ هابيل المذكور. فذهب وعاد معه وهو يحمل تصميم شكل الحروف، مُعَدَّةً ومرتَّبةً بيد دانيال نفسه، مصنَّفةً حسب النمط اليونانيّ. فأرسلها إلىٰ ساهاك الكبير ومسروب فتعلّماها، وعلّما بعض الصغار عليها عدّة سنوات، ولكنهما نبذاها بعدما تيقّنا من عدم صلاحية هٰذه الرموز المقتبسة، لأنها غير قادرةٍ علىٰ تأدية مخارج الألفاظ الأرمنية حسبما يجب.

٥٣

حول علامات الكتابة
التي أوحيت إلى مسروب من السماء

فحسم مسروب أمره، وسافر بنفسه مع تلاميذه إلىٰ بلاد ما بين النهرين ليقابل دانيال المذكور، لكنه لم يجد عنده زيادةً عمّا سبق وعَلِمه. لذا تركه وتوجّه إلىٰ يتيسا، ليقابل عالمًا وثنيًّا يُدعىٰ بلاطون، يعمل رئيسًا للديوان فيها. فٱستقبله هٰذا ٱستقبالًا حارًّا، وجمع له ما ٱستطاع من الكلام الأرمني، ولكنه أخفق، وٱعترف بعجزه. لكنّ العالم أفاده، بأنّ له معلّمًا درس كلّ كتابات العلماء في ديوان يتيسا، إلّا أنه رحل بعدما ٱعتنق المسيحيّة: *فٱبحثْ عنه إذا شئت حتىٰ تجده، وسيروي غليلك، وٱسمه "يبيبانوس"*.

وذهب مسروب إلىٰ فينيقية بإرشادات الأسقف بابيلوس، ومنها إلىٰ ساموس حيث يقيم هروبانوس تلميذ يبيبانوس الذي مات، وترك هٰذا التلميذ المتميّز في فنّ الكتابة اليونانيّة. فٱلتقاه، ولم يجد عنده ما يفيد، فتركه، وتوجّه للصلاة إلىٰ الله.

وفي أثناء صلاته، جاءه ما يُشبه الوحي جعله يرىٰ بأمّ عينيه أنامل يدٍ يُمنىٰ تتحرّك، وكأنها تنقش علىٰ الصخر حروفًا كالتي يريدها، فٱنطبعت في

عقله، ولمّا وعاها، آرتسمت أمامه بأمرٍ ربّاني مع مبادئها، وكأنها في وعاءٍ جاهز، فدوّن ما رآه كتابةً، فكانت حروفَنا الأرمنية.

وعاد إلىٰ هروبانوس ليطابق معه الحروف التي أُوحيت إليه مع مخارج ألفاظ الكلمات اليونانيّة، فتطابقت. وبدأ فورًا بتجربتها بترجمة مزامير سليمان، فبلغت آثنين وعشرين مزمورًا، كذلك نقل شيئًا من العهد الجديد إلىٰ الأرمنية، وعلّم تلميذَيه هوهان يكيغيتساتسي وهوسيب بازناتسي، اللذين بدأا بتجربة الترجمة. كما بادر إلىٰ تعليم التلاميذ الأصغر سنًّا، أصول الكتابة بالحروف الأرمنية.

٥٤

حول علم الخطّ
الأرمني والجورجي والأغواني

بعد موت آركات، تولّىٰ مكانه آبنُه تيودوس الصغير، وكان مثل أبيه مسالمًا محافظًا علىٰ العهد مع ملكنا فرامشابوه، وعلىٰ الصداقة مع بلادنا. لكنه لم يأتمن فرامشابوه علىٰ القسم اليوناني، بل أبقاه تحت إدارة عمّاله، وعقد معاهدة سلامٍ مع هازكيرد ملك الفرس.

في هٰذا الوقت، جاء مسروب حاملًا معه أبجديّة لساننا، فأمر الملك فرامشابوه وساهاك الكبير، بآختيار أطفالٍ أذكياء، جميلي الهيئة، فصيحي اللسان، طويلي النَّفَس، من مدارس كلّ المناطق في القسم الفارسيّ دون القسم اليونانيّ، لتعليمهم الكتابة الأرمنية التي آنتزعج اليونان منها، لأنهم كانوا يريدون أن تُستعمَل الأحرف والكلمات اليونانيّة، لا الأحرف الفارسيّة والآشوريّة.

وذهب مسروب إلىٰ جورجيا، وآبتكر لهم ـ بإذن الله ـ مع من يُدعىٰ

جاغايي، حروفًا للغتهم بدعم من الملك باكور والأسقف موسيس. وكان جاغايي مترجمًا بين اللغتين الأرمنية واليونانية، فاختار أطفالًا وكلّف أمر تعليمهم كلًّا من دير خورتسيناتسي وموسىٰ داريناتسي.

ومن هناك توجّه إلىٰ أغوان، إلىٰ الملك آروفازين ورئيس الأساقفة يريميا، فتقبّلا علمه بسرور، واختارا له أطفالًا لتعليمهم. ثم أوعز إلىٰ مترجمٍ موهوب يُدعىٰ بنيامين، صاحب سونيك الشابّ فاساك، وابتكر مسروب بمساعدته، ووساطة الأسقف حنانيا، حروفًا أبجديّةً لسكان الجبال، بأصواتٍ تخرج من الحنجرة غليظةً قاسية خشنة، وترك تلميذه هوفناتان هناك لتعليم تلاميذهم، وعيّن كهنةً مدرّسين للقصر.

وعاد إلىٰ أرمينية، ليرىٰ ساهاك الكبير مشغولًا بترجمة الكتاب المقدّس من الآشوريّة، لعدم توافر النصّ اليوناني. لأنّ مهروجان أحرق كلّ الكتب اليونانية عندنا، وبعد التقسيم، لم يسمح المشرفون الفارسيّون لأحدٍ بإدخال الكتب اليونانية، أو تعلّم لغتهم، وفرض الآشوريّة وحدها.

٥٥

تملك خسرف مرة اخرى وبعده شابوه الفارسي

بعد مُلْكٍ دام واحدًا وعشرين عامًا، مات فرامشابوه، مُخلفًا ولدا عمره عشر سنوات يُدعىٰ أرداشيس. لهذا طرق نرسيس الكبير باب ملك الفرس هازكيرد، ليُطالب بخسرف المسجون عنده في قلعة آنهوش بلا قيود، لأنّ فرام كان قد فكّ قيوده الحديديّة بعد موت أرداشير. وافق هازكيرد، وأعاد إلىٰ خسرف اعتباره، وأرسله إلىٰ أرمينية. ولمّا استقر علىٰ العرش، طالب بهراهاد

بن كازافون، لكنّ هراهاد كان قد أُخرج من قلعة آنهوش، وأُرسل إلىٰ مكانٍ مجهول، لذا لم يَحْظَ برؤيته بعد ذلك، كما لم يمكث خسرف علىٰ العرش في المرة الثانية غير سنةٍ واحدة.

بعد موت خسرف، لم يَضَع هازكيرد واحدًا من الأرمن علىٰ عرش أرمينية، بل نصَّب ابنه شابوه ملكًا علىٰ الأرمن، بنيّةٍ خبيثة، تهدف إلىٰ تقريب النبلاء منه، وإشغالهم عن المملكة بالملذّات، والمُتَع، ورحلات الصيد، بل بالمصاهرة أيضًا لإنجاب نسلٍ جديد بعيد عن معتقدات ملّته، ويُعيد الهيمنة الوثنيّة لإبعاد أرمينية عن اليونان نهائيًّا. لكن غاب عن هٰذا الغبيّ أنّ *«الربّ يُحبِط نوايا الوثنيين»*. لقد نجح إلىٰ حدٍ ما، بعد موت هامازاسب، بأن يترك قيادة جيش الأرمن شاغرةً، فأحزن عليه نرسيس الكبير حزنًا عميقًا، ممّا مكّنه من دخول أرمينية دون مقاومةٍ، يصحبه هراهاد وغيره من النبلاء الذين كان يحتجزهم عنده، ومع ذلك لم يتوصّل إلىٰ كسب ثقتهم، بل أبغضوه وأمعنوا في الاستهانة به، ولم يعاملوه معاملة ملكٍ، لا في الجِدّ ولا في اللعب.

في رحلة صيدٍ مرّةً، وفي أثناء الجري وراء الأيائل والوعول، وصلوا إلىٰ مكانٍ وَعْر، اضطرّه للتأخّر عن المطارِدين، فصاح به النبيل آدوم موكاتسي متحدّيًا: *«هيا يا ابن إلٰه الفرس! تحرّك وأثبت لنا رجولتك!»*. فردّ عليه بقوله: *«ابتعد عني، فالجري في المكان الوَعْر من عمل الشياطين»*.

وكان مع أصحابه، في مرّةٍ أخرىٰ، يطارد الخنازير البرية، حين شبّت النار في حَرْشَة قصب أحاطت به. فجُنّ جنونه، وراح يضرب حصانه يوجّهه هنا وهناك علىٰ غير هدىٰ. فقال له آدوم أيضًا: *«يا ابن إلٰه الفرس! لماذا انت خائف، أليس هٰذا إلٰهك الذي تعبده؟»*. وردّ عليه شابوه: *«أرجوك، دعِ المزاح الآن، وأخرجني من هٰذه النار، لألحق بك، فحصاني سيجمح إذا سبقتك»*. فقال آدوم: *«ليست هٰذه أرضًا وعرة أسبقك فيها، بل هي نار. كنت تقول عن الموكيين إنهم أرواحٌ شريرة، أمّا أنا فأقول عن الساسانيين إنهم نساءٌ في هيئة رجال»*. وهمز

حصانه، وآخترق النار كأنه يخترق روضةً مزهرة، وخلّص شابوه. وأدرك في الوقت نفسه، أنّ شابوه لن يسكت علىٰ هٰذه الإهانة، فلجأ إلىٰ بلاد الملوك، قبل أن تصل يده إليه.

وفي أثناء لعب الكرة علىٰ صهوات الجياد مرّةً، آنتزع شاغاسب آرزروني الكرة مرّتين من شابوه، فضربه هٰذا بالعصا قائلًا: «*آعرف نفسك يا هٰذا!*». فأجابه: «*أنا أعرف نفسي يا هٰذا! فأنا من سلالة الملوك من ساناسار، وأحمل لقبًا ملكيًّا، ومن واجبك مع إخوتك تقبيل أريكة ملوكي*». قال هٰذا بإباء وعزّة نفس، وترك حلبة اللعب ومضىٰ.

وفي مرة أخرىٰ، وفي وليمةٍ كبيرة، شرب خسرف كارتماناتسي كثيرًا حتىٰ ثَمِل، وراح يغازل جاريةً تعزف علىٰ قيثارة بأنامل رشيقة، مغازلةً مكشوفة، بحضور شابوه الذي غضب وأمر بآعتقاله وحبسه. لكنّ خسرف ترك المكان شامخ الرأس، ومرّ بين الحرّاس، ويده علىٰ مقبض سيفه، ولم يجرؤ أحدٌ علىٰ التعرُّض له، لما عرفوه عنه من قوةٍ وبأس شديد.

سردنا لك هٰذه الحادثات الزائدة مضطرّين، نزولًا عند رغبتك الملحّة.

٥٦

مجرى الأحداث بعد ذهاب شابوه عن أرمينية وفترة اللاحاكم التي تليها

بعد أربع سنواتٍ من تملّكٍ غير مشرِّف، بلغ شابوه خبر مرض أبيه، فذهب مسرعًا بعدما أمر نائبه بالقبض علىٰ كلّ النبلاء، وسَوقِهم إلىٰ فارس. ولمّا وصل شابوه إلىٰ ديسبون، كان هازكيرد قد مات بعد إحدىٰ عشرة سنة من المُلك، وفي اليوم التالي قُتل هو بمؤامرةٍ من رجال البلاط.

فانتهزها الفارس نرسيس جيجراكاتسي فرصةً، فقاد الجيش الأرمني مع جنود النبلاء الأرمن، وخاض حربًا مع الجيش الفارسي وهزمه، وشتّت شمله، بعدما قتل قائده برهام سبانتوني، ولاذوا بعد ذلك بالجبال والأماكن المنيعة خوفًا من هجوم معاكس. وأثبت الفانانيون تميّزهم في هٰذه المعركة، التي تركت بلادنا ثلاث سنوات بلا حاكمٍ ولا حكومة، فشا خلالها الفساد والاضطراب، اللذان أدّيا إلىٰ خرابها ودمارها، وتدنّت الواردات الملكيّة، وتعرّضت مسالك الناس في الذهاب والإياب لعبث اللصوص وقطّاع الطرق، وزالت كلّ مظاهر الأمن والنظام.

في الأيام نفسها، تولّىٰ المُلك في فارس فرام الثاني، وهو يضمر الانتقام من بلادنا، لكنّه لم يمسّ القسم اليوناني بسوء، بل عقد مع اليونان معاهدة سلام.

٥٧

إرسال مسروب إلى بيزنطة ومضمون الأوراق الخمس

عندما رأىٰ ساهاك الكبير المآسي التي حلّت بالقسم الفارسيّ من بلادنا، ذهب إلىٰ الغرب. لكنه لم يلقَ ترحيبًا يليق به. لذلك عاد وأرسل مسروب مع حفيده إلىٰ بيزنطة، إلىٰ القيصر تيودوس، وحمل حفيده فارطان الرسائل الخمس التالية:

رسالة ساهاك إلى تيودوس :

إلىٰ القيصر محبّ السلام السيد أوغسطس تيودوس، من رئيس أساقفة الأرمن، سلام.

لا شكّ في أنّ خبر أزمتنا قد وصل إلىٰ أسماعك، لذلك ٱلتجأتُ إلىٰ أعتابكم، مؤمّلًا في إحسانكم ورقّة قلبكم، أن تنصفونا بعدما وجدت الجفاء عند عمّالكم في بلادنا، الذين يحقدون علينا إلىٰ درجةٍ جعلتهم يرفضون حروفنا الهجائية، التي ٱبتكرها الرجل نفسه الذي يَمثُل أمامكم، بعد عناءٍ وعمل طويل شاقٍ في بلاد الفرس.

لذا أرجو أن يتكرّم جلالتكم ولا يحرمنا، ونحن في وضعنا هٰذا، من حكم بلادنا. فلتأمروا بأن يقبلونا مع علومنا، ودمتم.

وهٰذه الرسالة إلىٰ أسقف المدينة الملكيّة:

رسالة ساهاك إلى آدديكوس :

من ساهاك رئيس أساقفة الأرمن إلىٰ معلّمنا آدديكوس، أسقف باب مدخل الدنيا، سلام مبارك.

أضع أملي في قداستكم، وأرسل إليكم معلّم بلادنا مسروب مع حفيدي فارطان، لكي تسمع منهما مآسي بلادنا، فتُقنِع ملكَنا بمساعدتنا كأخٍ حقيقيٍّ محبوب، ودمتم.

وكتب إلىٰ آناتولي قائد الجيش ما يلي:

رسالة ساهاك إلى آناتولي :

من ساهاك رئيس أساقفة الأرمن، إلىٰ القائد البطل آناتوليوس، سلام.

أشكر الله الذي سخّرك لتكون الملاذ لبلادنا. أرسل إليك معلّمنا مسروب وحفيدي فارطان، ليشرحا لك الأزمة التي نمرّ بها، لعلّك تجد حلًا لها عند باب الملك، فأرجو من شهامتك أن تؤازرهما وترشدهما، ودمت بسلام.

عندما سمع آناتولي بآسم مسروب، الذي كانت شهرته قد طبّقت الآفاق، لم يكتفِ بآستقباله آستقبالًا حارًّا، بل أرسل سُعاةً متناوبين ينقلون الأمر إلىٰ قيصر ويشرحون له الموقف. فتلقّىٰ منه ردًّا يأمره بإعادتهما إلىٰ بلدهما مكرّمين. فآنتهزها مسروب فرصةً، وآصطحب معه تلاميذه، الذين كانوا عند الأسقف آكاكي مع رئيسهم غيفونت. وأوعز آناتولي إلىٰ الأسقف كينيت بأن يؤمن سفرهم معزّزين مكرّمين، وهم يحملون رسالة الملك التالية:

رسالة تيودوس إلى ساهاك :

من الحاكم بأمره تيودوس أوغسطس قيصر الرومان، إلىٰ ساهاك الكبير رئيس أساقفة الأرمن، سلام.

لقد سررنا برؤية رسائلك، وفهمنا كتاباتك. عَتبْنا عليك كثيرًا، لأنك آندفعت بكلّ قلبك نحو الملوك الوثنيين، ولم تحاول الاتّصال بنا ولو بالكتابة. وعَتبْنا عليك أكبر، لأنك تجاهلت الأفذاذ في بلدنا، وسعيت للبحث عن أسس المعرفة عند الآشوريين. لهذا السبب وافقنا علىٰ أن يتجاهل عمّالنا حروفكم.

لكن بعدما شرح لنا مسروب أنّ هٰذا الأمر إنما تمّ بوحيٍ من السماء، أوعزنا بتعلّمها بأسرع ما يمكن، وبقبولك معلمًا حقيقيًّا محترمًا، نُجري لك الغذاء والنفقات أسوةً بأسقفيّةٍ قيصريّة، وأَمَرنا بأن تُبنىٰ هناك في أرمينية مدرسةٌ، تكون مستقرًّا لجيوشكم، كما عيّنا علىٰ ستراديلاد فارطان آبن صهرك كآبنك إكرامًا لك، وسجّلنا آسم مسروب مع أوائل المعلّمين، ودمت سالمًا.

كذلك كتب رئيس الأساقفة آدديكوس الكبير ما يلي:

رسالة آدديكوس إلى ساهاك :

من آدديكوس رئيس أساقفة قسطنطينوبوليس العاصمة،

إلىٰ الأخ المحبوب والزميل في الكرسي، رئيس أساقفة الأرمن ساهاك، باركك الربّ.

لقد حمدنا الله كثيرًا علىٰ سمعتك الطيّبة عند هؤلاء الأوباش، لكننا لا نُعفيك من العتاب.

نحن نذكر جيّدًا آباءك كريكور ونرسيس وسيرتهما الطيبة، ونتعجّب منك أنك غَفِلْتَ عن نبع الكنيسة القديس يوحنّا، الذي لم تهتدِ بهدايته العاصمة العالمية وحدها، بل كلّ المسيحيين في هٰذه الدنيا، حتىٰ بلغ الأمر أن لقّبوه بذي الفم الذهبيّ. أما أنتم فتغاضيتم عنه، وحاولتم إرواء ظمئكم من ماء المطر. لكنّ أحكم الحاكمين رأىٰ أزمتكم وما تعانونه، فمنَّ عليكم برحمته بالروح القدس، فسررنا أعظم السرور لذلك.

لذا وبأمرٍ من الحاكم بأمره أوغسطس، أعطيك الحقّ في التعليم في قسمنا، علىٰ أن تنبذ معتقد الوثنيين من حياتك.

هٰذا، وقد سجلّنا رسولك مسروب عضوًا في الكنيسة الرسولية.

٥٨

التعليم في مناطقنا الغربيّة
وسيادة السلام على الجميع
والملك آرداشير

عندما وصل مسروب وفارطان إلىٰ ستراديلاد، وجدا قائد الجيش آناتولي عند حدودنا، وقد نفّذ الأمر الملكي الذي تلقّاه بسرعةٍ، وكان كلّ النبلاء والعاملين والرؤساء والعامّة والوجهاء، وكلّ رجال الدين، قد اتّفقوا بوحيٍ من السماء علىٰ تعليم الحروف الأرمنية في الغرب من أرمينية، علىٰ غرار شرقها.

في هٰذا الوقت، اتفق النبلاء علىٰ أن يُوَسِّطوا ساهاك الكبير لدى فرام ملك الفرس، للعفو عنهم، وتركهم يتوحّدون، لينصرفوا إلىٰ تعليم كتاباتهم، فقبل ساهاك الكبير، وجرت مفاوضات للصلح، كان فيها القائد سمباد في الجانب الأرمني بدلًا من ساهاك الكبير، الذي كلّف مسروب الاَضطلاعَ بمهمّة تعليم القسم الغربيّ، تاركًا معه حفيدَيه من هيماياك وهامازاسب شقيقي فارطان ستراديلاد، وأمرهم بهداية الوثنيين وردّهم عن ديانتهم الباطلة، وإن لم يهتدوا، فمعاملتهم معاملة عدوّ ولو بالقتل، فيكون الموت هو المدافع عن عذابٍ يلحق بهم من الأرواح الشريرة. أمّا هو فتوجّه إلىٰ مقاطعة آيراراد، ومنها أرسل كلّ النبلاء مع القائد سمباد وحفيده فارطان ستراديلاد، إلىٰ قصر ملك الفرس.

ولمّا أدرك الملك أنّ النبلاء، حين ينفضّون عنه يتعذّر عليه الاَحتفاظ ببلادنا تحت سلطته، لذا، رضي بالمصالحة، ووقّع ورقةً أكّد فيها نسيان ذنوبهم، وبناءً علىٰ طلبهم عيّن لهم آرداشيس بن فرامشابوه ـ الذي غيّر اَسمه إلىٰ آرداشير ـ ملكًا، وائتمنه علىٰ كلّ بلاد الأرمن من دون حاكمٍ فارسيّ، ودام حكمه ستّ سنوات.

٥٩

بناء مدينة في كارين
تسمى تيودوبوليس

بموجب أمرٍ ملكيّ تلقّاه القائد آناتولي، قَدِم إلىٰ بلادنا وتجوّل فيها، حتىٰ اَكتشف مقاطعة دارين، وأعجبته لبناء مدينةٍ علىٰ أرض خصبةٍ، خيّرة، كثيرة المياه، خصوصًا وأنها تقع في مركزٍ وسط، غير بعيدٍ عن تلك الأماكن التي تنبع

منها عدّة روافد من مياه الفرات، تجري ببطء وتتجمّع كالبحر، لتعطي انطباع المياه الراكدة، تعيش فيها اعدادٌ كبيرة مختلفة الأنواع من السمك، وأعدادٌ كبيرة من الطيور النادرة، يتغذّىٰ السكان علىٰ بيوضها. وتنمو عند شواطئ المستنقعات أحراشٌ كثيفة من القصب. وتنمو في الحقول حشائشُ عالية، ونباتاتٌ كثيرة من أرض معطاء. أمّا الجبال فتزخر بالأيائل والوعول، إلىٰ جانب حيواناتٍ أليفة كثيرة من ذوات القرون، مكتنزةٍ باللحم والشحم.

عند سفح هٰذا الجبل، حيث العيون الكثيرة ذات الماء الزلال، ٱختار مكانًا رسم عليه مخطّط مدينة، أحاطها بخندقٍ عميق حفره لبناء السور، الذي دَعمه بكثيرٍ من الأبراج العالية، وسمّىٰ الأول منها بٱسم تيودوس تخليدًا لٱسم الملك. أمّا في الجهة الثانية، فبنىٰ أبراجًا جعلها علىٰ شكل صخورٍ عادية للتمويه، تشبه مقدمة سفينة. ونَقّب سراديب تحت الأسوار تقود إلىٰ الجبل. وفعل الشيء نفسه في الجهة التي تطلّ علىٰ السهل الشمالي. وأقام علىٰ جهات الشرق والغرب أبراجًا عاليةً دائرية. وأسّس علىٰ مرتفع من الأرض داخل المدينة مزارع للفواكه، سمّاها أوغسطيوس تكريمًا للملكَ أيضا. وشقّ داخل المدينة قنواتٍ تحت الأرض، لإيصال الماء إلىٰ كلّ بقعة في المدينة. ثم ملأ المدينة بالسلاح والجنود للدفاع عنها، ليبقىٰ ٱسم تيودوس خالدًا كلما ذُكرت المدينة. كذلك أجرىٰ المياه المعدنية المتدفّقة من أعلىٰ الجبل، في قنواتٍ مغطّاة منحوتةٍ في الصخر.

٦٠

مسروب يعود إلى التعليم
وإرسال مترجمين إلى بيزنطة

بقي مسروب في الصحراء ـ المسمّاة "شافكوك" ـ زمنًا، ريثما أتمّ تعليم الأفواج الأولىٰ في المناطق الحارّة. ولم يكن يُعلّم الكتابة علىٰ أنها فنّ من الفنون وحسب، بل كان يبثّ الروح القومية في نفوس التلاميذ كأنه رسولٌ مُرسل. وبعدما اطمأنّ إلىٰ حُسن سير العمل، ترك عددًا من تلاميذه لتعليم الناس بدلًا منه، فترك في سبيدوم: غيفونت، وينوفك، وترك في ترجان أسقفهم كينت، أمّا في مقاطعة يكيغيا فترك فانان، وذهب هو إلىٰ آيراراد ليُقيم في كوغتن، أول مقاطعة في طريق سيره.

ولمّا كانت جذور الوثنيّة ما زالت موجودةً في البلاد، فقد نمت وترعرعت في ظلّ اللاحكومة التي مرّت بها البلاد، وامتدّت حتىٰ باتت تهدّد كثيرًا من الناس، فعمد السعيد إلىٰ هداية الفئة الضالّة بالحُسنىٰ مثل أبٍ حنون، بمساعدة ابن شابيت حاكم تلك المقاطعة. ثم سمع بأنّ كبار مُروّجي هٰذه الفكرة الخبيثة، موجودون في نواحي باغاساكان، فذهب إليهم، وهدىٰ من أراد أن يهتدي، وطرد من أصرّ علىٰ ضلاله إلىٰ بلاد الهون، واستأمن الأسقفَ موشيغ علىٰ إدارة التعليم في تلك النواحي، وعاد إلىٰ مناطق وادي فارطمان، حيث سمع بوجود بعض أتباع الوثنيّة، فاجتمع بهم وهداهم إلىٰ الطريق الصحيح، وأرشد حاكمهم خورس، وبالمثل دعا حاكم كوكار في مقاطعة داشيرك، ليكون المرشد هناك. ووصل إلىٰ بلاد الكُرج التي كان آرشيل ملكًا عليها، وعلّم الناس فيها بأحسنَ ممّا يُعلّم تلاميذه.

عند عودة مسروب إلىٰ بلاده، أتّفق مع ساهاك الكبير علىٰ إرسال تلميذَيهما، هوسيب ورفيقه يزنيك من قرية كوغب، إلىٰ مدينة يتيسا في بلاد ما بين النهرين ليُترجما كلّ ما يجدانه من كتاباتٍ باقية من الآباء المقدّسين الأوائل، وبعد إنجاز تلك المهمّة، يتوجّهان إلىٰ بيزنطة في المهمّة نفسها. في أثناء وجودهما هنا تلقّيا رسائل كاذبةً تقول بأنّ ساهاك الكبير ومسروب، يحضّران أشخاصًا آخرين لإيفادهم إلىٰ بيزنطة، فتعجّبا وتوجّها إليها فورًا دون إذنٍ من معلّمَيهما، ولحق بهما آثنان من رفاقهم التلاميذ، هما غيفونت وكوروت، من تلقاء نفسيهما أيضًا، وآنضم إليهم هوفان وآرتسان المكلَّفَين الرئيسَين في المهمّة، التي كلّفهم إيّاها ساهاك الكبير ومسروب، وجاء تأخّرهما عن كسلٍ وتلكّؤ في الخروج من قيصريّة. ولمّا وصلوا رحبّ بهم أسقف بيزنطة مكسيميانوس أجمل ترحيب.

٦١

عن مؤتمر آفسوس
الذي عُقد بسبب نسطور الملحد

في هٰذا الوقت بالذات كان يشغل كرسيّ الأسقفيّة البيزنطيّة نسطور الملحد. الذي تبنّىٰ المفهوم اليهوديّ، وأنكر علىٰ القديسة العذراء أن تكون أمّ إلٰه، وأنها ليست سوىٰ أمٍّ لإنسانٍ عاديّ، لأنّ المولود قد أخذ البداية منها، بينما الآبن ـ الذي تباركت به مريم ـ شيءٌ آخر، أمّا آبن الآب فهو شيءٌ قد ذُكر منذ الأزل، وهٰكذا يكون للربّ آبنان، فيصيرون أربعةً مع الروح القدس وهٰذا لا يجوز.

لذلك دُعي إلىٰ مؤتمرٍ في مدينة آفسوس المطلّة علىٰ البحر الآسيوي، حضره الروحانيّون: كيليسدينوس عن روما، كوريغ عن الإسكندرية، هوبنال

عن أورشليم، يوحنّا عن أنطاكية، ممنون عن آفسوس، باولوس عن حمص، ديودوديوس عن آنكورا، وغيرهم كثيرٌ بلغ مجموعهم مائتي روحانيّ، لدراسة الأوراق الموثّقة، وقرّروا لعنة نسطور وعزله، وآعتبروا أنّ الآبنَ الواحد عقيدةً هو يسوع المسيح، وأن مريمَ العذراء ـ أقدسَ القدّيسات ـ والدةٌ للإله.

لكنهم آستغربوا أن يغيب عن المؤتمر ساهاك الكبير ومسروب، فكتب إليهما كلٌّ من كوريغ من الإسكندرية، وهوبنال من أورشليم، ويوحنّا من إنطاكية، وممنون من آفسوس، وبروكدوس من قسطنطينوبوليس، وآكاكي من ميليدينة، يحذّرونهما من مبشّرين وفدوا إلىٰ بلاد الأرمن، بنيّةٍ سيئة تهدف إلىٰ نشر مفاهيم نسطور، ويحملون إليها كُتُبَ تيودوروس ماموبسداتسي معلّم نسطور. بعد ذلك عاد مترجمونا الذين ذكرنا أسماءهم آنفًا، وآلتقوا ساهاك الكبير ومسروب في أشديشاد دارون، وسلّموهما الرسائل ومقرّرات مؤتمر آفسوس ـ وعددها ستّة قرارات ـ مع نسخٍ منقّحةٍ من الكتاب المقدّس.

تسلّم ساهاك الكبير ومسروب نُسخ الكتاب المقدّس، وعمدوا إلىٰ إعادة ترجمة ما كان قد تُرجم سابقًا بسرعة، بعد تدقيقه وإدخال بعض التعديلات عليه. لكنّ الترجمة خرجت ضعيفةً، بسبب جهل المترجمين لقواعد لغتنا.

لذلك رتّب ساهاك الكبير ومسروب، لإيفادنا إلىٰ الإسكندرية، لتعلُّم اللغة اليونانيّة الصحيحة في جامعةٍ حقيقيّة.

٦٢

حول المعلّمين
ونَهج التعليم الذي وُضع زينةً من السماء

يقول الذين يهتمّون بعلوم الحكمة والرياضة، إنّ النجوم تستمدّ نورها من

القمر، والقمر يستمدّ نوره من الشمس، والشمس من السماء الساطعة، وإنّ نور الشمس يمتدّ بحزامَين، يستمدّان نورهما من الشمس نفسها بالتبادل حسب الحركة وحسب الزمن.

هكذا كان أمرنا نحن، إذ غرفنا من أنوار معرفة روحانيّتنا المشعّة علىٰ الدوام، وبدأنا الرحلة إلىٰ الجنوب فوصلنا إلىٰ قيصريّة، وخرجنا منها بهدوء، وعبرنا الأغوار السحيقة، ووصلنا إلىٰ الأماكن المقدّسة للحجّ والتعرّف علىٰ علوم الفلسطينيين.

وأكملنا رحلتنا، حتىٰ وصلنا إلىٰ مصر البلاد الشهيرة، التي تتمتّع بمناخٍ بعيدٍ عن البرد الشديد والحرّ الشديد، وعن السيول والعواصف، وبموقعٍ من الأرض جميل، وهي غنيّةٌ بكلّ ما لذّ من الفاكهة وطاب، يحميها النيل، ويُحقّق لها الأمان، ويؤمّن الغذاء لأهلها من كلّ ما يحتاجون إليه، ويتحكّم الفيضان فيها بالجفاف، ويمنحها الرطوبة اللازمة، إضافةً إلىٰ ما يحمله معه من طَمْي يجلُب لها الخير الوفير. ولقد تفرّع نهر النيل [في الشمال] إلىٰ اْثني عشر فرعًا، أحاطت بها فجعلتها كالجزيرة.

بُنيت مدينة الإسكندرية في هٰذه البلاد، وفي أنسب مكانٍ علىٰ البحر المتميّز بمناخ متقلّب، تقع في جنوبها بحيرةٌ تجمّعت مياهها من البحر، ومن مصادر أخرىٰ ترطّب الجو. يهبّ عليها الهواء العليل من البحر، والهواء الثقيل من البحيرة، فيختلط التياران ليشكّلا أجمل مناخٍ معتدل فيها، مفعمًا بالصحّة والعافية.

هنا لا نجد جبل بلودينيوس بقممه الخمس، أمام المدينة محاطًا بدنيا لا نهاية لها، بل يجلس مرقس للتبشير بإنجيله.

هنا لا توجد مدافن الآلهة من نسل التنّين، بل شواهد القدّيسين تتعالىٰ فوق الأجداث.

هنا لا يحتفلون بيوم الخامس والعشرين من شهر دوب عيد التناسخ، ليقدّسوا البهائم ويقدّموا الحلوىٰ للكسالىٰ من الناس ويخدموهم، بل يحتفلون في اليوم الحادي عشر من شهر دوب نفسه، بعيد ظهور المسيح وتخليد ذكرىٰ الشهداء، فيُولمون الولائم للأغراب، ويقدّمون الصدقات للفقراء. هم لا يذبحون شيطان سارابيس اللعين، بل يقدّسون دمّ المسيح مناولةً.

هنا لا يأخذون حسنةً من إله الجحيم، بل يتعلّمون علومًا شتّىٰ، من أفلاطون جديد، ومعلّم خبير لم أتقاعس عن أن أكون جديرًا بالتتلمذ عليه، لم أَقُمْ بعملٍ منقوص، ولم أبخل علىٰ الفنّ بذوقي، أو أُبدي ضعفًا في تلقّي العلم.

بينما كنّا في رحلةٍ إلىٰ اللاتا*، بالسفينة، هبّت علينا رياحٌ شديدة دفعت بسفينتنا رغم إرادتنا إلىٰ إيطاليا، حيث مرقد القديسين بطرس وبولص، فأَقمنا قدّاسًا لهما. ولم نبقَ كثيرًا في بلاد الإيطاليين، وعدنا إلىٰ اللاتا عن طريق أثينا، حيث قضينا الشتاء.

ثمّ تابعنا طريقنا إلىٰ بيزنطة، ومنها إلىٰ بلادنا.

٦٣

حول اتفاق نبلاء الأرمن المتهوّر الذي أدّى إلى ضياعهم

عندما انغمس مَلك الأرمن في ملذّاته لدرجةٍ أقلقت النبلاء، بادروا إلىٰ اللجوء إلىٰ ساهاك الكبير يشكونه إليه، ويطلبون مساعدتهم عند ملك الفرس لعزله، وتنصيب ملكٍ فارسيٍّ في مكانه. لكنّ ساهاك الكبير قال لهم:

لا أنكر عليكم أنني سمعتُ عن سيرته السيّئة المؤلمة، ولقد

* اللاتا، بلاد اليونان [وقد وردت الكلمة في الكتاب الثاني، الفصل ١٢].

نصحتُ له بأن يرجع عن ضلاله ولكن بلا جدوىٰ، ومع ذلك يتعيّن علينا أن نحتمله فترةً من الزمن، لعلّ الله يعيده إلىٰ رشده. فإن لم يرتجع، نتشاور إلىٰ أن نصل إلىٰ حلٍّ عند القيصر تيودوس اليوناني، فهو من ديننا، إذ لا يجوز لنا أن نلجأ إلىٰ غير المؤمنين، لكي لا يلبسنا العار وتحُلَّ علينا اللعنة.

لكنّ رأيه لم يعجبهم، فحاولوا إقناعه، لكنه ردَّ عليهم:

تبًّا لي، وحاشاي أن أُسلّم خروفي التائه إلىٰ الذئب. أنا إن لم أُجبّر المكسور، وأَشفي المريض، وأُرشد الضالّ، فما بقائي في هٰذا المنصب؟! لو أنكم عرضتم عليّ اللجوء إلىٰ ملكٍ مؤمن، لسارعت إلىٰ تنفيذ رغبتكم دون تأخير، لإيقاف المتعثّر علىٰ قدميه، أمّا أن أُسلِمه إلىٰ الوثنيين وأزيد في ضَياعه، فهٰذا لن يكون. وٱعلموا أنني من أنصار مقولة المزمور: "لاتترك أحدًا يعترف لك عند الوحوش"، لأنه معمّدٌ في الحوض المقدّس، علىٰ الرغم من أنه منحطٌّ رقيع. يكفي أنه مسيحيّ. هو مدنّس بالجسم، لكنه طاهرٌ بالروح، هو وضيعٌ، لكنه لا يعبد النار، هو ضعيفٌ أمام النساء، لكنه لا يسجد للأوثان، فكيف تطلبون مني أن أسعىٰ إلىٰ ٱستبدال خروفي المريض هٰذا، بوحشٍ سليم يكون وبالًا علينا؟.!

ظنّ النبلاء أنه بكلامه هٰذا إنما يريد أن يستمهلهم، ريثما يُنبّه الملكَ إلىٰ ما يبيّتونه له، فٱتّفقوا عليه بقولهم:

«بما أنك لا تريدنا أن نخلع الملك، لذا لا نريدك أن تكون راعيًا لنا».

وخرجوا، وقد ٱتّفقوا علىٰ الذهاب إلىٰ فرام ملك الفرس.

وهكذا كان، وزاد علىٰ ذلك، أن تحدّث أحدهم بسوءٍ عن ساهاك الكبير وآرداشير، يتّهمهما بالميل إلىٰ الجانب اليوناني، وأيّد قوله كاهنٌ ٱنتهازيّ ٱسمّه سورماكي آردزرياتسي.

٦٤

تعليق مَلَكية الأرمن بإرادتهم
وانتهاك حرمة كرسي الكاثوليكوس

استدعى فرام ملك الفرس كُلًّا من آرداشير الملك وساهاك الكبير إلىٰ بابه، بناءً علىٰ طلب النبلاء، ليحطّ من قدرهما.

لكنه كان حكيمًا، فلم يتّهمهما، ولم يسئ إليهما، بل أمر قائد الآريين، وهو من أسرة سورين بهلوي، بالتوجّه إليه بٱعتباره قريبًا له، ونصحه بالكلام الليّن، بأن يتنازل عن العرش فيقول:

> *أنت من بني قومي ومن دمي، لذلك أطلب منك، لخيرك ولخير بلدك، أن تتحاور مع نبلائك وتتّفق معهم، لتبقىٰ معتبرًا ومقدّرًا من ملك الفرس، فتتنازل عن العرش، وتنصّب حفيدك فارطان ملكًا علىٰ أرمينية يتمتّع بالثقة والاحترام.*

لكنّ القائد المذكور لم يقبل، وقال للملك:

> *كيف تريدني أن أخلع آرداشير عن عرشه بمثل هٰذا الشكل؟ فأنا لم ألاحظ عليه ما يَشينه. أمّا وقد وشىٰ به نبلاؤه عندك لخلاعته وٱنغماسه في الملذّات، فأرىٰ أنّ هٰذا يستوجب التكريم منكم بحسب شريعتكم، هٰذه التي لا تمنعه مثلما تمنعه شريعتُنا، لذا، أنا لن أقول له شيئًا.*

غضب فرام، وأمر بأن يُحاكما في ساحةٍ واسعة محاكمةً علنيّة، لم يستمع خلالها إلىٰ دفاع المتّهمين، بل ٱكتفىٰ بأقوال الوشاة، وعلىٰ رأسهم سورماكي، الذي وعده النبلاء بكرسي الكاثوليكوسيّة إذا ما نجحت خطّتهم. فراح هٰذا يوغر صدر الملك فرام علىٰ آرداشير، بلسان الوسواس الخنّاس، وأقنعه بخلعه.

فأمر فرام بخلع آرداشير وحبسه في فارس، ومصادرة أملاك أسرته لصالح المملكة، كما أمر بعزل ساهاك الكبير وحبسه، ومصادرة أملاك الكاثوليكوسيّة لصالح المملكة أيضا. وأمر بتعيين سورماكي على كرسي رئاسة الأسقفيّة، وبمنح النبلاء الأرمن هدايا ثمينةً، وإعادتهم إلى بلادهم مع حاكمٍ فارسيّ يدعى فيهميهر شابوه.

لم يبقَ سورماكي على الكرسيّ أكثر من سنةٍ واحدة، طُرد بعدها بطلبٍ من النبلاء أنفسهم الذين أجلسوه على الكرسي، ونُقل إلى أسقفيّة بزنون بأمرٍ من الملك الفارسيّ، على أن يبقى المنصب وراثيًّا في أسرته. وتقدّم النبلاء بطلبِ بديلٍ يحُلّ محلّه، فعيّن فرام رجلًا آشوريًّا ماجنًا اسمه بزكيجويي. فَقدِم هذا، يصحبه أتباعٌ أشرار ونساءٌ غانياتٌ، وبات يحيا حياةَ عبثٍ ومجون، ويستولي على مخلّفات القدّيسين الأموات.

بعد ثلاث سنواتٍ ضجّ النبلاء من جديدٍ، وطلبوا من الملك فرام تبديله برجلٍ يليق بالمقام، بل طلب نصف النبلاء إعادة ساهاك الكبير.

٦٥

إطلاق سراح ساهاك الكبير من فارس
مع النائب على الكرسيّ شاموئيل

كما قلنا آنفًا، انقسم النبلاء على أنفسهم، فريقٌ منهم طلب تعيين واحدٍ من اثنين، دير فاهان آردزروني أو دير هيماياك آشوتسكي، بينما طلب دير مانجه آباهوني ودير سبانتاراد آرشاروني، إعادة ساهاك إلى كرسي الكاثوليكوسيّة. وفي الوقت نفسه، أرسل القائد اليوناني آناتولي رسولًا إلى ملك الفرس، يُدعى هاموك كوكا ياريجيتسي، يطلب إليه إرسال ساهاك الكبير

إلىٰ القسم اليوناني، إن لم يكن راضيًا عن وجوده في القسم الفارسي. كما أوفد مسروبُ السعيد، بالاتّفاق مع كلّ رجال الدين وموظفي الكنيسة، رسولًا هو الكاهن ديروك بن موسيسيك من قرية زاريشاد، إلىٰ ملك الفرس للغرض نفسه. فوافق فرام علىٰ تلبية طلب الفريقين. فعيّن علىٰ كرسي رئاسة الأساقفة شخصًا آشوريًّا يُدعىٰ شاموئيل، ليكون جنبًا إلىٰ جنبٍ مع ساهاك، مهمّته مراقبة المرزبان، ومتابعة جباية الخراج حسب المقادير المطلوبة، ومراقبة المحاكم، وغيرها من الأمور الدنيويّة. ثم أطلق سراح ساهاك الكبير، وأعاد له عدّة قرىٰ من أملاك الكاثوليكوسيّة، علىٰ أن يُلازم مقرّه متفرّغًا للتعليم وترتيب أموره تحت إشراف شاموئيل.

لكنّه قبل إطلاق سراحه، دعا جمهورًا كبيرًا من الناس، وقال لساهاك أمامهم:

> *أطلب إليك أن تُقسم بمعتقدك علىٰ أن تبقىٰ وفيًّا لنا، ولا تنفث أفكارًا باطلة مخدوعًا بالمُغريات اليونانيّة، أو تتسبّب في تعريض أرمينية للضياع، فتحوّل إحساننا لك إلىٰ إساءةٍ لبلدك.*

هنا وقف ساهاك الكبير برزانةٍ وثقة بالنفس، ونظر إلىٰ الحاضرين نظرةً عطوفة، وتكلّم وكأنه يُلقي خطابًا بصوتٍ حليم، *مؤكّدًا اعترافه بالتبعيّة التي قوبل حيالها بالجحود، ثمّ كشف بكلامه الحلو عن الكذب والنفاق اللذين يتوارىٰ وراءهما المغرِضون، ثمّ انتقد الملك بشجاعةٍ عن الألفاظ النابية التي تلفّظ بها، حين وصف الدين المسيحيّ بأنه من المُغرِيات، وندّد بديانتهم وما يعبدون.* وختم كلامه بأقوال المسيح، التي طغت علىٰ كلّ التعابير الوثنية. لكنه لم يطرح أُسَس العقيدة الناصعة كلّها، أمام غير المؤمنين فيسخروا منها، فيكون حالها حال الحجر الكريم عندما تدوسه الخنازير، ومع ذلك بَرَقَ القليلُ الذي قاله بَرْقًا بهر الوثنيّين وأخرس ألسنتهم، كما أدهش الملكَ، وتركه مبهورًا يُصيخ السمع باهتمامٍ مع كلّ المحتشدين حوله من الوجهاء الفارسيّين.

وفي النهاية، أمر فرام بأن يُمنح الخطيب البارع، ذو البيان الساحر، كثيرًا من الفضة، لبلاغته وجرأته أمام الملك.

لكنّ ساهاك لم يقبل الهديّة، وقال لقريبه من بني سورين بهلوي:

لتبقَ له فضّته، هي لا تلزمني، وأريدك أن تُقنعه بأن يحقّق لي مطلبين:

أولهما أن يبقى عرش نبلاء الأرمن على ما هو عليه، حسب الأسس التي حدّدها آرداشير، والتي ما زال مفعولها يسري حتى الآن، وأن لا يسمح لمرزبان الفرس بتعديل هٰذه الحدود على هواه.

ثانيهما، أن يعيد إلى قريبي وقريبك، كازافون بن هراهاد، بيتَه، أو ما يعوّضه له ـ ما دام هو لا يطيق اسم آرشاكوني ـ وأن يَصنّفه بين النبلاء، على الأقلّ في المكان الذي يختاره، على غرار ما فعل بقريبيه كامساركان أو آمادوني، اللذين أنزلهما عن عرش آبائهما وخفّض شرفهما من المرتبة الأولى إلى أدنى درجة، أو أن يكلّفه الأعمالَ التي تتعلّق بالمملكة، تكليفًا يشبه ما فعله بآمادوني وأولاده، لكي يحلو في عين الربّ، فيُعيده من جديدٍ إلى عرش آبائه، ليتولّاه أيٌّ واحدٍ من أبنائه.

هٰذا ما أريدك أن تقنعه به، وأنت الوسيط الهُمَام.

قد يقول قائلٌ إنه كان علينا أن ننقل حرفيًّا، ما تكلّم به ساهاك الكبير في المحكمة الفارسيّة. فنُجيب بأنّ هٰذا البحث لم يصل إلينا، ولم نسمعه من أحد لا بالمختصر ولا بالكامل، ولا يحقّ لنا أن ننسج من خيالنا قولًا لم نتثبّت منه، وفوق هٰذا أنا رجلٌ عجوز مريضٍ، أعبائي كثيرة، وضعت همّي في السرعة لضيق الوقت، ولم يبقَ عندي مجالٌ لمزيدٍ من التعمق، لكي أتمكّن من تنفيذ أمرك النافذ بالسرعة المطلوبة، لأتخلّص من حرجي بالتوبيخ والاعتذار، لأني أرى فيك إنسانًا مثلنا، له ما لنا مِن حقوقٍ وواجبات، لا كما يقول بعضهم: *إنّ الملوك أبناء عمّ الآلهة، مقرّبون منهم ومن نسلهم!*

٦٦

اعمال شاموئيل الأرمن
زميل ساهاك الكبير في الإدارة

عندما وصل شاموئيل، اَستولىٰ من فوره علىٰ كرسيِّ رئاسة الأساقفة، متجاوزًا حدوده طمعًا في نهب كنوزه، علىٰ غرار ما فعل سابقه بركيجوني بتركات الأساقفة الأموات، إضافةً إلىٰ ما عند الأحياء منهم. وصار يتدخّل في أمور ساهاك الكبير، فلا يسمح له برسم أساقفةٍ جددٍ بدلًا من الراحلين، ويختلق شتّىٰ الأعذار ليطرد رجال الدين من ديارهم، كذريعةٍ لعرقلة الأمر الملكيّ في جمع الخراج، فيستولي علىٰ أموالهم وممتلكاتهم ويبتلعها. فكرهه كلّ رجال الدين، واَمتنعوا عن مقابلته والتقرّب منه، باَستثناء سورماكي ذاك، الذي يعاونه علىٰ ظُلمِه، ويُثري علىٰ حسابه، ففتح المجال أمام أصحاب النفوس الضعيفة ليسلكوا سلوكه، حسدًا له ورغبةً في الإثراء السريع.

في هٰذا الوقت، كان ساهاك الكبير ومسروب، ماضيَين في تغذية أطفال الكنيسة بالحليب الروحانيّ، الذي تبعثه الكنيسة الكاثوليكيّة في مدينة فاغارشاباد، واَلتزم ساهاك مقرّه في مقاطعة باكريفانت، في ذلك المكان الذي كان قد بزغ نور السماء، وعَمَّد القديس كريكور الملكَ درتاد مع كلّ الأرمن.

ومات شاموئيل بعد خمس سنوات من العبث في بلادنا، فتسنّىٰ لكلّ النبلاء أن يتّفقوا، ويذهبوا إلىٰ ساهاك الكبير، ليعترفوا له بخطئهم، ويسترضوه لكي يعود إلىٰ كرسيّه من جديد، مؤكّدين له أنهم سوف يسعون إلىٰ تأمين موافقة ملك الفرس، ووقّعوا كلّهم علىٰ تعهُّدٍ خطيّ، يقضي بأن تكون هٰذه المرتبة وراثيّةً في أهله. لكنه لم يقبل، ولمّا ألحّوا عليه، اَضطرّ إلىٰ أن يروي لهم

حُلُمًا رآه في ما مضىٰ من الزمان، يُحرِّم علىٰ أسرته تولّي رئاسة الكهنوت في البلاد. فبكىٰ النبلاء، ونَحَوا علىٰ أنفسهم يلومونها علىٰ ما فعلوه بأيديهم. وٱحترموا رغبته، وهم يردّدون كلام الإنجيل *«لا بدّ من أن تأتي العثرات، لكن ويلٌ لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة»*.

٦٧

رحيل ساهاك الكبير ومسروب السعيد عن هذه الدنيا

بعد خمسٍ وعشرين سنةً من حكم بلاد الفرس مات فرام، تاركًا المُلك لولده هازكيرد. فنكث بمعاهدة الصلح، وتوجّه فور تولّيه الحكم إلىٰ مدزبين، وٱنقضّ علىٰ القوات اليونانيّة المرابطة بقربها، وأمر الكتائب الأزربايجانية بٱجتياح بلادنا، فعسكروا حالًا قرب مزرعة باكين الملكيّة.

في هٰذا الوقت، أصاب ساهاك الكبير مرضٌ خطف روحه، فحمله تلاميذه إلىٰ قريةٍ تُدعىٰ بلور، لأنها مكانٌ غير معروف، وبعيدٌ عن القوات الفارسيّة التي كانت تضايقهم، ودفنوه، بعد إحدىٰ وخمسين سنةً من تولّيه كرسيّ رئاسة الأساقفة، ٱبتداءً من السنة الثالثة من حكم خسرف الأخير ملك الأرمن، حتىٰ بداية السنة الأولىٰ من حكم الملك الفارسيّ هازكيرد الثاني، في أواخر شهر نافاسارت يوم ولادته، وكأنه ٱختصّ ذلك اليوم ليولد ويموت. إلّا أنه خلّف سمعةً طيّبة، شرّفت صورته، وعظّمت ٱسمه. لقد رحل من الحياة الدنيا إلىٰ الحياة الآخرة، بعدما عاش أعوامًا طوالًا لم تظهر عليه خلالها أيّة علامةٍ من علامات الكِبَر، ولم يتعرّض لأيّ مرضٍ يذكر.

كان من واجبنا كتابة مقالةٍ مطوّلة عنه، تُبيّن مزاياه أبًا قدّيسًا، تليق به،

لكننا لم نفعل بغيةَ إبعاد الملل عن نفس القارئ، نظرًا لطول هٰذا الفصل. عازمين علىٰ ترك مثل هٰذه الأمور إلىٰ مكانٍ وزمان آخر، بعيدًا عن هٰذا الكتاب، حسبما وعدنا في البداية.

حمل كبير الشمامسة وتلاميذه، وكَنَّتُه السيدة ماميكونيان الملقّبة بتسدريك زوجة فارطان ستراديلاد، ودفنوه في قريتهم آشديشاد الموجودة في مقاطعة دارون. بعد ذلك آنتشر تلاميذه في مقاطعاتهم، فبنوا أديرةً وشكّلوا أخَوِيّات.

بعد ستّة أشهر من موت القديس ساهاك، وفي اليوم الثالث عشر من شهر ميبيكان، آنتقل من هٰذه الدنيا إلىٰ الدنيا الآخرة القديس مسروب، في مدينة فاغارشاباد، متميّزًا علىٰ كلّ الرجال الأفذاذ الذين عاشوا في ذلك الزمان، بعقله وعلمه ونشاطه. لم يجد الشَّطَطُ والرغباتُ الجسديّة مكانًا عنده، لآنشغاله بما هو أهمّ، بقوةٍ وهمّةٍ عالية وإرادةٍ حازمة. كان حادَّ الذهن، عرفه الجميع متزيّنًا بالصفات السماوية، كأنه مَلَك. وهو ذو فكرٍ متطوّر، وبيانٍ ساحر، وحيويّةٍ في العمل، وجلالٍ في الهيئة، وآنفرادٍ في العادات، وحكمةٍ في الرأي، وآستقامة في الإيمان، وصبرٍ مع الأمل، وصدقٍ في الحبّ، وآندفاعٍ في التعليم.

وبما أنني لا أستطيع أن أذكر كلّ مزاياه، لذلك سأتحوّل في الحديث إلىٰ موكب تشييع جثمانه. فكما سمعتُ من كثيرٍ من الناس الثقات، أنّ شعاعًا ناصعًا من نورٍ علىٰ شكل صليب، أضاء فوق ذلك البيت الذي لفظ فيه المرحوم آخر أنفاسه، ودام هٰذا النور طويلًا قبل أن يختفي. ولم تكن رؤية هٰذا النور مقتصرةً علىٰ فئةٍ معينة، بل كان باديًا لجميع الناس، حتىٰ لغير المؤمنين، فتباركوا به.

وفي مكان دفن جسده الطاهر، الذي أعدّوه له، آرتفعت ضجّة نقاشٍ بين

الجموع المحتشدة، وتبيّن أنّ المشيّعين قد انقسموا قسمين، بل ثلاثة أقسام: قسمٌ يريد حمله إلىٰ مسقط رأسه دارون ليُدفن فيه، وقسمٌ يريد حمله إلىٰ كوغت حيث عَلَّم أول مرة، وقسمٌ يريد دفنه في فاغارشاباد نفسها حيث يرقد كلّ القديسين. ورجحت كفّة البطل فاهان آمادوني، الذي عُرف بإيمانه الراسخ، وقوّته البدنيّة الفائقة، والمنصبِ الرفيع الذي يتولّاه في قيادة الجيش في بلادنا بأمرٍ من الفرس. لذلك حمل جثمانه في موكبٍ مهيب لائق بمكانته إلىٰ قريته أوشاكان، ونور الصليب يرافقه حتىٰ المدينة، يراه كلّ الناس، ولم يختفِ النور إلّا بعد ما واراه فاهان وخادمه تاتيك التراب.

وشغل كرسيَّ رئاسة الأساقفة ـ بأمرٍ من مسروب ـ تلميذهُ الكاهن هوسيب، من قرية هوغوتسيم في وادي فاي.

٦٨

الحزن على نهاية أسرة آرشاكوني في ملكيّة الأرمن ورئاسة الأساقفة في أسرة القديس كريكور المنوّر

أُسفي عليكِ يا بلاد الأرمن!

أسفي عليك يا أسمى الأمم في كلّ الشمال!

كم من مرةٍ أَفَلَ نجمُ مملكتك وكهنوتك! ولكنّ فداحة أُفول نجمك، بعد رحيل مفكّرك ومعلّمك، لفادحٌ، لأنّ السلام قد تعكّر، وشاعت الفوضىٰ، وتدنّس الإيمان، وطغىٰ الفساد.

أرثي لك يا كنيسةَ أرمينيّة، إذ شَغَر كرسيُّك من زينة شاغليه، وحُرِمت الرعيّة من راعيها الأمين. ما عدتُ أرىٰ قطيعك الناطق يتغذّىٰ في المكان

الخصب، مستريحًا عند المياه العذبة، ولا متجمّعًا في كَنَف الكنيسة حَذَرَ الذئاب، بل ضَلّ في القفار الجدباء والأماكن الخطرة الموحشة.

أين من التغيير الأول والثاني!

لقد ضاعا حين تباعد العريس عن أخيه في الصليب. أمّا أنتِ، أيتها العروس، فلقد صبرت وحافظت علىٰ عهد زواجك بعقلٍ سليم، كما قالت الحكمة، ولم تُذْعِني، يا عروس، في المرة الثانية، حين هاجمكِ عاشقٌ بكلّ قوّته يريد آراكاسد الطاهرة، علىٰ الرغم من أنّ عريسك كان قد أُبعد عنك قهرًا ـ بعدما عقّ أبناؤك آباءهم ـ ومع ذلك، لم تُذعِني لقساوة القلوب، من المتسلّطين علىٰ مناصبك الأبويّة، ولم تستكيني، مع حرمانك من كلّ شيء، بٱنتظار عودته، ومسحت بيدك الحانية علىٰ أطفالك المشرّدين، فبعثتِ فيهم الأمل، ولم تفعلي مثل زوجة أب، بل تقمّصت دورك ربّ بيتٍ ثانيًا. ولكن، لا أمل في عودته بعد رحيل الثالث هٰذا، لأنّ الجسم قد ٱنفصل عن رفيقه المتعامِل معه.

أتمنّىٰ للراحلين حسن الإقامة مع المسيح، والآستراحة في أحضان النبيّ إبراهيم، ورؤية أرهاط الملائكة تدور حوله. بعد ترمُّلِكِ بقيتُ بلا معين، وحُرمنا نحن من الرعاية الأبويّة، مساكين، لا مثلما حصل في الأزمنة القديمة، بل إنّ شقاءنا لأشدّ وأقسىٰ، لأنّ موسىٰ بعدما صَعِد إلىٰ ربّه، خَلَفَه يشوع لكي يرشد الناس إلىٰ الأرض الموعودة، وعندما رفض الشعب روبوفامن، خَلَفَه ٱبنُه نابادي، وليس السبع من أكل رَجُلَ الله، بل سنُّه المتهالكة. صَعِد إيليا ولكن لم تبقَ روح إليشَع مزدوجةً، ليمسح هيفو بالزيت، بل إنّ يرائيل دعا للقضاء علىٰ إسرائيل. وقع سينيكيا أسيرًا، لكن ليس هناك ''زورا'' بابل ليُجدّد الإدارة.

فرض علينا آنديوكوس ترك ديانتنا الأرمنية، لكنّ ماتانيا لم يقف في وجهه. حاصرتنا الحرب من حولنا، لكنّ ماكار لم ينقذنا. نحن الآن في قتالٍ في

الداخل، وهولٍ في الخارج. الهول من جهة الوثنيّين، والقتال مع الاَنفصاليّين، وليس بيننا ذلك المفكّر الذي ينصح، ويستعدّ للحرب.

أوّاه علىٰ هٰذه الحُرمات التي اَستبيحت! أوّاه علىٰ هٰذا التاريخ المشؤوم!

كيف لي أن أتحمّل هٰذه الآلام؟ وكيف لي أن أُقاوم عقلي ولساني، فلا أردّ دين آبائي عليّ، ولو بالكلام، مقابل ولادتي ونمائي؟ لقد أنجبوني وزوّدوني بالعلم، وأرسلوني عند الآخرين لأكتمل. وفيما هم ينتظرون عودتنا ليفتخروا بفنّي المتطوّر، وإعدادي الكامل، ونحن نتوجّه بسرعةٍ إلىٰ بيزنطة، كان الأمل عندنا أن نرقص في الأعراس بحماسة، وحركاتٍ سريعة، ونُنشد أناشيد آراكاسيد.

لكن ويلاه! ضاعت الفرحة، وما عليّ، الآن، إلّا أن أنوح علىٰ القبور بعويلٍ يستحقّه ساكنوها، فلقد رحلوا قبل أن أصل إليهم لرؤية إغماضة أعينهم الأخيرة، والاَستماع إلىٰ حشرجة صوتهم، ونيل بركتهم.

أنا أختنق في هٰذا الحزن، وأَفنىٰ شوقًا إلىٰ أبينا. أين هدوء تَيْنِكَ العينَين الحلوتين الخيّرتين؟ أين صرامتهما في مواجهة الشرّ؟ أين هي بسمة تلك الشفاه الظريفة عند لقاء التلاميذ المجيدين؟ وأين ذلك القلب الطيّب، الذي يجتذب المريدين؟ أين الأمل الذي يُهَوِّن الدروب الطويلة، ويُسَهِّل الصعاب العويصة؟ ضاع الشعب، وغاب مرسىٰ السفينة. تخلّىٰ عنّا المعين، وصمت الصوت المشجّع.

من ذا الذي يحترم عِلْمنا بعد الآن؟ من ذا الذي يَفْرح لاَطّراد نجاح تلميذه؟ من ذا الذين يبتهج بهجةً أبويّةً لنجاح ولده؟ من ذا الذي يكبح جماح أعداء المذهب السليم؟ إنّ المعلّمين المطروحين مزعزعون، تتقاذفهم الأساليب المختلفة، والكتب المريبة، حتى اَستهتروا بنا وبعلومنا، وصرنا مكانًا لسخريتهم واَحتقارهم، وكأنّنا مهزوزون، ومحرومون من كلّ علم وفنّ. فمن ذا الذي يُسكتهم بالشدّة، ويهشّ لنا بالمديح، ويضع حدًّا للكلام، وللصمت.

عندما أفكر بمثل هٰذه الأمور، تتفجّر اللوعة في داخلي، والدمعة في عينيّ، فتدفعني إلىٰ التفوّه بكلام مليءٍ بالحزن والأسىٰ، فلا أعرف علىٰ من أصبّ لوعتي، وعلىٰ من أبكي!

أأبكي علىٰ الملك الطفل المسكين، الذي أُطيح به بسبب رعونة أبناء قومه وقِصَر نظرهم، حين أماتوه بخلعه عن عرشه، قبل أن يموت ميتةً طبيعيّة؟

أم أبكي علىٰ نفسي، وقد نُزع عن رأسي الإكليل الممجّد المشرّف الحيوي؟

أم أبكي علىٰ أبي ورئيس أساقفتي، ذلك العقلِ الراجح، المليء بالتفكير السليم، الذي كان يَحْكُم وينظّم، ويمسك بزمام الأمور ويوجّهها إلىٰ الوجهة الصحيحة، ويُلْجِم الألسنة الأجنبية؟

أأبكي علىٰ نفسي، أنا الشريد، بعدما حُرمت من نفحةٍ حيويّةٍ روحه؟ هل أبكي علىٰ أهلي، نبع المذهب الحقّ، الذي يُظهر الحقّ ويُزهق الباطل؟ أو عليّ أنا، الذي ذَبُلْتُ وجففتُ عطشًا إلىٰ نصحه؟

أأبكي علىٰ الأوبئة التي تفشّت في بلادنا، أم علىٰ ما يُنتظر مثلها في المستقبل؟

من ذا الذي يقاسمنا العناء ونحن في هٰذه الهموم، ويعيننا عليها؟ من ذا الذي يرافقنا ليخفّف أحزاننا، أو لينقشها علىٰ الحجر؟ أنهضْ يا أرميا، أنهض، وأرثِ لنا علىٰ ما حملنا، وعلىٰ ما سنحمله، وتنبّأ لنا بمثل نبوءتك عن الرعاة الجهلة، الذين يجب أن يعودوا مثلما تنبأ زكريا للإسرائيليين.

المعلّمون مغرورون، يتبجّحون بعلمهم، ويتعالَون بأنفسهم، لا بفضل الله عليهم، لقد أنتُخِبوا بقوّة المال، لا بالروح القدس. لقد عبدوا الذهب، وتحاسدوا عليه، ناسين الهيولىٰ التي يسكن فيها الله، فتحوّلوا إلىٰ ذئابٍ تفترس خرافها.

الدنيويّون منافقون، يُحبّون المظاهر، ويعشقون المجد والتعالي أكثر من عشق الله.

الأغنياء متعجرفون، مولعون بالانتقاد، كلامهم جزافٌ، كسالىٰ، يكرهون العلم، والكتابات المذهبية، همّهم التجارة والمجون.

التلاميذ بطيئون في تلقّي العلم، متعجّلون إلىٰ تعليم الناس، قبل أن يتعلّموا شيئًا من كلام الله.

العامّة أوباشٌ، كذّابون، ثرثارون، متوانون في العمل، سُكارىٰ، متخاذلون، أشرار، بعيدون عن القيّم الحسنة.

العسكريّون جبناء، متواكلون، كسالىٰ، يطرحون السلاح، ويكرهونه، سعيًا وراء الملذّات، ضعاف البنىٰ، لصوصٌ، نصّابون، حسب شريعة اللصوص.

الحكّام فاسدون، متواطئون مع اللصوص، مرتشون، بخلاء، قساة، طمّاعون، مغتصبون، يخرّبون البلاد، يحبّون الفحش، يُعاشرون الخدم.

القضاة غير إنسانيين، كذّابون، خدّاعون، مرتشون، لا ينصُرون الحقّ، منحرفون.

بالاختصار .. ضاع الحبّ، وزال الحياء بين الناس.

ما سبب كلّ هٰذا الانحطاط، إذا لم يكن الله قد أدار عنّا وجهه، وأنّ العناصر قد تغيّرت طبيعتها؟ فالربيع جافٌّ، والصيف ماطر، والخريف شتاء، والشتاء شديد البرد، كثير العواصف، طويل المدىٰ. والرياح التي كانت تحمل العواصف الثلجيّة، تحولت إلىٰ رياح حارّةٍ تسبّب الآلام. الغيوم التي كانت تُرسل الصواعق، صارت ترمي بالبرد والمطر في غير أوانه، ودون فائدة. أمّا الفصل القاسي الذي كان ينثر الندىٰ، فاعتاد علىٰ إحداث الفيضانات الضارّة، أو إحداث الجفاف الزائد عن الحدّ، فيتدنّىٰ نتاجُ الثمار والمواشي، هٰذا إضافةً

إلىٰ الزلازل وثوران البراكين في كلّ جهة. فانطبقت العبارة القائلة: «*لا سلام لمن لا يؤمنون*».

ولقد تسلّط علىٰ حكمنا ملوكٌ قساة القلوب، أشرارٌ، فحمّلونا أحمالًا ثقيلة، مرهقة، وأصدروا قراراتٍ غير مقبولة، كذلك كان حكّام المقاطعات، لا نظام عندهم، ولا رحمة، لا يتورّعون عن البطش حتىٰ بالمقرّبين إليهم، فطمع الأعداء بنا، واستقْوَوا علينا، وصار الإيمان يُباع بحياةٍ تافهة رخيصة، فإذا بالغزاة يغزوننا باستمرار، ينهبون ما في البيوت، ويستولون علىٰ الأموال، ويأسرون وجهاء الأمّة ويُقيّدونهم، ويسجنون أصحاب النفوذ المعروفين من الناس، ويَنْفُون النبلاء إلىٰ بلادٍ غريبة، فكَثُر الرّعاع، الذين راحوا يعيثون في البلاد فسادًا، ويسبّبون المضايقات للناس، فتُحْتَلّ المدن، وتُهدّم الحصون والمزارع، وتُخرّب المحلات، وتُحرق، فانتشرت المجاعة والأوبئة، والأمراض من كلّ نوعٍ، بشكل لا يوصف.

نسي الناس عبادة الله، فأَعَدّ لهم الجحيم.

فلْيَحْمِنا المسيح الربّ من كلّ شيء، ولْيَحْمِ أولئك الذين يسجدون له بصدقٍ.

المجد لك والبركة من كلّ ما خلقت.

آمين.

انتهى الكتاب الثالث

وبه ينتهي كتاب "تاريخ الأرمن"

المحتوى

الكتاب الأول

تاريخ السلف الأول

من آدم إلى الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٦ ق.م.

الكتاب الثاني

تاريخ السلف الأوسط
من عهد الإسكندر المقدوني ٣٣٦ ق.م.
حتى عهد القديس الملك درتاد ٣٣٠ م.

الكتاب الثالث

استكمال تاريخ امتنا

من ٣٣٠ م. الى ٤٣٨ م.

السنة التي توفي فيها القديسان ساهاك ومسروب

من منشورات

دار إشبيلية

١٩٩٦ ـ ١٩٩٩

* **عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة** (محاضرات): إلفة الأدلبي
* **يوميّات مدرّسة في الأرياف**: عفاف لطف الله
* **صوت من جبال كَسَب** (قصص): زوهراب عنتبليان، نقله عن الأرمنية: نزار خليلي
* **ما وراء الأشياء الجميلة** (قصص): إلفة الأدلبي
* **قبل أن يطفح الياسمين** (شعر منثور): عامر الدبك
* **البحث عن آذان صاغية** (قصص): إيمان نايل عبيد
* **غنِّ يا طفلي الحبيب** (مع كاسيت)، كلمات وألحان وغناء: سوسن نزار خليلي، رسوم: فرح ألتونجي
* **التصوير بالكلمات**، مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن: ناديا سلطان
* **طيف الكلمات** (شعر منثور): فريال سالم مكارم
* **حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسورية**: الدكتور حلمي محمد القاعود
* **لكَ أغنّي** (صور وجدانيّة): جُمانة طه
* **تاريخ الأرمن**، من البداية حتى القرن الخامس الميلادي: موسيس خوريناتسي، نقله عن الأرمنية: نزار خليلي

قيد الطباعة

* **أبي.. وأمي.. وأنا..**، ملامح من سيرة حياة أديب: سعد صائب

عن دار إشبيلية :

الكتاب الأندلسي

سلسلة غير موقوتة تُعنى بنشر:

* النصوص الأندلسيّة القديمة محقّقة تحقيقًا علميًا،
* الكتب المؤلّفة حديثًا في الشؤون الأندلسيّة،
* وتلك التي ألّفها المستشرقون حول الأندلس.

صدر منها الكتاب الأوّل:

فضل الأندلس على ثقافة الغرب

تأليف المستشرق الإسباني: خوان فيرنيت
نقله عن الإسبانيّة: نهاد رضا
قدّم له ووضع حواشيه: فاضل السباعي
٦٠٠ صفحة (32+٥٦٨)، ١٧×٢٤ سم، تجليد فنّي فاخر
(كتاب يكشف معالمَ الحضارة الأندلسيّة
وأثرها في النهضة الأوروبيّة)

تصدر الطبعة الثانية منه قريبًا

عن دار إشبيلية :

فاضل السباعي

الأعمال المتكاملة

* الألم على نارٍ هادئة (قصص)، ١٩٨٥ ، ١٩٩٠
* أعترافات ناس طيّبين (قصص)، ١٩٩٠
* ثمّ أزهر الحزن (رواية)، ١٩٦٣ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١
* الشوق واللقاء (قصص)، ١٩٥٨ ، ١٩٩٢
* حياة جديدة (قصص)، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٩٢
* الطبل (رواية)، ١٩٩٢
* بدر الزمان (حكاية أسطورية)، ١٩٩٢
* آه يا وطني ! (قصص)، ١٩٩٦

يصدر قريبًا

* حزنٌ حتى الموت (قصص)، الطبعة الرابعة
* رياح كانون (رواية)، الطبعة الثانية

من منشورات دار إشبيلية

بالتعاون مع

الندوة الثقافيّة النسائيّة بدمشق

* **الشجرة التي غرستها أمّي**، سيرة ذاتيّة: الدكتور بديع حقّي، ١٩٩٣
* **إيحاءات**: (قصص قصيرة جدًّا): ضياء قصبجي، ١٩٩٥
* **أوراق تربويّة**، في مشكلات الأطفال والناشئة: عفاف لطف الله، ١٩٩٥
* **دفاع عن المرأة**، قضايا ومواقف: سعد صائب، ١٩٩٥
* **أسمار وأحاديث**: الدكتور إبراهيم الكيلاني، ١٩٩٥
* **نساء ورجال**، في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع: الدكتورة ليلى الصبّاغ، ١٩٩٥
* **ليلى العثمان**، رحلة في أعمالها غير الكاملة: عبد اللطيف الأرناؤوط، ١٩٩٦
* **جهان الموصلي** ١٩٠٨ـ١٩٩٦، ستّون عامًا في خدمة قضايا التعليم والمرأة والمجتمع والوطن: ١٩٩٧
* **الالتزام والبيئة في القصّة السوريّة، أدب إلفة الإدلبي نموذجًا**: سَحَر شبيب، ١٩٩٨
* **حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسورية**: الدكتور حلمي محمد القاعود، ١٩٩٩ (طبعة خاصة بالندوة).

من منشورات

مركز الإنماء الحضاري

١٩٩٧ ـ ١٩٩٩

حلب ✉ ٦٣٣٣ ☎ ٤٤٦٨٨٧٥

* **دراسات في النصّ والتناصّية**: فئةٌ من الكُتّاب، عن الفرنسية: الدكتور محمد خير البقاعي
* **رحلة إلىٰ جمهورية النظرية**: الدكتور عبد الله محمد الغذّامي
* **العقلانية**: جون كوتنغهام، عن الانكليزية: محمود منقذ الهاشمي
* **تأصيل النصّ**: لوسيان كولدمان، عن الفرنسية: الدكتور محمد نديم خشفة
* **الحمراء**: واشنطن ايرفينغ، عن الإنكليزية: عبد الكريم ناصيف والدكتور هاني يحيىٰ نصري
* **هسهسة اللغة**: رولان بارت، عن الفرنسية: الدكتور منذر عياشي
* **مفهوم السلطة والدين في تجربة فتحي غانم الإبداعية**: حسين عيد
* **التأويل والتأويل المفرط**: الكاتب الإيطالي امبرتو إكو، عن الإنكليزية: ناصر الحلواني
* **القمر لا يعرف** (رواية): الكاتب السويدي نيكلس ردستروم، عن السويدية: يوسف طباخ
* **طائر الجهات المخاتلة** (قصص): نضال الصالح
* **الثقافة الجنسوية الثقافية، الذكر والأنثىٰ ولعبة المهد**: سليم دولة

قيد الطباعة

* **صدع النصّ وارتحالات المعنىٰ**: إبراهيم محمود
* **زهور كافكا** (رواية): نيروز مالك
* . . . . : غالية خوجة

تاريخ الأرمن ، من البداية حتى القرن الخامس
موسيس خوريناتسي
نقله عن الأرمنية : **نزار خليلي**
دمشق : دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع،
ط ١ ، ١٩٩٩ . ـ ٣١٢ ص ؛ ٢٤ سم .
١ ـ ٩٠٩,٠٤٩١٩٩٢ خ و ر ت ٢ ـ العنوان
٣ ـ خوريناتسي ٤ ـ خليلي
مكتبة الأسد الوطنية
الإيداع القانوني : ٨٣١ ـ ١٩٩٩/٥

إشبيلية : إصدار ٢١ (ط ١) ـ ١٠٠٠ ـ ١٩٩٩/٩

صناعة الكتاب بدمشق

تمّ تنضيد الكتاب وإخراجه فنيًّا على برنامج العربي للنشر في
دار إشبيلية

التحضير الطباعي : مركز الفوّال
☎ ٢٢٣ ٢ ٦١١
الطباعة : مطبعة بيتموني وشركاه
☎ ٢٢٢ ٣ ٥٥٦
التجليد : دار الشرق ، عبيدي
☎ ٢٢١ ٦ ٦٣١